سلسلة مخطوطات الفاطمين

إفتتاح الدعوة

للقاضي أبي حنيفة
النعمان بن محمد التميمي المغربي

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

كتاب افتتاح الدعوة

كتاب افتتاح الدعوة

للقاضي أبي حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠



مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت ـ شارع المطار ـ قرب كلية الهندسة
مفرق سنتر زعرور ـ ص.ب ١١٠٧١٢٠
هاتف: ٤٥٠٤٢٦ ـ ٤٥٠٤٢٦ ـ فاكس: ٤٥٠٤٢٧ ـ ٠١



Published by Alaalami Library
Beirut - Lebanon po.Box: 7120
Tel Fax: 450427
E-mail: alaalami@yahoo.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله مؤيد الحق وناصر أهله، ودامغ الباطل ومذلّ حزبه، القائل وهو أصدق القائلين ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، و﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصّافات: ١٧٣] و﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، الذي ختم بنبوة محمد ﷺ نبوة النبيين، وبرسالته رسالة المرسلين، وأبقى الإمامة في ذريته وعقبه إلى يوم الدين، إكراماً له وإعزازاً لدينه من قطعة بملّة أو نسخة بشريعة، وتكّفل لأهله بالغلبة والتمكين والتأييد والإعزاز والتحصين، ولم يخلِ الأرضَ من إمام فيها للأمة، وقائل بالحق وقائم بالحجة، وإن تغلب فيها المتغلبون، واستتر للتقية الأئمة المستحفظون، وإن لهم بكل جزيرة من جزائر الأرض داعياً لهم، وبكل ناحية من نواحيها دليلاً عليهم؛ ولو ذكرنا كل إمام منهم صلوات الله عليهم ومن دعا إليه وقام بأمره لطال الكتاب بذكرهم، ولكنا آثرنا من ذلك ذكر أمر الدعوة بأرض المغرب إلى المهدي صلوات الله عليه وابتداؤها فيها، وهجرته صلوات الله عليه إليها وقيامه عنها وظهوره بأسبابها، ليبقى ذكر ذلك مسطوراً، ويجري مذكوراً مأثوراً على مرّ الزمان في غابر الدهور والأيام. وقد أفردنا كتاباً غير هذا في معالم المهدي صلوات الله عليه وصفته وذكر قيامه وأيامه وما تقدم ذلك من الآثار عن رسول الله ﷺ في ما بشر به منه.

ذكر ابتداء الدعوة باليمن والقائم بها والسبب الذي كان في قيامه بأسبابها

بدأنا بذكر هذه الدعوة المباركة إذ كانت أصل الدعوة التي قصدنا إلى ذكرها وإليها أرسل الداعي ومن اليمن نفذ إلى المغرب وعن صاحب دعوته أخذ وبآدابه تأدب.

وصاحب دعوة اليمن هو [أبو القاسم الحسن بن فرح بن حوشب ابن زادان الكوفي] وسمّي [منصور اليمن] لما أتيح له من النصر، وكان إذا قيل له ذلك قال لهم: المنصور إمام من أئمة آل محمد ﷺ، أما سمعتم قول الشاعر:

إذا ظهر المنصور من آل أحمدٍ فقلْ لبني العبّاس قوموا على رِجل

والأخبار بذكر المنصور عليه السلام كثيرة؛ روي عن جعفر بن محمد صلوات الله عليه أنه قال: منا المهديّ ومنا المنصور؛ وفي حديث آخر: أبشروا فتوشك أيام الجبارين أن تنقطع ثم يأتي الجابر الذي يجبر الله به أمّة محمد وهو المهديّ ثم المنصور الذي ينصر الله به الدين.

وكان ابتداء أمر أبي القاسم صاحب دعوة اليمن - فيما أخبرنا به أهل العلم والثقة من أصحابه - أنه كان من أهل الكوفة، من أهل بيت علم وتشيع، وكان قد قرأ القرآن وقوَّمه وطلبَ الحديثَ والفقه، وكان

ممن يذهب إلى مذهب الإمامية الإثني عشرية أصحاب محمد ابن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد الذين كانوا يرون أنه المهديّ، وأنه يظهر ويكون من أمره ما يكون على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، فنحلوه ذلك وتولّوه ولم يروه، وزعموا أنه تغيّب عنهم، ثم بطل ذلك في أيديهم، وكانت له أخبار طويلة وحماقة عجيبة.

قال أبو القاسم: فعرضت لي الفكرة يوماً في ذلك، وذكرت قول الفهريّ:

ألا يا شيعةَ الحقّ ذوي الإيمانِ والبرّ
أتتكم نصرةُ الله على التخويف والزجرِ
فلا تدعو إلى الداعين أهلِ النكثِ والغدرِ
فلو قد فُقد العاشر أو زيد على العشر
لدارت عصب الصبر على الدائر بالشرّ
فعندَ الستِّ والتسعين قطعُ القولِ والعُذْرِ
لأمر ما يقولُ النا س بيعَ الدُرُّ بالبَعرِ
وصار الجوهرُ المخزو نُ عِلْقاً غيرَ ذي قَدْرِ
يتيمٌ كانَ خلفَ البا بِ فانقضَّ على الوكرِ

قوله في اليتيم ها هنا رمز على المهدي صلوات الله عليه، وكذلك كان بحسب ما كان رسول الله ﷺ، قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: ٦].

قال أبو القاسم: فرأيت الوقت قد قرب على ما قاله الفهريّ وجالت خواطري في ذلك واشتغل به فكري، فخرجت إلى الفرات - أو قال: إلى دجلة - وإني لأمشي على النهر إذ حضر وقت الصلاة فتوضأت وصليت وجلست مفكراً فيما كنت فيه، ثم أخذت في قراءة القرآن فافتتحت بسورة الكهف، فإني لأقرأ فيها إذ أقبل شيخ عليَّ ومعه رجل لا والله ما نظرت عيني قبل ذلك الشيخ إلى أحد ملأ قلبي هيبة [أكثر] منه، فجلس ناحية وجلس الرجل بين يديه بعيدين مني، فقطعت القراءة لهيبته وبقيت أنظر إليه إذ أقبل غلام يمرح في مشيته فقرب مني فأنكرت ذلك عليه إجلالاً للشيخ، فلم يلو عليّ فقلت: من أنت يا بني؟ فقال: حسيني، فاستعبرت وقلت: بأبي الحسين صلوات الله عليه المضرج بالدماء الممنوع من هذا الماء؛ قال: فرأيت الشيخ نظر إليّ عند ذلك، وتكلم الرجل الذي بين يديه كلاماً لم أفهمه، فقال لي الرجل: تقدم إلينا - رحمك الله - فقمت إليه حتى جلست بين يدي الشيخ، فرأيت دموعه تسيل على لحيته، أظنه عند ذكري الحسين صلوات الله عليه، وقال لي: من أنت الذي تذكر الحسين بما ذكرته؟ قلت: رجل من الشيعة؛ قال: ما اسمك؟ قلت: الحسن بن فرح بن حوشب؛ قال: أعرف أباك من الشيعة الإثني عشرية؛ قلت: نعم، قال: فأنت على ذلك؟ فسكتّ؛ قال: تكلم فأنا من إخوانك؛ قلت: كنت فيمن كان على ذلك إلى أن بطل الأمر في أيدينا، وما أخرجني إلى هذا المكان إلا ضيق صدري بذلك، وذكرت له ما عرض لي؛ قال: أرى فيك نباهة وقد سمعتك تقرأ، فلم قطعت القراءة؟ قلت: والله - أيدك الله ما أسكتني إلا هيبتك؛ قال: فاقرأ

كما كنت تقرأ، فابتدأت من حيث وقفت، حتى بلغت ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ [الكهف: ٧٤] فأومأ بيده إليَّ أن اسكتْ، فسكتّ، فقال: أنت ممن يقول بالعدل والتوحيد؟ قلت: نعم، هو مذهبي، قال: فمن أي وجه العدل أن تقتل نفس زكية بغير نفس... الآية إلى قوله ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠] فسكتُّ، قال: قل، قلت: ماذا أقول؟ والله لكأنني ما قرأتها قط، وإنني إلى علم الوجه في ذلك لفقير، فإن رأيت تعريفي ذلك فعلت، قال: دون ذلك ستر رقيق، قلت: ترى كشفه لي، جعلت فداك، قال: يكون ذلك إذا أمكن إن شاء الله تعالى. وأخذ في غير ذلك حتى إذا وقف منه على مكان الجواب فيه أخذ في غيره، وأنا في كل ذلك أسأله الجواب فيه، فيقول مثل ما قال. ثم تحرك للقيام فقلت: يا سيدي، أحب أن أعرف المنزل، قال: لماذا؟ قلت: لاقتضاء وعدك، فتبسم وقال: لعلنا أن نجتمع هاهنا من غد إن شاء الله تعالى. ومضى وتركني؛ فلما غاب عني ندمت إذ لم أكن تبعته حتى أعرف مكانه، وعظم موقع كلامه من قلبي وشغل ما سمعت منه ذهني، وعدت من غد إلى المكان وأقمت به إلى الليل فلم أرَ أحداً، فاختلفت كذلك أياماً كثيرة وأنا من الغم بما فاتني منه فيما لا أصفه. حتى إذا كنت في حدّ اليأس منه مرَّ بي الرجل الذي كان معه، فنهضت إليه وسلّمت عليه وقلت: ما فعل الشيخ حفظه الله؟ وقد كان وعدني الاجتماع من غد يوم لقيته معك هاهنا وإني لمتردد من يومي ذلك إلى وعده؛ قال: لو وعدك ما أخلفك ولكن لم يكن في مخرج قوله وعد ثابت. قلت: فأين لي به، فوالله لقد شغل قلبي ما سمعت منه. قال لي

الرجل: اجلس نتحدث قليلاً، فجلسنا فإذا الرجل معه علم كثير، فطارحت عليه وأراد القيام والمسير فقلت: والله لا أفارقنك أو تكشف لي هذا الأمر، فما زلنا حتى أخذ عليّ العهد وعرفني أن الشيخ هو إمام الزمان، وفتح لي من المعرفة كثيراً، وعرفني الموضع وجمع بيني وبين الإمام، وكان يخصني ويقربني ويرمز بقرب الأمر ودنوّ العصر ويقول في كثير من كلامه: البيت يماني والركن يماني والدين يماني والكعبة يمانية، ولن يقوم هذا الدين ويظهر أمره إلا من قبل اليمن.

قال: ثم قال لي يوماً: يا أبا القاسم هل لك في غربة في الله؟ قلت: يا مولاي، الأمر إليك فما أمرتني به امتثلته، قال: اصبر كأني برجل قد أقبل إلينا من اليمن، وما لليمن إلا أنت، فقلت: أستعين بالله على ما يرضيك.

وكان الرجل من أهل جَيْشان - مدينة باليمن - شاب جميل من أهل بيت تشيع ونعمة ويسار، يقال له أبو الحسن علي بن الفضل، قد خرج حاجاً من جيشان في جماعة من أهلها في جملة من أهل اليمن سنة ست وستين ومائتين، فلما قضى حجه خرج إلى قبر الحسين صلوات الله عليه زائراً له في جماعة من أهل اليمن وغيرهم ممن شهد الموسم من الشيعة؛ فلمّا انتهوا إليه أصابوه معموراً بالشيعة، فجعل عليّ بن الفضل هذا يبكي عنده وينتحب ويعدد مناقب الحسين صلوات الله عليه ويذكر فضله، وكان رجل من الدعاة يراعيه كلّ يوم وهو على ذلك، فلما رأى نيته واجتهاده خلا به وبسطه وفتح له شيئاً من العلم وألقى إليه بعض المسائل، فركن عليّ بن الفضل إليه ولازمه وبحث عما عنده، فقال له

الرجل يوماً في حديثه: أرأيتك لو أدركت صاحب هذا القبر الذي تبكي عنده وتذكر فضائل صاحبه ما كنت صانعاً في أمره؟ قال: كنت والله أضع خدي وأقبّل الأرض التي يطؤها وأتبرك بفضل وضوئه وأكون لو شهدت مصرعه أولّ صريع بين يديه؛ قال: فإنه قد فاتك فما عندك؟ قال: ما ترى من الأسف والحزن عليه؛ قال: فكأنك ترى أن الله عز وجل قد قطع أمره بانقطاعه ورفع حجته عن خلقه بموته؛ قال: كلا، ولكن كيف لي ذلك؟ فسكت الرجل وجعل عليّ بن الفضل يلحّ عليه ويقول: والله ما رميت لي بما رميت إلا وعندك أثر منه فاهدني إليه؛ وجعل يلازمه وهو متوقف عنه ويطارح عليه وهو ينقبض منه إلى أن حضر انصراف أصحابه فودعهم، وكتب إلى أهله، وتخلّف عن الرحيل؛ فانصرف الرجل إلى موضعه فأتبعه، فقال له: أين تريد؟ قال: معك، والله لا أفارقنك أو تدلني على من أشرت إليه. وسار معه، فلما دخل المدينة التي فيها الإمام أتى به إلى مسجد فقال له: اجلس هاهنا حتى آتيك، فجلس ومضى عنه، وأقام أربعين يوماً وعليّ في ذلك المسجد لا يبرح إلا لحاجة الإنسان، والرجل يفتقده من حيث لا يراه. فلما رأى قوة عزمه ونيته أتاه. فلما رآه وثب إليه وقال: يا سيدي، ما هذا الفعل؟ قطعت بي وتركتني؟ قال: وإنك لها هنا؟ قال: وأين كنت أذهب وأنت تقول لي اجلس هاهنا حتى آتيك؟ قال: فلو لم آتك ما كنت صانعاً؟ قال: إذاً والله لا أبرح حتى أموت فألقى الله معذوراً.

فذهب به إلى موضعه وأخذ عليه عهداً وأوصله إلى الإمام، فلما رآه واختبر حاله قال لأبي القاسم: يا أبا القاسم، هذا الذي كنا ننتظره، فكيف رأيك في الذي عرضت عليك من أمر اليمن؟ قال: يا مولاي، أنا

على ما قلت لك والأمر إليك؛ قال: اعزم على اسم الله، فوالله ليظهرن الله أمركَ ولتصْدُرَنَّ الدعاة إلى آفاق الأرض عنك؛ ودعا بعلي بن الفضل فسأله عن أخبار اليمن وأحواله وملوكه، فأخبره بما أراد من ذلك، فقال: أتعرف عدن لاعة؟ قال: يا مولاي، عسى أن تكون أردت عدن أبين؟ قال: لا قلت: عدن لاعة، قال: ما أعرفها، قال لأبي القاسم: إلى عدن لاعة فاقصد، وعليها فاعتمد، فمنها يظهر أمرنا، وفيها تعزّ دولتنا، ومنها تفترق دعاتنا.

وقال لعلي بن الفضل: إنني مرسل أخاك هذا داعياً إلى اليمن وأنت معه. وتقدم إلى كل واحد منهما ناحية وأوصاه. وأعطى أبا القاسم كتاباً فيه أصول ورمز كان افتتاحه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من أب المسلمين وأمير المؤمنين ووارث الوارثين وسماء الطارقين وشمس الناظرين وقمر المستضيئين وقبلة المصلين وأمان الخائفين وقاتل إبليس اللعين، وركن الإسلام وعلم الأعلام وقلم الأقلم ويوم الأيام ونور التمام، رسالة عبد مسكين يعمل في البحر منذ سنين لعل سفينته تنجو من الغرق فينجو من ينجو فيها من العطب».

ثم افتتح الكلام الذي أصلَّه والمعنى الذي أراده وقال له فيما عهده إليه: إن لقيت من هو ألحنُ بالحجة منك فانغمس له في الباطن، قال: وكيف ذلك؟ قال: تقطع الكلام وتريه أن تحت ما تريد الجواب به باطناً لا يمكنك ذكره فتحتجز بذلك منه إلى أن تتهيأ لك الحجة عليه. وأوصاه بعليّ بن الفضل خيراً وقال: هو شاب قريب عهد بالأمر، فانظر كيف تسوس أمره. وتقدَّم إلى عليّ ناحية وأوصاه وقال له: إن هذا الرجل

الذي نبعث به معك بحر علم، فانظر كيف تصحبه، وودعهما ودعا لهما، وانصرفا عنه متوجهين إلى اليمن.

قال أبو القاسم: ولما ودّعت الأهل والأحبة متشوقاً إلى انقطاع الغربة توجهت، فلما خرجت من القادسية أوجست خيفة، فأصغيت إلى فأل أسمعه، فسمعت حادياً يقول:

يا حاديَ العيسِ مليحَ الزجرِ
بَشِّرْ مطاياكَ بضوء الفجرِ

قال: فسررت به واستحسنت ذلك الفأل لما سمعته، ووافيت مكة في حين قدوم الحاج، من اليمن، فسمعت أن محمد بن يَعفُر ملك صنعاء قد أظهر التوبة والنسك وتخلى عن الملك، وردَّ ما اقتطع من الناس إليهم، وأنصف من الظلامات، وذلك لأمر تقدمت فيه الروايات عنده من أن ملكه سيزول من يديه وأن داعي المهدي يغلب عليه، فتقدم في الاختلاع من ذات نفسه والنزوع عن الملك من قبله، وفرّق الأموال، فيقال إنه ردَّ في يوم واحد ألف ألف، حتى قام شاعر من شعرائه في أهل بيته وقد اجتمعوا فقال:

يا ذي حوالٍ يا مصابيحَ الأفُقْ ويا مَباذِلَ العطايا تَندَفِقْ
من خالصِ العقيان سحّاً والورِقْ تَدَارَكوا مُلكَكُمُ لا ينفتِقْ
فتطلبون رَتْقَ ما لا يُرْتَتَقْ إلا بأطراف الشماريخِ الشُّهُقْ
والناسُ فَوْضَى والنفوسُ تَزْدَهِقْ كغَنَمِ الذئب تُجَرَّعُ العلقْ
فالرأسُ لا يصلحُ إلا بعُنُقْ ولن يقومَ قدمٌ على زَلَقْ

لیس عَتِيقُ البِرّ كالبَرِّ الشفقْ وليس أملاكُ الرعايا كالسُّوَقْ
هذا أبو يعفر فيكم قد لحقْ كالجبلِ الشامخِ والليثِ النَّزِقْ
فأيكمْ قام بها فقد سَبَقْ

في أرجوزة طويلة. فقام ابن أخيه فتدارك الأمر وقد وهى وقد تفرق أكثره وتمزقت المملكة، وكان ذلك من صنع الله عز وجل لأوليائه.

وقضى الناس الحج وانصرفوا إلى اليمن، وتوجه أبو القاسم وأبو الحسن معهم، فدخلا اليمن في أول سنة ثماني وستين ومائتين، فأقاما باليمن سنتين يدعوان مستترين، ثم ظهرت الدعوة باليمن سنة سبعين ومائتين.

قال أبو القاسم: وسألت كلَّ من لقيت من أهل اليمن عن عدن لاعة، فكلّ يقول لي: أمّا لاعة فموضع معروف ولكن ما نعرف عدن لاعة، فإنما نعرف عدن أبين. وقصدت عدن أبين إذ لم أجد أحداً يخبرني عن عدن لاعة - الموضع الذي وجهت إليه - فأصبت بعدن أبين قوماً من الشيعة يعرفون ببني موسى؛ وعدن هذه هي فرضة الهند وأم البلدان، فسألت عما يحمل إليها من قبل أن أدخلها، فقيل القطن، فاشتريت منه شيئاً جعلته تستراً ليُرَى أني تاجر. ودخلت مع صاحبي فسألنا عن مكان بيعه فدللنا عليه، واكترينا حانوتاً في سوقه وجلسنا فيها نبيعه. فإني لجالس يوماً إذ استهلت السماء بمطر وابل؛ فإني لكذلك إذ نظرت إلى رجال قبالتي في الصف ينظرون إليّ ويتحدثون ثم قام أحدهم إليّ ووقف عليّ وقال: ترى أن تدخل بنا إلى داخل الحانوت؟ فقمت معه فقال: ما أظن هذا وجه بيّاع عطب - يعني القطن، كذلك يسمونه -

قلت: وكيف ذلك؟ قال: معك من علم آل محمد شيء؟ قلت: أنا رجل تاجر، قال: دعني من هذا، لعلك سمعت ببني موسى؟ قلت: نعم، قال: فنحن منهم ونحن شيعة وهذا أوان ننتظر دخول داعي المهديّ إلينا، فإنا لنجد صفته فيك، فهات ما عندك فنحن إخوانك. ولم يزل بي إلى أن كشفت له الأمر، وما برح حتى أخذت عليه العهد، وقام فأتاني بأصحابه، فأخذت عليهم، ونقلوني إلى محلهم فكنت عندهم فقالوا: إن لنا إخواناً من الشيعة بعدن لاعة فترى أن نرسل إليهم؟ فقلت: وثَمّ عدن لاعة؟ قالوا: نعم؛ قلت: فإليها أرسلت ولم أجد مخبراً عنها. فأرسلوا إليهم فأتى رجال منهم فأخذت عليهم وسرت معهم فأصبت دار شيعة؛ وأخبروني عن رجل منهم يقال له أحمد بن عبد الله بن خليع كان له علم فيهم وانه كان ينتظر قدومي ويقول: في هذا العام يدخل، وأعد سلاحاً لذلك أتوني به، وأن أمره اتصل بابن يعفر، فرفعه وحبسه فمات في الحبس منذ قريب، وأنزلوني في دار من دوره.

وتزوج أبو القاسم بعد ذلك ابنة أحمد هذا المتوفَّى وبعث بابن أخيه الهيثم بعد ذلك داعياً إلى بلد السند فاستجاب له كثير من أهلها، ودعوته اليوم فاشية في السند.

قال أبو القاسم: وكتبت إلى الإمام بما صار إليه أمري وكانت كتبه تردُ عليّ. ولم نزل في ضيق من الأمر إلى أن ورد علينا الكتاب بالعهد للمهدي صلوات الله عليه وأن نأخذ ذلك له، فاستقام لنا الأمر وأتانا الله بالنصر، فبعثت جواب ذلك الكتاب مع مال كثير وطرائف من طرائف اليمن وطراز من طرازه، فيقال إن ذلك لما وصل إلى الإمام دعا

بالمهديّ - وقد عهد إليه - فأعطاه ذلك وقال: هذا أول ثمرة أيامك وبركة دولتك، وأقرأه الكتاب بما هيأه الله له من ذلك، وتمثل عليه السلام بهذه الأبيات:

اللهُ أعـطـاكَ الـتـي لا فَـوْقَـهـا
وكـم أرادوا مَـنْـعَـهـا وعَـوْقَـهـا
عـنـكَ ويـأبَـى اللهُ إلا سَـوْقـهـا
إلـيـك حـتـى طـوّقـوك طَـوْقَـهـا

وفشت الدعوة باليمن وظهر أمرها، واستأذن أبو القاسم في الحرب، فأذن له، فابتنى حصناً بجبل لاعة وجيَّش الجيوش وافتتح مدائن باليمن وملكَ صنعاء وأخرج نبي يعفر منها، وفرَّق الدعاة في نواحي اليمن وإلى سائر البلدان: إلى اليمامة والبحرين والسند والهند وناحية مصر والمغرب، وكانت له أخبار يطول ذكرها ليس إياها قصدنا فنستقصيها، ولا بد من أن نذكر شيئاً منها إن شاء الله تعالى.



ذكر نكتٍ من أخبار أبي القاسم صاحب دعوة اليمن

أخبرنا الثقات من أصحاب أبي القاسم - رحمة الله عليه - عنه أنه قال: لقد ظهر لي من أمر المهدي عليه السلام والبشرى باليمن أكثر ممن كنت عرفت به، وقلّ موضع أخذت فيه أو سلكت به إلا وجدت فيه خبراً عنه وأمراً يدلّ عليه، وإني لسائر يوماً في بعض بوادي اليمن إذ انقطع شسع نعلي، فملت إلى صخرة فجلست عليها أصلحه، فإني لكذلك إذ أقبل شيخ كبير قد تعب وأدركه النفس فقال لي: ممن الرجل؟ قلت: رجل غريب، قال: هل معك خبر من المهديّ؟ قلت: ومَن المهدي؟ قال: إذا كنت لا تعرفه فلعلّ هذا وقع اتفاقاً، فقلت: وما ذاك؟ قال: لحقت هاهنا شيخاً كان من علماء الشيعة يقول: إن رسول المهدي يدخل هذه القرية فينقطع شسع نعله عند هذه الصخرة فيجلس عليها يصلحه ولعلّ منكم من يدرك ذلك الزمان؛ قلت: كلام الشيعة كثير، قال: أي والله كثير. ولم أجد عند الشيخ قبولاً وتولىَّ ومضى عني.

قال: ودخلت مسجد صنعاء أول دخولي اليمن فصليت إلى أسطوانة فيه ركعتين وكنت كالاً، ثم لففت ردائي وجعلته تحت رأسي واستلقيت على ظهري ورفعت إحدى رجليّ على الأخرى، فإني لكذلك إذ وقف

عليَّ شيخ فرفسني برجله وقال لي: قم، وانتهرني، فقمت وقلت: ما لي أيها الشيخ أقصَد دون سائر الناس وهذا كثير مضطجع في المسجد؟! قال: لم أنكر اضطجاعك ولكن هذه أسطوانة يؤثر أن داعي المهدي إذا دخل صنعاء أتاها فصلَّى ركعتين واستلقى على ظهره عندها ورفع إحدى رجليه على الأخرى، فإنما أنكرت عليك التشبه به، قلت: وما أنا وهذا؟ وكلمه بعض من سمعه فقال: ما أعجب أمرك وكأنّ هذا هو داعي المهدي؟ قال: ما هو به ولكني أنفت أن يتشبه به غيره، فقمت وتسللت، فكأنهم رأوا أن ذلك يكون عند ظهوره عليهم واقتداره.

وأخبرنا عنه بعض أصحابه أنه سمع حديثاً ترويه الشيعة باليمن أن ثلاثة منهم قدموا على أبي عبد الله جعفر بن محمد صلوات الله عليه، فقال لأحدهم: من أي اليمن أنت؟ فقال: من المذيخرة، قال: هي مدينة من صفتها كيت وكيت، ووصفها له بصفتها، قال: نعم - جعلني الله فداك - كأنها بين يديك، قال: أما إنه لا يزال لنا فيها عدو. وقال للآخر: وأنت من أيِّ اليمن؟ قال: من مدينة يقال لها الجَنَد، قال: هي مدينة من صفتها كذا وكذا، ووصفها له، قال: هي كذلك - جعلني الله فداك - كأنك تراها، قال: ما أبعد ما بينها وبين المذيخرة، إن الجَنَد لا يزال لنا فيها وليّ ما بقيت. وقال للثالث: من أي اليمن أنت؟ قال: من جيشان، قال: هي مدينة من صفتها كذا وكذا، قال: نعم، قال: وبأعلاها سدرة وبأسفلها سدرة، قال: نعم، قال: إن بين السدرتين لكنزاً لآل محمد صلى الله عليه وعلى آله.

قال أبو القاسم - وقد سمع هذا الحديث : أنا والله استخرجت

ذلك الكنز، قيل له: وما هو؟ قال: سبعون رجلاً عددتهم عدداً من أهلها بلغوا مبالغ الدعاة وكانوا من عُدة الدين وثقات المؤمنين. وعلي بن الفضل الذي ذكرنا خبره هو منها وكان سبب الدعوة - وقد ذكرنا خبره - وابن جيران الشاعر منها وكان له تشيع وله إخوة في مثل حاله.

قال أبو القاسم: وأما المذيخرة فما زالت كما قال جعفر بن محمد صلوات الله عليه أعرف فيها عدواً لآل محمد صلى الله عليه وعلى آله، ولقد مخضتها مخض السقاء وأكفيتها إكفاء الإناء وإنها على ذلك إلى اليوم - كما قد علمتم.

وأما الجند فإني أصبت بها شيعة عرفوا بذلك قديماً، ولقد صدق الله روايتهم وأفلج حجتهم بي، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: دخلتها وأنا مستتر فقصدت مسجد الجامع فصليت به الظهر والعصر والمغرب، ثم قلت لبعض من فيه: أيبيت هاهنا أحد فإني رجل غريب أردت المبيت في المسجد، فقال: نعم كل من ترى من الغرباء فيه يبيتون. فجلست، فلما صلينا العشاء الآخرة تحلقوا حلقتين وجعلوا يتناظرون في العلم، فجلست بين الحلقتين فإذا إحداهما شيعة والأخرى حشوية، فتناظروا ساعة من الليل، ثم انصرفت الشيعة وقام الآخرون لينصرفوا، فقال لهم رجل منهم: اجلسوا قليلاً، فجلسوا، وجعل ينظر إلى أولئك الشيعة وهم ينصرفون حتى انصرف آخرهم، فعطف على أصحابه فقال: أتعرفون خبر هذه الليلة؟ قالوا: وما خبرها؟ قال: أليست ليلة كذا من شهر كذا من سنة كذا؟ قالوا: نعم! فاستخرج كتاباً من كمه فقال: أوليس هذا كتاباً رواه فلان من هؤلاء الفَعَلة - يعني الشيعة -؟ فنظروا

إلى الكتاب وقالوا: نعم هو معروف لهم، فاستخرج منه حديثاً فقرأه عليهم أن بعض الأئمة عليه السلام قال لصاحب ذلك الكتاب: من أدرك سنة كذا من أهل بلدك فليلتمس داعي المهدي في ليلة كذا منها - لتلك الليلة - فإنه يبيت في مسجدها، قالوا: قد سمعنا هذا الحديث، قال: فقد ترون هؤلاء انصرفوا، ما منهم من ذكر هذا ولا عرفه، فهلموا بنا نبطل قولهم ونكذبهم ونخرج جميع من في المسجد الليلة فلا يبيت به أحد لنبطل روايتهم، قالوا: نعم، فقام قائم منهم فقال: يا معشر الغرباء انصرفوا فليس يبيت أحد منكم الليلة في هذا المسجد على حال، فإن لهذا قصة لا يمكن معها مبيت أحد منكم. قال أبو القاسم: فرأيت كلَّ واحد منهم يضمّ ما كان معه ويخرج، فلم أدر إلى أين أخرج. وقصدت زاوية من زوايا المسجد فجلست فيها وقلت: لعلَّ من يخرجني يمضي إلى بيته. فافترقوا يخرجون الناس ويطفئون القناديل، فأتاني رجل منهم وقد طفى أكثرها فقال: قم يا رجل، فقمت وقلت: إني رجل غريب لا أعرف موضعاً أقصد إليه فلعلك أن تمضي بي هذه الليلة فتؤويني في محلك، قال: لا والله ما عندي موضع، فقلت: سبحان الله تخرجني من بيت الله وتمنعني بيتك؟ فكأنه استحيا فنظر إلى الناس قد خرجوا فانصرف وتركني، وأغلقوا باب المسجد، فبت بليلة طويلة، وخفت أن يُختَبر المسجد من غد فلم يكن ذلك، فأصبحوا ففتحوا الأبواب ودخل الناس وصلّوا ما نظروا بي في شيء من ذلك.

قال أبو القاسم: وخرجت من الجند أريد ناحية فإني لسائر يوماً إذ رأيت عسكراً عظيماً قد أقبل، والناس يقولون: هذا عسكر ابن يعفر، يريدون حرب جعفر بن إبراهيم صاحب المذيخرة، وتفرقوا في شعاب

جبل خوفاً من العسكر، وكنت في من تفرَّق فيه، فرأيت كهفاً فدخلت فيه، فإنّي لجالسٌ فيه إذ دخل عليَّ رجل فسلَّم عليَّ وجلس وقال: ممن الرجل؟ قلت: من هذه السيّارة، رأينا العسكر قد أقبل فافترقنا في هذا الشعب إلى أن يجوز، فدعا لي بخير وانبسط إليّ وسألني عن مسائل من الحلال والحرام - ذكرها أبو القاسم - قال: فأجبته عنها - وذكر جوابها -؛ قال: فنظرت إلى الرجل قد ملأ عينيه مني وهملتا دموعاً، ثم قام إليّ فجعل يقبل رأسي ويدي ورجلي ويقول: يا سيدي، رسول الله أرسلني إليك لتستنقذني وتأخذ بيدي فتخلصني، قلت: وكيف هذا أيها الرجل؟ قال: نعم كنت رجلاً أرى في منامي رسول الله ﷺ في ليلة معروفة من كل عام، وكنت أتأهب لتلك الليلة ولا تخرم رؤياي، فلما كان هذا العام لم أره، ومضت مدة فكنت في أكبر الغمّ من ذلك، فلما بتّ البارحة رأيته صلى الله عليه وعلى آله فجعلت أقول: يا رسول الله طال شوقي إلى رؤيتك وقطعت عني ما عوّدتني من ذلك، قال: فإني أبشرك وأخبرك أن داعي المهدي في بلدك وبين ظهراني قومك، فبادر إليه وخذ بحظك منه، قلت: وكيف لي به يا رسول الله؟ قال: أنت واجده غداً في كهف كذا وكذا - ذكر لي هذا الكهف - قلت: فإني أخاف أن أجد غيره، فوصف لي بصفتك وقال: مع هذا فاسأله عن كذا، وذكر لي هذه المسائل، فإن أجابك بكذا، وذكر لي جوابك، فهو صاحبك. قال أبو القاسم: فأدركتني خشية وعبرة وقلت: ما عسى أن أقول لمن أرسله إليّ رسول الله ﷺ؟ فذاكرته وبسطت له، ثم أخذت عليه، وكان هذا الرجل معروفاً باليمن ويذكرُ ذلك ويحدّثُ به.

وأخبرنا بعض أصحاب أبي القاسم عن أبي محمد عبد الله بن عباس - وكان من أجلّ من كان من دعاة أبي القاسم من أهل اليمن، وهو الذي استخلفه على الدعوة بعده - قال: أرسلني أبو القاسم إلى ناحية مصر أدعو فأتيت حياً من أحياء العرب فأصبتهم في جماعتهم يَهْنَؤُون إبلهم، فلما رأوني مقبلاً تركوا ما هم عليه وأقبلوا عليّ وقالوا: ممن الرجل؟ قلت: رجل غريب، قالوا: وما أردت إلينا؟ قلت: أطلب التعليم، قالوا: انزل على الرحب والسعة، وأخذ بيدي شيخ منهم ومضى بي إلى منزله فأنزلني عنده فأخلى لي خيمة وفرش لي فراشاً وأتاني بطعام فأكلت، فلما كان من الليل تحدث معي طويلاً، فلما مضى هويّ من الليل قال: أنشدك الله لما كشفت لي ما أنت عليه وما جئت له، قلت: أو لم أخبرك أني معلم؟ قال: ما يقع هذا بقلبي؛ فلم أكشف له شيئاً، فغدا عليّ وأقام أياماً وليالي يستكشفني ويسألني سؤال من عنده علم، فتماديت له على ما ابتدأت به من أني معلم، فجمع لي صبيان الموضع وجلست أعلمهم، وهو في ذلك إذا خلا بي قال لي مثل قوله الأول، فما زال بي حتى كشفت له الأمر وأخذت عليه، فكان من خير من دعوته، ودعوت هناك دعوة عظيمة، فكان يقول لي بعد ذلك: والله لكأنما أنزل الله لك الهيبة والجلالة في قلبي وأنك لم تأت إلا لهذا، وكان عندي منه علمٌ مبق إليّ؛ قال أبو محمد: ولم أسأله عن ذلك العلم ولا ذكره لي.



ذكر السبب
الذي تقدم إلى المغرب قبل قدوم الداعي إليه

قدم إلى المغرب في سنة خمسٍ وأربعين ومائة رجلان من المشرق قيل إن أبا عبد الله جعفر بن محمد ﷺ بعث بهما وأمرهما أن يبسطا ظاهر علم الأئمة من آل محمد صلوات الله عليهم وينشرا فضلهم، وأمرهما أن يتجاوزا إفريقية إلى حدود البربر ثم يفترقان، فينزل كل واحد منهما ناحية. فلما صارا إلى مَرْمَاجنة نزل أحدهما، وكان يعرف بأبي سفيان بها بموضع يقال له تالا فابتنى مسجداً وتزوج امرأة واشترى أمة وعبداً، فيقال إنه كان يعمل مع عبده ويأمر امرأته فتعمل مع أمتها، وكان له من الفضل والعبادة والذكر في الناحية ما قد اشتهر به ذكره. وكان أهل تلك النواحي يأتونه ويسمعون فضائل أهل البيت صلوات الله عليهم منه ويأخذونها عنه، فمن قبله تشيع من تشيع من أهل مرماجنة، وهي دار شيعة وهو كان سبب تشيعهم، وكذلك أهل الاربُس، ويقال إنه كان أيضاً سبب تشيع أهل نفطة، وذلك أن قوماً منهم كانوا يختلفون بالتمر إلى تلك الناحية ويشترون القمح منها، وكانوا يأتونه ويسمعون منه ويأخذون عنه؛ وقيل إن بعضهم هلك له بعير كان معه، فرآه يبكي فرقّ له وقال: أنا أعيرك بعيراً وإن شئت بعته منك بِنَظِرَةٍ، قال: بل تبيعه مني

بنظرة إلى أن أصل إلى بلدي فآتيك بثمنه، ولم يكن من أصحابه الذين أخذوا عنه، فقال له: تجد كفيلاً؟ قال: نعم، قال: فانظر فيه، فقال: الله لك بي كفيل، قال: قد قبلت؛ ودفع إليه البعير، فلما صار إلى بلده اقتعد به وجعل يختلف به إلى باغاية، وأقام دهراً؛ ثم إن البعير انقطع في الليل من القطار فضرب إلى ناحية مرماجنة، فبينما أبو سفيان في مسجده إذ أناخ البعير بفناء المسجد وعليه حمل تمر، فنظر إليه فعرفه وقال: لقد أوفى الكفيل بك، وكتب إلى الموضع يخبره، فأتاه صاحبه بالثمن فدفعه إليه بحمله وذهب ليعتذر إليه، فقطع كلامه عليه وأضافه إلى أن باع تمره وابتاع قمحاً وانصرف؛ وكانت له في الفضل والعبادة أخبار كثيرة.

وأما الثاني فكان يعرف بالحلواني وأنه تقدم حتى وصل إلى سوجمار فنزل موضعاً منه يقال له الناظور فبنى مسجداً وتزوج امرأة واشترى عبداً وأمة، وكان في العبادة والفضل والعلم علماً في موضعه، فاشتهر به ذكره، وضرب الناس من القبائل إليه، وتشيّع كثير منهم على يديه من كتامة ونفزة وسماتة، وكان يقول لهم: بعثت أنا وأبو سفيان فقيل لنا: إذهبا إلى المغرب فإنما تأتيان أرضاً بوراً فاحرثاها واكرباها وذللاها إلى أن يأتيها صاحب البذر فيجدها مذللة فيبذر حبه فيها.

فكان بين دخولهما المغرب ودخول صاحب البذر - وهو أبو عبد الله - مائة وخمس وثلاثون سنة؛ فمات أبو سفيان منهما بمرماجنة وقبره بها يعرف مكانه ومكان مسجده إلى اليوم، وعاش الحلواني بعده دهراً طويلاً حتى لحق من لحقه أبو عبد الله وخلف ابنة له يقال لها أم موسى، ومات بالناظور من أرض سوجمار وثمّ قبره ومسجده.

وكان ممن لحقه ولحق أبا عبد الله أبو حيون المعروف بأبي المفتش ، وأخذ عنه بعض الشيء وهو صغير ، وأخذ بعد ذلك عن رجاله ، ولحق أبا عبد الله ، وسنذكر خبره معه عند ذكره في موضعه ، إن شاء الله تعالى .





ذكر وصول أبي عبد الله الشيعي داعي المغرب إلى صاحب دعوة اليمن وخروجه من عنده

كان أبو عبد الله هذا من الكوفة واسمه الحسين بن أحمد بن محمد ابن زكريا وكان إذا علم وعقل ودين وورع وأمانة ونزاهة، وكان أكثر علمه الباطن، ونظر في علم الظاهر نظراً لم يبالغ فيه. فلما تمكنت الدعوة باليمن وظهر أمرها أرسل الإمام أبا عبد الله إلى أبي القاسم داعي اليمن، فكتب إليه في أن يبصره ويرشده ويلقنه وقيل لأبي عبد الله: امتثل سيرته وانظر إلى مخارج أعماله ومجاري أفعاله فاحتذها وامتثلها واعمل عليها ثم اذهب إلى حيث شئت فادعُ؛ وقيل: بل حدًّ له المغرب وأرسل إلى بلد كتامة، وهذا أثبت الأمرين.

فانتهى أبو عبد الله إلى أبي القاسم صاحب دعوة اليمن، فأنزله عنده وقرَّب مجلسه وأدنى مكانه ورفع من قدره، وقد كان يعرفه، وأقام عنده من وقت انصراف الحاج من مكة إلى اليمن إلى وقت خروجهم إلى الحج في العام المقبل يشهد مجالسه ويخرج معه في غزواته لا يفارقه فلما حضر وقت خروج أهل اليمن إلى مكة للحج خرج أبو عبد الله معهم إلى مكة، وأخرج أبو القاسم معه من قبله رجلاً أصحبه إياه وآزره به بحسب ما جرت به السيرة في الدعاة، وبحسب ما كان معه علي بن

الفضل لئلا يحدث به حدث فيكون معه من يخلفه إلى أن يأتي أمر الإمام عليه السلام.

وكان الذي أخرج معه رجلاً يقال له عبد الله بن أبي الملاحف، فصحبه إلى أن وصل إلى بلد كتامة فأحكم أمره، وكان إذا بعث رجلاً لوجه من هذه الوجوه لم يُعلم ذلك الرجل بمسيره أحداً من أهل ولا ولد لا من قريب ولا بعيد، ولا يعرف أين توجه ولا أين سلك؛ كذلك كان أبو عبد الله وأصحابه من كتامة.

وكانت لعبد الله بن أبي الملاحف والدة فقدت عقلها لما فقدته وخولطت فيه، فرقَّ لها أبو القاسم وبعث إلى أبي عبد الله رجلاً يقال له إبراهيم بن إسحاق الزَّبيدي من أهل اليمن ليكون معه مكان ابن أبي الملاحف، وكتب إليه بأن ينصرف إليه ابن أبي الملاحف، ففعل، وكان أبو عبد الله يقال له «السيد» بكتامة، كما تقول العرب لصاحب أمرها والشريف فيها: «السيد»، فأجرى ذلك أبو عبد الله على ما يعرفه بالمشرق فسمَّى إبراهيم هذا لما قدم عليه «السيد الصغير» وكان يعرف أيضاً بالهوازي، وذلك أنه أنزل قبل أن يظهر أمره عند بعض شيخ كتامة، فقيل له من هذا الرجل؟ قال: هوازي، فلزمه هذا الإسم. ولم يكن إبراهيم هذا بمحمود الفعل وكذلك كان ابن أبي الملاحف، ولما انصرف إلى اليمن صار في جملة من افتتن بها، وسنذكر خبره.

ولما قدم أبو عبد الله من اليمن قبل إفريقية أظهر أمره بكتامة أنه صنعاني، وكان يدعى عليه على منابر بني الأغلب بذلك، يقال: «اللهم إن كان هذا الكافر الصنعاني قد استشرى أشره واستمرى مرتعه كافراً

لأنعمك مبدلاً لدينك مخالفاً لكتابك اللهم فالعنه لعناً وبيلاً، واخزه خزياً طويلاً، وأرح منه عبادك، وظهر منه أرضك وبلادك». وكان يبلغ ذلك أبا عبد الله فيقول: قولهم هذا فيّ كقول مشركي العرب في رسول الله ﷺ إذ شتموه: «اللهم افعل بمذمم واصنع بمذمم كذا» لئلا يقولوا: محمداً فيعظموه؛ وكان رسول الله ﷺ يقول: أما ترون ما دفع الله من شرهم، يشتمون مذمماً وأنا محمد.

فلما خرج أبو عبد الله من عند أبي القاسم من عدن لاعة مع من بعثه معه وأرسل معهما من يشيعهما إلى أقصى مبلغ طاعته من اليمن وكتب إلى من يكاتبه فيما يلي ذلك من طريق مكة في الوصاية بهما، فخرج أبو عبد الله من عنده، فأخبرني من كان بحضرته يوم ودّعه من لاعة، وهو في مجلس له مشرف على الجبل، فنظر إليه منصّباً في الجبل بين يديه، فجعل ينكت بأصبعه نحوه ويقول: وإن بين كتفيه لنجاة خلق عظيم.



ذكر اجتماع أبي عبد الله مع الرجال الكتاميين بمكة ووصوله معهم إلى بلد كتامة

ووصل أبو عبد الله مع جملة الحجيج من أهل اليمن إلى مكة، فلمّا قضى الناس حجّهم واستقروا بمنى جعل أبو عبد الله يمشي بمنى، فمرَّ على جماعة من رجال كتامة ممن حج تلك السنة، وهم في رحالهم، وفيهم من الشيعة الذين كانوا تشيعوا بأسباب الحلواني رجلان: حريث الجيملي وموسى بن مكارمة، فسمعهما أبو عبد الله يذكران لأصحابهما فضائل عليّ عليه السلام، فجلس إليهما يذكر شيئاً من ذلك معهما، فأقبل عليه جميعهم، وحدثهم طويلاً ثم نهض ليقوم فقاموا معه ومشوا لمشيه وقالوا: نحب أن نعرف مكان رحلك فجاء بهم إليه، فلما كان من غد أتوه فحدثهم وأوسع في الحديث، وازدادوا فيه رغبة وعليه إقبالاً، فجعل يسائلهم عن بلدهم فيخبرونه، فلما حضر النَّفر من منى قالوا له: أين توجهك؟ قال: إلى مصر، فسرّوا بذلك ورحلوا برحله وجعلوا يمشون حوله إذا سار وينزلون بقربه إذا نزل ويخدمونه ويعظمونه. فلما نزلوا أول منهل اشتروا له شاة فذبحوها وهيأوا له طعاماً ونزلوا معه فأتوه بطعام قال: ما هذا؟ قالوا: هذه سُنَّتنا في الضيف، وأنت ضيف فينا فداراهم في ذلك، وأقسم عليهم ألا يفعلوا، فقالوا: نحن على ظهر

طريق، فجعل يتلطف لهم في ذلك، وأمره في كل يوم يعظم عندهم ويزيد، ويسمعون منه في كل يوم أمراً جديداً لم يكونوا سمعوا مثله، ويستفتونه فيفتيهم، فمالت إليه قلوبهم، واجتمع إليه كل من كان حاجاً ذلك العام من كتامة، فكانوا يمشون حوله إذا مشى، فإن نزل لحاجة وقفوا ونزل له بعضهم معه حتى يقضي حاجته ويأخذ ركابه فيركب، وإن مرَّ بماء استسقوا له، وإن رحل لم يرحلوا لأنفسهم رحلاً حتى يرحل رحله ويحملوه، وإذا نزل منزلاً كانوا حوله يخدمونه ويسعون في حوائجه بين يديه؛ وكذلك شأن كتامة إلى اليوم، يعظمون من كان قبله أقل شيء من العلم ويقدمونه، حتى المعلم الذي يكون عندهم وإن كان لا يحسن غير قراءة القرآن فإن له عندهم قدراً وحالاً ومكاناً.

وكان أبو عبد الله يسألهم في خلال حديثه عن بلدهم وأحوال أهله فيخبرونه بما يرى أنه موضع لما يريده، وكان مما سألهم عنه أن قال لهم: كيف طاعتكم للسلطان وحكمه عليكم؟ فقالوا: ما له علينا من طاعة ولا حكم أكثر من أنا نقول إنه سلطان قال: وكم بينكم وبين موضعه؟ قالوا: مسيرة عشرة أيام، قال: فبالقرب منكم أمصار؟ قالوا: نعم، وذكروا مِيلة وسطيف وبلزمة وقالوا: هي في حدودنا - قال: فلسلطان إفريقية بها عمّال؟ قالوا: لا، فإنما بها رجال ملكوها ما له عندهم أكثر من الدعوة على المنابر، وهم له طاعة في معصية. قال: فلهم عليكم أنتم طاعة؟ قالوا: لا بل هم يدارون من قرب منهم منّا ونحن الغالبون عليهم؛ قال: فإلى من يرجع أمركم؟ قالوا: كل رجل منا في نفسه عزيز، ولنا أكابر منا في كل قبيلة، وعندنا قوم نظروا في شيء

من العلم، ومعلمون نستفتيهم في أمر ديننا ونتحاكم إليهم فيما يكون بيننا ، فمن حكموا عليه ألزم نفسه ما ألزموه، وان عَنَدَ عن ذلك قامت الجماعة عليه، وما وجب في أموالنا من عشر أو صدقة أخرجناها نحن لأنفسنا فدفعناها إلى الفقراء فينا. قال: فلا سبيل للسلطان عليكم في ذلك؟ قالوا: لا ، قال: فكم مسافة بلدكم؟ قالوا: مسافة خمسة أيام طولاً في عرض مسافة ثلاثة أيام. قال: فأنتم قبيل واحد؟ قالوا: يجمعنا اسم كتامة ثم نفترق قبائل وأفخاذاً وبيوتات. قال: فبعضكم ناء من بعض؟ قالوا: ما بيننا كثير تباعد. قال: فأمركم متفق؟ قالوا: لا ، نحن نحارب بعضنا بعضاً ثم نصطلح بعد القتل ويصالح القوم منا قوماً ويحاربون آخرين، كذا دأبنا. قال: فإن دهمكم غيركم تجتمعون؟ قالوا: ما رام ذلك منا أحد قط. قال: ولم؟ قالوا: لكثرة عددنا وامتناع بلدنا. قال: وكم يكون عددكم؟ قالوا: ما أحصى ذلك أحد منا ولا من غيرنا - فيما علمناه - قال: فعندكم الخيل والسلاح؟ قالوا: ذلك أكثر كسبنا وبه نفخر وإياه نعتد لحاجتنا إليه لما بيننا من حروبنا.

وكل ذلك يسألهم عن هذا ومثله في خلال الحديث ويذكر أحوال البلدان والعشائر وكل ذلك يسألهم ويجريه حديثاً لغير علة، وهو يعي ذلك عنهم ويستخبر ما يريده منهم لما يرجوه ويؤمله فيهم، وهم عما يريده بمعزل لا يرون أنه يجري ذلك إلا حديثاً على ظاهر ما يرون منه، وهو مغتبط بكل ما يسمعه من ذلك، ويرى أن الأمر ينتهي فيهم.

حتى إذا صاروا إلى مصر أظهر لهم أنه يريد المقام، فأظهروا الغمة لفراقه وقالوا: ما يقيمك هاهنا وما نرى معك من تجارة ولا هو بلدك؟

قال: اطلب التعليم، فابتهجوا لذلك وقالوا: ما نرى أنك تجد بلداً أجدى عليك في التعليم من بلدنا، وجعلوا يخبرونه بنَفَاق ذلك عندهم وتعظيم أهل بلدهم للمعلمين فيهم وقالوا: إن شئت فانظر ما عسى أنك ترى وتؤمل كسبه في التعليم في كل سنة فنحن نزيد فيه على أملك ونوجبه لك على أنفسنا وندفع إليك الآن منه إن شئت أجر السنة والسنتين وما أحببت من ذلك. فأظهر لهم في ذلك أمراً بين الأمرين، ورغبتهم في ذلك تزيد فيه، وهم يتطارحون في ذلك عليه ويسألونه إلى أن أجابهم إلى الخروج معهم، فسرّوا بذلك سروراً شديداً وقال بعضهم لبعض: إن هذا لما يكون لنا به الفخر، وإنا لنأتي إلى بلد كتامة بشيء ما جاء به أحد ممن كان قبلنا، وجعلوا يزيدون في الرغبة إليه ويقولون: عندنا كثير من إخوانك ممن يذهب إلى ما أنت عليه فلو رأوك ورآك الناس ما رضوك إلا لشيوخهم دون صبيانهم، وليس مثلك نجلبه لتعليم صبيان، وما تريده لوجه التعليم فأنت تجد أضعافه في أموالنا، فأسمعهم خيراً.

فلما رأوه قد عزم على المسير معهم اجتمعوا وقالوا: نجمع له دنانير ندفعها إليه لتقوى بها نفسه ونحمل مؤنته. فجمعوا دنانير أتوه بها فامتنع عليهم، فحاولوه على ذلك بكل وجه فأبى عليهم وقال: لم يكن منّا ما يجب ذلك له، وإذا كان قبلنا منكم؛ قالوا: فامنن علينا بقبول هذا فإنها يدٌ لك عندنا، فامتنع من ذلك بتلطف وشكر، فعظم في أعينهم وزادت هيبته في صدورهم.

ثم خرجوا من مصر وأرادوا حمل مؤنته فأبى عليهم وسايرهم على ما

كان في تلطف، وكل ذلك أمره يعظم عندهم وجلالته تزيد في أعينهم، فكانت طريقهم من طرابلس على قسطيلية لأنها الجادة، فلم يدخلوا إفريقية. حتى إذا صاروا إلى سوجمار من أرض سماتة تلقاهم أهل الموضع فأنزلوهم عندهم ولقي حريثاً وموسى: أبو المفتش. وأبو القاسم الورفجومي وأبو عبد الله الأندلسي - وكان هؤلاء شيعة - فلقوا صاحبيهم فأخبراهم بخبر أبي عبد الله، فنظر السماتيون إلى تعظيم الكتاميين بجماعتهم له، فرغب كل واحد منهم في أن يكون نزوله عنده حتى رموا عليه السهام، فخرج له سهم أبي عبد الله الأندلسي، فنزل عنده ونزل حريث عند أبي المفتش وموسى عند أبي القاسم، وأنزل السماتيون كل واحد من الكتاميين عند رجل منهم بحسب ما يفعلونه بالأضياف الجماعة إذا حلوا بالقوم، فذبح كل واحد شاة لضيفه واحتفل في بره وإكرامه.

فنظر أبو عبد الله إلى صدق ما وصفوه من أحوالهم، وأتاه أبو المفتّش وأبو القاسم الورفجومي مع حريث وموسى من الليل، فتحدثوا عنده ملياً. ونظر أبو عبد الله إلى قوم لهم من المعرفة والفهم أكثر مما رآه لمن عاينه ممن صحبه، وأصاب عندهم من علم الشيعة وفضل أهل البيت أصلاً قويّاً، فزاد في الكلام معهم والإيضاح لهم. فلما كان آخر المجلس وأرادوا القيام نظر إليه أبو المفتش وقال: والله إني لأظنك صاحب البذر الذي يذكره الحلواني، وأخبره بخبره، وقام، فقال أبو عبد الله لأبي عبد الله الأندلسي: شيخ كويس - يعني أبا المفتش.

فلما خرج أبو المفتش قال لأصحابه: لولا واحدة كان الحلواني

يقولها ما تخالجني الشك في أن هذا الرجل هو الذي كان الحلواني يبشر به، قالوا: وما هو يا أبا حيون؟ قال: كان إذا وصفه قال: في فيه إصبع، فبلغ ذلك أبا عبد الله فتبسم وقال: هذا لا يكون، فلما أخذ العهد بعد ذلك على من سمع ذلك من أبي المفتش واشترط الكتمان وضع إصبعه على فيه وقال: هذا هو الأصبع الذي يقوله الحلواني، آمركم بالصمت والكتمان، فأما أن يكون في فم رجل إصبع فلا، قالوا: كذلك والله هو، وقام عندهم الشاهد في ذلك.

فلما انصرف القوم عنه بقي معه أبو عبد الله الأندلسي وكان له فهم وحدة ومعرفة، وكان معلماً بالموضع ثم أوطنه وصار إلى درجة العلماء فيه وتشيَّع، فما زال يطارحه أبو عبد الله ويجد منه ما يريده حتى كشف له الأمر وأخذ عليه العهد في ليلته تلك؛ فيقال إنهما صليا الفجر على طهر العشاء الآخرة، فنام أبو عبد الله بعد الصلاة، وقام أبو عبد الله الأندلسي فذبح غنماً كثيرة، ومشى إلى الكتاميين، وقد أخذوا في الرحيل، فأقسم عليهم أن يقيموا عنده يومهم فشقَّ ذلك عليهم لقرب بلدهم، فقال لهم: إن هذا الضيف الذي معكم قد سهر هذه الليلة فلما صلَّى نام وكرهت إن مشى اليوم أن تناله علة، قالوا له: أما إذا كان هذا فنقيم، ولو قدرنا أن نقيه بأنفسنا لفعلنا. فقام بضيافتهم وجعل يستعد ما يسير به، فرآه أبو المفتش وأبو القاسم الورفجومي على ذلك فقالا: ما هذا الذي نراك تصنعه من الزاد؟ فقال لأبي المفتش: أظن الذي قلت في هذا إنه صاحب البذر كما قلت، وقد رأيت أن أصحبه وأتعرف ما عنده. قال أبو القاسم: وأنا والله، فافعل ذلك، وكان أبو المفتش قد خرف وضعف

بدنه فقال: وأنا والله، فلو استطعت السفر لكنت معكما، ولكن متى وقفتما منه على أمر كتبتما إليّ فحملت إليه، ونظر موسى وحريث من رغبة أصحابهما فيه ما زادهما غبطة به وسروراً بقدومهما به؛ وبات القوم فلما أصبحوا ارتحلوا.



ذكر
وصول أبي عبد الله إلى بلد كتامة وابتداء أمره فيه

وسار القوم فدخلوا حد بلد كتامة يوم الخميس للنصف من شهر ربيع الأول سنة ثمانين ومائتين ومعهم أبا عبد الله الأندلسي وأبو القاسم الورفجومي، فتنازع أبا عبد الله كل واحد من الكتاميين ليذهب به إلى موضعه رغبة فيه وحرصا عليه حتى صار أمرهم في ذلك إلى التشاحّ والمنابذة، ثم آل أمره إلى أن يخيروه في حيث يجب أن يقصد منهم وتراضوا في ذلك فقال: في أي موضع عندكم فج يسمّى فج الأخيار، فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم رأوا أنه قد علم ذلك، قالوا: هو عند بني سكتان وطريقهم من هذا الموضع فيه، قال: فإليه نقصد ثم نأتي كل قوم منكم إن شاء الله في مواضعهم ونزورهم في بيوتهم ولا نجعل لأحد منكم من نفسي حظاً دون أحد، فأرضاهم ذلك وسار كل قوم منهم إلى جهتهم، وسار أبو عبد الله مع حريث وموسى وأبي القاسم الورفجومي وأبي عبد الله الأندلسي إلى إيكجان موضع موسى وحريث من بني سكتان.

فلما صار إلى فج الأخيار قال لهم: هذا فج الأخيار؟ قالوا: نعم، ثم قال له موسى وحريث: والله ما نعلم أنا ذكرنا لك هذا الفج فمن أين

علمت اسمه؟ ثم نراك قد عرفته دون أن نعرفك به! قال: البلدان توصف للناس وتذكر لهم وإن لم يروها. وكان بعد ذلك يقول: والله ما سمي هذا الفج إلا بكم، ولقد جاء في الحديث: «إن للمهدي هجرة تنبو عن الأوطان في زمان محنة وافتتان ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان: قوم مشتق اسمهم من الكتمان» فأنتم هم كتامة، وبخروجكم من هذا الفج سُمّيَ فج الأخيار.

ونزل أبو عبد الله بايكجان فأقام به، وصدر عنه كل من كان معه من الحجيج من كتامة إلى مواضعهم، فأخبروا من قدموا عليه من أصحابهم بأخباره، ووصفوا لهم علمه وحاله، فأقبل الناس إليه من كل ناحية وتسامعوا به، فكان يجلس لهم ويحدثهم بظاهر فضائل علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وعلى الأئمة من ولده ﷺ، فإذا رأى الواحد منهم بعد الواحد قد لَقِنَ عنه وأحسَّ فيه ما يريده ألقى إليه شيئاً بعد شيء حتى يجيبه فيأخذ عليه. وأخذ قبل ذلك على أبي القاسم الورفجومي وعلى حريث وموسى فقال حريث: ما كان أطولَ سَفَرنا معك ونحن في غفلة عن مثل هذا منك.

وأتاه هارون بن يونس بن موسى المسالتي الذي كان يقال له «شيخ المشايخ» من مسالتة فدعاه. وجاءه الحسن بن هارون الغشمي من غشمان تازروت فدعاه، وكان شاباً عاقلاً وسيماً كريم الأخلاق من أهل الجدة واليسار، وكانت له أفعال جميلة وفضائل مذكورة، وأتاه من إجّانة أبو يوسف ماكنون بن ضبارة وابن أخيه تمام بن معارك أبو زاكي وهو حَدَث فدعاهما، فرأى من أبي زاكي حركة ونباهة ونشاطاً في

حوائجه وخفة ورغبة في ذلك وحرصاً عليه. وكان أبو زاكي يخدمه بين يديه لا يفارقه. واشتهر أمره وهو في ذلك ظاهر، ثم عرضت له علة من حصاة كانت تعتريه فتبلغ به فقالوا له: لو أصبت حماماً قيل له الحمام بميلة، وهو قريب منك، فمضى مع رجل من بني سكتان حتى دخل ميلة، فقصد فندقاً بها كان لفرجون مولى لموسى بن عياش صاحب ميلة فنزل فيه. وجاء رجل إلى موسى بن عياش فقال له: إن الرجل المشرقي الذي انتهى إليك أنه نزل بايكجان وأن الناس من كتامة يأتونه قد دخل ميلة، وقد نزل في فندق فرجون، وفرجون قائم بين يديه - وكان من جلة عبيده، وولده اليوم بميلة في ثروة وجماعة، ويقال إنه مات عن عشرين ولداً ذكوراً كلهم يركبون خلفه إذا ركب، وكان نبيلاً ذا همة وكرم - فقال له موسى مولاه: اذهب فجئني بهذا الرجل من فندقك فما ينبغي أن تهمل أمر مثله، فخرج فرجون ليأتي به وحاسب نفسه فيه، وذلك أنه قد صار ضيفه إذ نزل في فندقه وخاف أن يكون من موسى إليه ما يكرهه فيكون ذلك نقصاً عليه، فدس إليه من أنذره وأمره بالخروج، وترجح إلى أن علم أنه قد خرج، فأتى فندقه فسأل عنه فقيل إنه خرج، فجعل يطلبه، ثم رجع إلى موسى فأخبره أنه وجده قد خرج، فأعرض عن ذكره ووقاه الله شره. والبيت الذي نزل فيه من هذا الفندق يعرف بنزوله إلى اليوم.

وقيل إنه جاء على بغلة بلقاء - وكانت عنده زماناً طويلاً يركبها - ورجع إلى إيكجان، فذكر طلب موسى بن عياش إياه، وانتشرت أخباره في قبائل كتامة، وأقبلوا إليه من كل ناحية، فتسامع الناس بأنه يدعو إلى أمر مكتوم لا يعلمونه، وأن من دخل ذلك الأمر لم يظهره ولا شيئاً منه،

فإذا سأله أخصّ الناس به وأقربهم إليه وأعزهم عليه عما دخل فيه وما قيل له قال: «ابلغ توقن»، وكانت كلمة علمهم إياها أبو عبد الله فكانت هجيراهم عند السؤال، وسمّاهم: «أخواناً» وكان إذا دعا أحدهم قال: «يا أخانا»، وكانوا يتداعون بينهم كذلك.

وعرف أبو عبد الله وشهر أمره بـ«المشرقي»، ومن دعاه ودخل في أمره نسب إليه فقيل إنه مشرقي فسمّوا «المشارقة». ورأى أهلوهم منهم الإقبال على الصلاة والصيام وأعمال الخير وأفعال البر وتجنب المعاصي وصلاح الأحوال ما دعاهم إلى الدخول في ذلك، فأقبلوا إليه من كل وجه، فكل من جاءه دعاه وانصرف إلى بلده وموضعه وأهله واختلف إليه يسمعه، ومنهم من أقام بايكجان رغبة في القرب منه.

ودعا جماعة من بني سكتان فأخلوا له مجلساً للسماع، وكانوا يقيمون ضيافة من يأتيه ويرد عليه ويحمل المؤمنون إليه وينفقون في ذلك رغبة في الثواب وتقرباً إلى الله عز وجل بعمل الخير، وكان ذلك أول ما خصهم به من النفقة عليه وندبهم إليه. وصار من وصل إلى الدعوة في قومهم كالنجوم في أفعال الخير يشار إليهم بالأصابع ويعجب الناس من سوء حالهم قبل دخول العدوة وما صاروا بعد ذلك إليه، وجعل من لم تطاوعه نفسه الخسيسة على ترك المعاصي ورياسة الدنيا يتغامز بهم وينسب الكفر والخروج عن الملة إليهم ويقول: لو كان هذا الأمر فيه خير ما سُتر، وما هو إلا خلاف دين الإسلام، وما هذا الذي يتصنعون به إلا رياء يجرون به الناس، وكثر القول في ذلك بكل ناحية.

واتصل اشتهار ذلك وما يقال فيه بموسى بن عياش صاحب أمر

ميلة، فأرسل إلى بني سكتان أن يرسلوا أبا عبد الله ليختبر أمره ويجمع بينه وبين العلماء عنده، فأنفوا من ذلك وردّوا إليه وقالوا: ما كنّا ممن يسلم ضيفه إليك، فحاولهم في ذلك وردّ الرسول إليهم ولطف بهم وحذرهم عواقب الأمور وأن أمره إن اتصل بإبراهيم بن أحمد أخرج إليهم العساكر ونالهم من ذلك ما يكرهونه فأغلظوا له في الجواب وقالوا: ما كنا بمن يسلمه ولا يخذله ولا يدع أحداً تمتد يده إليه وهو ضيفنا وبين أظهرنا. فلما يئس منهم وعلم أنهم لا يطيعونه حاول أن يضربهم بغيرهم من كتامة، فأنفوا من ذلك أن يكونوا له يداً على أهل بيوتاتهم مع غيرهم.

واتصل خبر أبي عبد الله بإبراهيم بن أحمد صاحب إفريقية فكتب إلى موسى بن عياش يسأله عن خبره، وضعّف موسى بن عياش أمره وخاف من قدوم إبراهيم بن أحمد إن قدم أن يوقع به أو يعزله لأنه لم يكن يثق به وإنما كان يكاتبه على سبيل المداراة، وذكر له جملة خبره في كتابه ففطن إبراهيم بن أحمد لأمر موسى في ذلك.



ذكر جواب إبراهيم بن أحمد لموسى بن عياش مع رسول من قبله إليه وإرساله إلى أبي عبد الله

قال: لما وقف إبراهيم بن أحمد على جواب موسى بن عياش وعلم مراده كتب إليه كتاباً وبعث إليه بابن المعتصم المنجم وأمره أن يتلطف في إيصاله إلى أبي عبد الله وأمره أن يختبر أحواله ويأتيه بصحيح خبره وأوصاه بوصايا إليه وأمره أن يبلغه إياها. فانتهى إلى موسى بن عيّاش. فأرسل موسى إلى بعض بني سكتان يخبره بأن إبراهيم بن أحمد بعث برجل إلى أبي عبد الله ليجتمع معه ويسأله في إيصاله إليه، فرفع ذلك إلى أبي عبد الله فأذن له فيه، فبعث موسى ابن عياش بابن المعتصم سراً إلى أبي عبد الله كما أمره إبراهيم وأنفذه إلى الرجل الذي كاتبه بذلك، فأوصله إليه، فقربه أبو عبد الله وأقبل عليه، وقال له ابن المعتصم: إن الأمير إبراهيم بن أحمد وجهني إليك وأمرني أن أبلغك عنه وأنا رسوله، وإن أذنت لي في تأدية ما أرسلني به إليك أديت إليك، قال له أبو عبد الله: أدِّ رسالتك فما على الرسول إلا البلاغ، قال: وأنا آمن؟ قال: أنت آمن بأمان الله فقل كلَّ ما قال لك، قال: يقول لك الأمير: ما حملك على تعرض سخطي والتوثب في مملكتي وإفساد رعيتي والخروج عليّ؟ إن كنت تبتغي عرضاً من أعراض الدنيا فإن ذلك مما تجده عندي إن أنت

تلافيت نفسك ورجعت عن غيك، فاقدم إليّ فأنت آمن، فإن أردت المقام ببلدي أقمت، وإن أحببت الانصراف إلى الموضع الذي جئت منه انصرفت، وإن كان قصدك قصدَ من سوّلت له نفسه الخلاف على الأئمة واستفساد جهلة الأمة فقد لعلك عرفت كيف كان عواقب مَن مَنّتْهُ نفسه أمنيتك وسوّلت له ما سوّلت نفسك لك من الهلاك العاجل قبل سوء المصير في الآجل، فلا يغرنك ما رأيت من إقبال هؤلاء الأوباش عليك واتباعهم إياك، فإني لو قد صرفت وجهي إليك لأسلموك وتبرءوا منك. واعلم أني إنما أردت الإعذار إليك لإظهار الحجة عليك وهذا أول كلامي لك وآخره لن أقبل لك بعده توبةً ولا أقيلك عثرة ولا أجعل جواب ما يكون منك إلا النهوض بنفسي إليك بجميع أبطال رجالي وأنصار دولتي وجملة أهل مملكتي، فعند ذلك تندم أن جمحت الآن في الغيّ حين لا تنفعك الندامة ولا تقبل منك التوبة، فإن نظرت في يومك لغدك فقد أعذر إليك من أنذرك.

قال أبو عبد الله: قد قلت فاسمع وبلغتَ فأبلغ؛ قل له: أما ما ذكرت من التهدد والوعيد فما أنا ممن يروَّع بالوعيد والإيعاد، ولا يهولُه الإبراق والإرعاد، وأما تخويفك إياي بأنصار دولتك ورجال مملكتك أبناء حطام الدين وذباب طمعها الذين يرتاعون لكل بارق، ويجيبون كلّ داعٍ، وناعق، فإني في أنصار الدين وحماة المؤمنين الذين لا يروعهم كثرة أنصار الظالمين، مع قول الله عز وجل وهو أصدق القائلين: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٩] وأما ما أطمَعَ إبراهيم به من دنياه وَعَرَضَهُ من زبدها

وحطامها فلست من أهل الطمع فأميل إليه ولا ممن يرغب فيما عنده فيأتيه، وإنما بعثت رسولاً لأمر حُمَّ وقرب، وانتجاز وعد من الله سبق، والله لا يخلف الميعاد، ولا يظلم إلا من ظلم نفسه من العباد؛ فإن سوّلت له نفسه ما تَوَعَّدَ به ودعته إليه فسوف تعلم أن الله من ورائه ولن تغني عنه فئة ولو كثرت، وأن الله مع المؤمنين الصابرين؛ فهذا جواب ما جئت به فبلغه ثم تحمل رسالتي إليه وبلغ عني ما حملتك إياه: «إني أدعوه إلى الله عز وجل وإلى كتابه وإلى الإمام المهدي من ذرية رسوله دعوة محتجٌ عليه وراغب فيما ينجيه، فإن قبل عني قبل رُشْدَه وإن عند فقد قدمت إليه المعذرة، ولو كان صاحبي لعجلت السير نحوه ولكن له ولمن بعده متاع إلى حين، حتى إذا بلغ الأجل وحان الحين ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ثم صرف أبو عبد الله الرسول على أفضل حال، فبلغ إبراهيم قوله وسأله عن صفته فوصفه حتى كأنه يراه، فامتقع لون إبراهيم وتعاظم أمرَ أبي عبد الله واستهال خبره وأعرض عن ذكره، وعلم أنه صاحبُ قطع دولته، وقد كان يعني بعلم الحدثان وأخبار ما يكون؛ وإنما بعث إليه ليختبر أمره، فلما علم ذلك وصحّ عنده أسقط في يديه، فكان إذا ذكر له في الملأ أظهر التهاون بأمره وقلة الإكتراث به وإذا ذكره في الخلاء ومع خاصته قال: والله لو دخل عليَّ هذه المدينة من باب لخرجت من بين يديه من باب آخر؛ والله لكأنني أنظر إلى أكسية أصحابه منشورة على شرفات قصري هذا؛ وقد كان يميل إلى التشيع وكثير من أهل بيته، والخاصة منهم السالميون وقد كان منهم قوم يُجَذمون، فلذلك يقول ابن حسن الشاعر يهجو بعضهم:

لــو تــقــطــعــت جــذامــاً أو تــديــنــت عــلــيــا
لــم تــكــن فــي الــســالــمــيــن حــقــيــقــاً ســالــمــيــاً

واستعمل إبراهيم عليّ بن أبي حجر على قفصة وقسطيلية وأوصاه لما أراد الخروج فقال له: سر فيهم بسيرة العمرين، فقال: لا والله لا أسير فيهم إلا بسيرة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فإن شئت به وإلا فهذا عهدك، وكان من أهل بيته ممن يتشيع، فقال له إبراهيم: أفضل سيرة والله، فسر بها وما أراك تفعل.

وكان محمد بن الأغلب قد ولّى سحنون بن سعيد القضاء - وكان مالكياً - أراد أن يسترضي بذلك عامة أهل القيروان لما كان بينه وبين أحمد أخيه ما كان، فنصروه، فأنكر عليه ذلك أهل بيته. فلما مات سحنون اجتمع أصحابه فدبروا مع ابنه محمد أن يأتي محمدَ ابن الأغلب فيخبره بموت أبيه ويذكر له أنه أوصاه أن يصلي عليه وقالوا: فهو لا يستبد من ذلك، وإذا أتى وصلى تكلمنا فيك أن يستقضيك، وواعدوا جماعة من العامة إذا كان ذلك أن يصيحوا ويتكلموا. فأتى محمد بن سحنون إلى محمد بن الأغلب بذلك وواعده صلاة العصر وأخرج نعش سحنون إلى السبخة مما يلي داره، وخرج محمد بن الأغلب فخرج معه جماعة من أهل بيته ورجاله من القصر القديم، فلما انتهوا إلى الهارونية نزلوا إليه فوقف لهم وقال: ما الذي أنزلكم؟ قالوا: خرجت لتصلي على سحنون فلم يمكنا التخلف عنك وقد علمت بُعد ما بيننا وبينه وأنه يكفّرنا ونكفره، فإن صلينا عليه رأى الناس أنا قد رضينا حاله، قال: فما تريدون؟ قالوا: تعفينا من الصلاة عليه، قال: قد أعفيتكم، قالوا: فنقيم

هاهنا لأنا إن وصلنا معك إلى الجنازة لم يرَ الناس إلا أنا صلينا عليه، قال: افعلوا، فنزلوا في الهارونية وفرشت لهم اللبود وجلسوا، وتقدَّم محمد بن الأغلب في عبيده فصلَّى على سحنون، وأخبر أهل القيروان بخبرهم، فحلَّ ذلك مما عقدوه، وتكلموا فيما كانوا يدبرونه فلم يلتفت إليهم محمد وانصرف.

وكانوا لهذا التشيع الذي فيهم يروون أخبار المهدي عليه السلام عن رسول الله ﷺ، ويدرسون كتب الحدثان والأخبار عمَّا يكون.

وكان إبراهيم قد أوعب من جميع ذلك وطلبه. وانتهى إليه عن شيخ من قرى تونس يقال لها قرية الخربتين أنَّ قبله علم الحدثان وكان شاعراً فأمر بحمله إليه، وكان قد خرف، فسأله فاعتذر بالكبر وأنه سقط عنه علم أكثر ذلك، فلاطفه وبذل له وقال: لا بد أن تذكر لي ما عندك في ذلك، وقال له فيه شعراً كان قد فشا وكانوا يروونه وينشدونه وعرَّض له فيه ولم يفصح، وهو الشعر الذي أوله:

أقولُ وأسلمتُ القريضَ لأهله ... وعشتُ زماناً، وهو خيرُ مكاتب
أمن بعد تسعين سنيناً أعدُّها ... وأربعة من بعد ذاك رواتب
أزاحمُ أهل الشعر بالشعر ناجزاً ... أبى الله هذا بعد أن جُبَّ غاربي
ولكنني أرجو من الله عفوَه ... بأوبة مأمون السريرة تائبِ
وآملُ غفراناً بفضلِ تلاوةٍ ... أرددها ليلي بفكرة آيبِ
صرفتُ أموري للذي أنا عبدُه ... إلهي ربُّ العرشِ معطي الرغائبِ
فلستُ حياتي سائلاً غير ذي العلى ... وإلا فجبَّتْ من يميني رَواجبي

ألا يا أمين الله وابنَ أمينه   وعاشر سادات الملوك الأغالب
وجدتُ كتاباً قد تقادم عهدُهُ   رواية أشياخٍ كرامِ المناسبِ
رواية وهب عن سطيح وَدَنْيَل   مشايخِ علمٍ صادقٍ غير كاذبِ
تتابعُ راياتٌ من الشرق سبعةٌ   إلى الغرب سودٌ خافقات الذوائبِ
يسيرُ بها خزرُ العيونِ تراهمُ   مباسمهم سمدٌ طوال الشواربِ

ويقول فيها أيضاً:

ولاةُ بني العبّاس عشرون والياً   تدينُ لهم بالرغم أرضُ المغاربِ
وفي الستّ والتسعينَ تهبطُ رايةٌ   من الغرب في جمع كثيف المواكبِ
يمزّقُ أرضَ البربرية جمعُهم   بخيلٍ كأمثال القطا المتساربِ
وتطلعُ شمسُ الله من غربِ أرضه   فلا توبةٌ ترجَى هناك لتائبِ
ويظهرُ من أبناء فاطمة امْرُؤٌ   تَقيٌّ نقيُّ العرضِ جَمُّ المواهبِ
سميُّ نبيِّ الله وابنُ صفيِّه   وأكرمُ مولودٍ وأشرفُ طالبِ
فيملأ أرضَ الله عدلاً ورحمةً   لأيامِ صدقٍ طيباتِ المكاسبِ
وبالأعورِ الدجّالِ ينهدُ جمعُه   سوى عصبةٍ في باذخ الطودِ راتبِ
ويقتله من بعدُ عيسى ابنُ مريم   بقدرة ربّ ما له من مُغالبِ
ومن بعدها موتُ ابن مريمَ مفضياً   إلى الله في حكم من الله واجبِ

فعرّض له فيها ولم يصرح، وفرق بين أبياتها وأغمَض له بمعانيها، وكانوا يروونها وينشدونها، وينشدون شعر ابن عقب الذي يقول فيه:

قد قلتُ لما طارَ عني الكرى   حتى متى ذا الليلُ لا يصبحُ

عذبني الحزنُ وفَقْدُ الكرى   كلاهما أقْسَمَ لا يبرحُ
وكيف لا يحزنُ من لا يَرى   بأنه يبلغُ يا مسطحُ
دهراً يرى فيه إمامَ الهدى   بالله بالمغربِ يستفتحُ
ويبتني البيضاءَ في لجة   خضراء فيها نونُها يسبحُ
ينجو من الأهوال سكانُها   والأرضُ منها كلها تُفتحُ
لو مدَّ من عمري إلى عمره   لكنتُ في القرن الذي يُفلحُ
هيهات ماذا العمر مما أرى   فيما أرى الموتُ به يسمحُ

وقوله فيها أيضاً:

استمعِ الحقَّ ودعْ عنك اللعبْ   وهاكَ قولاً صادقاً غير كذبْ
إذا أرى الكوكبُ تطويلَ الذنب   فذاكَ حَدْث ظاهرٌ قد اقتربْ
في الستِّ والتسعينَ يأتيك العَجبْ   بعد كمال المائتين في رَجَبْ
من جيجلٍ ينقضُّ جيشٌ ذو لَجَبْ   أمضَى من الجمرِ إذا الجَمرُ التهَبْ
من بربرٍ يسعَوْنُ في كل حَدَبْ   ركباً وَرَجْلاً ما يملُّون التعبْ
قد ملأوا المشرقَ خَوْفاً وَرَهَبْ   وأنزلوا بالغرب ذُلاً ونَصَبْ
تسعونَ ألفاً بين رأسٍ وذنبْ   سيماهُمُ الحقدُ وإظهارُ الغَضَبْ
وفيهمُ خلْطٌ قريشٌ وعَرَبْ   بكلِّ سيفٍ قاطعٍ إذا ضَرَبْ
حَتّى إذا جَازوا صُعُوداً وصَبَبْ   في كل جيشٍ رايةٌ من القَصَبْ
يغرزُها الراكبُ في عود الرُّكَب   يقودهم كَهلٌ عليم بالكُتُبْ
يأوي إلى الحَزْم إذا الخطبُ اضطرَبْ   ويأخذ الأمرَ البعيدَ عن كَثَبْ

تنقلبُ الدولةُ فيما تنقلبْ   مَهديةٌ في نصِّ أسفارِ الكُتُبْ
عن دانيالٍ وسطيحٍ في العَرَبْ

ولما صار أبو عبد الله إلى رقادة أنشده أبو اليسر هذا الشعر وقال له: كنا نرويه: في سنة التسعين يأتيك العجب، فلا نراه إلا كان مستحيلاً وصحته: في الست والتسعين، وكذلك جاء ما تقدم ذكره وإنما هو في سنة التسعين، فلم يعلم استحالة ذلك حتى كان دخول أبي عبد الله إفريقية في سنة ست وتسعين فعلم ذلك، وإن كان في سنة التسعين ففيها كمل أمر أبي عبد الله وقوي واشتد. ولما أنشد أبو اليسر هذا الشعر أبا عبد الله - وكان بحضرته شيوخ أهل القيروان - قال ابن عبدون: ما سمعنا بشيء من الحدثان كان أصحَّ من هذا.

وكان إبراهيم بن أحمد قد اعتقل رجلاً في حبسه من أهل باغاية يقال له كريم بن زرزور لأمر نقمه عليه، فهرب من حبسه فأتى بني مالك ببلزمة مستجيراً بهم من إبراهيم بن أحمد فأجاروه، وذلك قبل أبي عبد الله بزمان طويل، فوجه إبراهيم في طلبه فمنعوه، فخرج إليهم بنفسه في عسكر فلم يستطعهم، فانصرف عنهم وأظهر لهم الصفح والعفو، إلى أن أتاه قوم منهم فكساهم وحملهم وأحسن إليهم وولاهم الولايات، فتساربوا إليه، وجعل يفعل ذلك فيهم حتى اجتمع منهم نحو من ألف رجل، وكان قد أنزلهم برقادة في مكان أدار عليه سوراً وجعل عليه باباً، وكان بقرب فندق البلزميين، فلما اجتمعوا وأيقن أنه لا يأتيه غيرهم أغلق عليهم الباب في الليل من خارج وأحاط عليهم بالعبيد فقتلوهم عن آخرهم. وكان ببلزمة رجل من أهل نفطة كان شيعياً، وكان يذكر انقطاع

أمر بني الأغلب، فطلب فصار إلى بلزمة، وكان شاعراً يقال له محمد بن رمضان، فتحرم ببني مالك وكان يمدحهم فحموه ومنعوه، فاتصل بهم قتل إبراهيم البلزميين وهو عندهم، فقال في ذلك:

جلَّ المصابُ لئن كان الذي ذكروا — مما أتتنا به الأنباءُ والخبَرُ
عن ألف أروع كالآساد قد قتلوا — لساعةٍ من سوادِ الليل إذ غُدروا
لو كانَ مَنْ بيَّتَ الآساء أيقظهم — حلَّت به منهمُ الأحداثُ والغيَرُ
قل لابن أحمد إبراهيمِ مألكةً — عن الخبيرِ بما يأتي وما يَذَرْ
عن المشرَّد في حب الأئمة من — آل النبي وخير الناس إن ذكروا
أعلم بأن شرارَ الناسِ أطولُهم — يَداً بمكروههم يوماً إذا قَدرُوا
لا سيما الضيفُ والجار الغريبُ ومن — أعطوه ذمتَهم من قبل ما خَفَروا
فما اعتذارك من عار ومنقصةٍ — أتيتَها عامداً إن قام معتذر
جرَّعتَ ضيفك كأساً أنت شاربها — عما قليل وأمرُ الله ينتظرُ
فدولةُ القائم المهدي قد أزفتْ — أيامُها والذي أنبا به الأثَرُ
عن النبيِّ، وفيها قطعُ مدتكم — يا آلَ أغلب أهل الغدر فاقتصروا
وقطعُ أمرِ بني العباسِ بعدكمُ — وقطعُ آل بني مَروانَ إذ بَطروا

فيقال إنه لما انتهى هذا الشعر إلى إبراهيم سأل عن قائله فأخبر بخبره فقال: لعن الله من طلبه وشرده فما مثل هذا يؤذَى، ولو أتانا لصفحنا عنه وأحسنا إليه، ولقد أحسن في الوفاء لمن أجاره وصنع المعروف إليه، ومثل هذا تزكو عنده الصنائع، وما ينتقم عليه تشيعه بل ذلك مما يقربه منا ويدنيه عندنا، فأبلغوه عنا ذلك فإن أحبَّ القدوم إلينا فهو آمن وله

عندنا مع ذلك الحباء والإكرام. فانتهى قوله إلى محمد بن رمضان فعلم أنه إنما أراد أن يستدرجه، وقال له بعض من قال غير ذلك، فأنشأ يقول:

لـو لـم أعـايـنْـهُ يـصـيـد بـحـبّـه لـلـقـطـتُ حَـبّـهْ
مـن ذا يُـغَـرُّ بـغـادرٍ مـا إن يـخـاف الله ربّـهْ

وكان محمد بن رمضان هذا يذكر المهدي كثيراً في شعر يقول فيه:

سَلا ظبيةَ القنّاصِ أين احتلالُها فقد هاجني تفتيرُها وامتذالها
لعل التي عنها تفرّق أهلُها فبادتْ مغانيها وطالَ احتيالُها
أرقتُ لها من بعد أن نامَ إنسُها خناطيلُ آرام الظباء جمالُها
فعدِّ عن الدار التي بانَ أهلها وعن كيفَ من بعد البلى صارَ حالُها
فهذا أوان الحق قد حانَ حينُه ودولةُ أهلِ البغي آنَ زوالُها
كأني بشمس الأرض قد طلعتْ لنا من الغرب مقروناً إليها هلالُها
فيملأ أرضَ الله قسطاً بعدلِهِ بما ضمَّ منها سَهْلها وجبَالُها
وآمنُ فيها ما أخافُ وأتقَيَ وأظفر بالزّلفَى به وأنالُها

فأدرك محمد بن رمضان هذا أيام المهدي عليه السلام، وقد خرف، واستقضاه على ميلة، وكان بها، ومات رحمة الله عليه وهو قاض عليها.

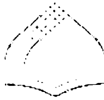
وكان يعقوب بن المضا من بني الأغلب له ضياع بناحية حَمَّة وكان ربما أتاها، فيأتي الجزيرة التي بنيت عليها المهدية فيقف بها ويدور فيها وينظر إليها ويقول: هذه صفة الجزيرة التي يقال إن المهدي يبني مدينته عليها، والله ما أعلم على ساحل إفريقية موضعاً هو أشبه بما وصف من هذا المكان.

والأخبار والأشعار في هذا كثيرة تخرج عن حدّ هذا الكتاب، وان الشيعة يروونها ويذكرونها، وقد جاءت بها الروايات والأخبار وبشر بها كما جاءت الأخبار بمبعث رسول الله ﷺ من قَبل أن يبعث، ورواها وذكرها كثير من العرب في الشعر والأخبار كأمية بن أبي الصلت وورقة بن نوفل وزيد بن عمرو وأسعد أبي كرب وقس بن ساعدة وخالد بن سنان وغيرهم.

ولما قويتْ أمور أبي عبد الله وظهرت، صنع إبراهيم بن أحمد صنيع محمد بن يعفر ملك اليمن الذي قدَّمنا خبره، فانسلخ من الإمارة وأظهر توبة وردّ أكثر ما اقتطع وفرق الأموال في الناس ولبس الصوف وأظهر النسك وخرج إلى ملك الروم وأقام ابنه أبا العباس، وسنذكر أخباره.

وكان خروج إبراهيم بن أحمد من إفريقية وركوبه البحر في رجب سنة تسع وثمانين ومائتين لما نظر إلى سنة تسعين التي جاءت بها الروايات قد قربت، ووصل إلى صقيلة وخرج منها إلى طبرمين فافتتحها يوم الأحد لسبع بقين من شعبان من هذه السنة؛ وكان عندما أراد الخروج في البحر بذل العطاء للفارس عشرين ديناراً وللراجل عشرة فاجتمعت له عساكر كثيرة، وكان يقول: لا أرجع إلى إفريقية أبداً؛ وتقدَّم من طبرمين إلى كُسَنْتَه فحاصرها، فاعتلَّ وهو محاصر لها بعلة البطن فمات يوم السبت لثلاث عشرة ليلة مضت من ذي القعدة من هذه السنة، وكان تساقط النجوم قبل موته لخمس ليال، ليلة ثمان من هذا الشهر، وكانت ليلة عشر من تشرين أول - وهو أكتوبر -؛ وكانت ولايته منذ ولي إلى أن مات ثماني وعشرين سنة وستة أشهر وأياماً، وانصرف العسكر إلى

صقلية، وجيء بإبراهيم ميتاً فدفن بها، وانصرف بالجيش زيادة الله إلى أبيه أبي العباس، واتصل به أنه يريد الوثوب عليه فقبض عليه فقيده واعتقله، وسنذكر أخباره بعد هذا إن شاء الله تعالى.





ذكر قيام الجماعة من كتامة على أبي عبد الله ليأخذوه بايكجان

واستشهر أمر أبي عبد الله ببلد كتامة وسمي المشرقي لقدومه من المشرق، ثم نسب إليه كل من بايعه ودخل في دعوته وسمّوا المشارقة، وإذا دخل الواحد منهم في ذلك قيل تشرق. ورأى الناس من صلاح أحوال من دخل دعوته وتورعهم عما كانوا يعرفونهم عليه من الفساد وإقبالهم على الصلاة والصيام وأعمال البر ما رغّبهم في الدخول في ذلك، فتسارب الناس إليه وأطلق الدعوة لمن ارتضاه منهم من قبائلهم.

فلما نظر رؤساء القبائل وولاة البلدان ذلك ولم يروا نهضة من إبراهيم بن أحمد في أمره، وخافوا على زوال رياستهم من أيديهم، وتقدَّم من سارع إلى أمره ممن كانوا يرونهم دونهم عليهم، كتب بعضهم إلى بعض في ذلك، واجتمعوا وتراسلوا وتعاقدوا، وكان ممن تعاقد على ذلك موسى بن عياش صاحب ميلة وعليّ بن عسلوجة صاحب سطيف وحي بن تميم صاحب بلزمة، وهؤلاء أمراء هذه المدائن الذين عندهم العدة وفيهم النجدة ولديهم العدد والقوة وفي أيديهم الأموال الكثيرة؛ ومن مقدمي قبائل كتامة وكبارهم وولاة أمورهم فتح بن يحيى المسالتي · يقال له الأمير - ومهدي بن أبي كناوة رئيس لهيصة، وفرح

ابن جيران رئيس أجانة، وأبو تميم فحل بن نوح رئيس لطاية، وزيادة المتوسي رئيس متوسة، وهؤلاء مع رياستهم وتقدمهم أبطالٌ كلّ واحد منهم يعدل كتيبة، فأداروا الحيل واستعملوا الآراء في أخذ أبي عبد الله فلم يروا أنهم يقدرون على أخذه عنوة من أيدي بني سكتان لأنهم لم يشكوا أنهم يمنعونه، فإذا منعوه احتمى لهم جميع جيملة ومن تقرب منها من قبائل كتامة، فخافوا إن هم فعلوا ذلك أن يكون ما فعلوه منه داعية إلى أن يجعلوا له أنصاراً ويصير جميع كتامة فرقتين، ولم يأمنوا سوء العواقب في ذلك. وكان الذي اجتمع عليه رأيهم أن يقصدوا في أمره بيان بن صقلان، وكان وجهاً من وجوه بني سكتان، ولم يكن يومئذ دخل في أمر أبي عبد الله، فقالوا: نقصده في أمره ونستميله ونبذل له، فإن أجابنا افترق أمر بني سكتان وأمكننا فيه ما نريده.

واستخفى حينئذ أبو عبد الله لما بلغه ذلك، فلم يكن يظهر عليه ولا يعرف مكانه إلا من كان من المؤمنين؛ فأرسل القوم جماعة منهم إلى بيان وبعثوا إليه أربعة أفراس ومائة شاة هدية وقالوا: إن هذا الرجل قد بدّل الدين وفرّق الجماعة وشتت الكلمة وأدخل الشتات بين الأقارب، وقد قصدناك في أمره وأمّلنا قيامك في قطع هذا المكروه عنا بأن تقبض على هذا الرجل فتخرجه من بلدنا إن كرهت قتله وتنفيه عنا، ونجعل لك بعد ذلك التقدمة على جميع كتامة والعرب فيكون لك بذلك فخر الدنيا وشرفها وثواب الآخرة وأجرها، وتزيل عن أهل بيتك مكروهاً وتقطع عنهم شراً، فإنه إن تمادى أمرهم على كونه عندهم لم يدعهم الناس، ولا تؤمن حركة السلطان إليهم، فإن أعطوه عند ذلك أعطوه على غلبة، وإن منعوه لم يؤمن عليهم سوء العاقبة مع ما ينالهم من ذهاب النعيم

ويلزمهم من النفقات عليه وعلى من يلجأ إليهم من أنصاره.

فقال لهم بيان: هذا الرجل قد نزل بين أظهرنا وصار ضيفاً عندنا، فكيف ينبغي لنا أن نفعل فيه مثل هذا؟ قالوا: فأخرجه من حدّكم فإن قبله غيركم كان المكروه بهم دونكم، وإن أراد الخروج إلى بلده أو حيث أراد أن يقصد غير بلد كتامة تركناه ولم نعرض له؛ قال لهم بيان: وفي إخراجنا إياه وطردنا له أيضاً نقص علينا وعيب، ولكن من الرأي أن نجمع العلماء ويخرج إليهم ويناظرهم، فإن كان على حق فما أولانا وإياكم بنصر حق واتباعه، وإن كان على باطل عرف ذلك من اتبعه فرجع عنه، ووسعنا وأمكننا إخراجه، فحاولوه على غير ذلك فلم يجدوه عنده، فرجعوا إلى أصحابهم فأخبروهم بما كان منه، فلم يقع ذلك بموافقتهم وخافوا أن تقوم حجته فيستحكم أمره وتزول رياستهم من أيديهم بسببه ويأتيهم ما يتخوفونه من أجله، ولم يرد القوم من ذلك إلا إقامة دنياهم: لم يطلبوا إقامة حق ولا إزالة باطل، فتدبروا أمرهم واجتمعوا على أن يمضوا في جماعة وعدة ويرون أنهم أتوا بالعلماء، فإذا خرج إليهم قبضوا عليه فقتلوه وانصرفوا على حامية.

فاجتمعوا وساروا في جمع عظيم من الخيل والرَّجْل، فأخذوا ما بين تاكوت ووادي النجاة، فلما رآهم بنو سكتان ثارت فيهم الصيحة فركبوا خيلهم وأخرجوا رجلهم وعدتهم وتلقوهم، وتواقف الفريقان فقالوا لبيان: إنا إنما أتيناك لما كان بيننا وبينك، قال: ما هذا بيني وبينكم أن تجيئونا بالزحف والعدة، إنما قلنا يؤتى بالعلماء فيناظرون الرجل، فنراكم جئتمونا بالملأ تريدون أن تنزعوه منا بالغلبة.

وعلا الكلام بينهم، وكان فيهم جماعة من الأولياء فهجموا فيهم وأنشبوا القتال فالتحم، وتداعت جميلة، وكان للأولياء في ذلك مقام لم يشاهد منهم مثله، فانهزم الجمع وولوا الدبر، وانصرف عنهم بنو سكتان. ومضى القوم منكوبين مهزومين، وقوي أمر الأولياء واشتد، وبقي أبو عبد الله مستتراً وخاف عليه الأولياء إن ظهر.

وانصرفت الجماعة فأداروا أمرهم فلم يروا إلا معاودة بيان، فأرسلوا إليه وقالوا له: قد كنا أخطأنا فيما أتينا به من الجمع ولم يكن ذلك عن قصد منا، وإنما تسامع الناس بنا فاتبعونا، وقد رجوناك لصلاح جماعتنا وقدمناك على عامتنا واخترناك لأنفسنا لتحقن دماءنا وتلم ما تشعب من أمرنا وتجمع ما تبدد من شملنا، فقد عادى من أجل هذا الرجل: الأخُ أخاه والإبن أباه والقريب قريبه، وكفَّر من صار إليه من تخلَّف عنه، وهذه فتنة قد بدت وردَّةٌ قد ظهرت، فأنت أولى من اكتسب أجرها، ونفى عن نفسه وأهل بيته عارها وشرَّها، وأحسن النظر لهم فيها. وهذا رجل من أهل المشرق - وهم كما علمت شياطين - وعلماؤنا برابر وقومٌ ليست لهم تلك الأذهان، وإن ناظروه ظهر عليهم ولم يجدوا حجة يحتجون بها عليه، وكان ذلك زيادة في فتنته وتقوية أمره فترى أنا نحن وآباؤنا وأهل المشرق والمغرب والناس كافة على ضلال وهذا وحده من بين الناس كلهم على هدى وحق؟ أو يكون هذا يقع بقلب أحد سيما أن أمره مكتوم والذي يدعو إليه غير معلوم، ولو كان حقاً وصواباً لأظهره وما كتمه؛ وجعلوا يعددون له ما وعدوه به من التقدمة والجلال.

فأصغى إليهم ووعدهم أن يسعى ويتلطف في إخراجه وجعل يتكلم في ذلك ويحتج على أهل بيته ويخوفهم من العواقب. وقال لهم: قد كانت حرب واحدة كان لهم الظفر فيها، والحرب ثارات، ولا تأمنون أن تكون الأخرى عليكم، فأخرجوا هذا الرجل من ذات أنفسكم من غير أن يصل إليه ضيم ولا إليكم وأنتم على عز من أمركم من قبل أن يغلب عليه وعليكم.



ذكر خروج أبي عبد الله من إيكجان ومسيره إلى تازروت

واتصل كلام بيان بن صقلان بأبي عبد الله وبجماعة المؤمنين فاجتمع من كان منهم من بني سكتان إلى بيان وذكروا ما اتصل بهم عنه وما يدخل من أجله من النقص عليه وعليهم إن طردوا ضيفهم وأسلموا جارهم فجعل يذكر لهم مثل ما بلغهم عنه ويحذرهم العواقب فيه. واتصل الخبر بالحسن بن هارون الغشمي، وكان قد دخل في الدين وكان رجلاً من خيار المؤمنين وفيه عقل، وله أدب وحسن خلق وكرم نفس وله نعمة وكان مطاعاً في قومه، ومسكنه بتازروت، فأتى إلى أبي عبد الله فذكر له ما اتصل به، وسأله ورغب إليه في أن يكون عنده والنقلة إلى مكانه، ووعده الذبَّ عنه والمدافعة دونه بنفسه وأهله وماله، فشاور الأولياء في ذلك فأشاروا به عليه خلال من كان منهم من بني سكتان فإنه عظم ذلك عليهم وكرهوه وقالوا: نحن ندفع عنك بأنفسنا حتى نقتل كلنا دونك، فشكر لهم قولهم، ورأى جماعة المؤمنين أن كونه عند الحسن بن هارون أعزُّ للدين وأمنع له وللمؤمنين.

فانتقل إليه وانتقل معه من استطاع النقلة من بني سكتان ومن كان هاجر إليه من المؤمنين، واستخلف على الضعفاء منهم ومن لم يستطع

السير معه الحكم بن ناسب؛ وسار به الحسن بن هارون إلى تازروت فتلقاه من بها من المؤمنين وغيرهم، وأنزلوا من كان معه عندهم، وأنزله الحسن بن هارون عند نفسه.

وقام الغشمانيون بما احتاج إليه المؤمنون، وقاسموهم أموالهم وأحلوهم فيها محلهم، وأروهم من الغبطة والسرور بهم ما سرَّهم، وأقبل المؤمنون من كل ناحية إليهم، وجعل كل واحد منهم يأتي بما يمكنه ويستطيع تقويةً ونُزلاً للمؤمنين، وجعلوا يرسلون من ذلك إلى من بقي بايكجان من ضعفاء المؤمنين، حتى ربما تعذر عليهم إيصال ذلك فيركبون خيلهم ويحمل كل واحد منهم في خروجه تحته على سرجه من الطعام قدر ما يمكنه فيصلون إليهم به فيعطونهم إياه وينصرفون.

ويذل الحسن بن هارون من ماله في ذلك وأموال خاصة أهل بيته ما أوسع المؤمنين به، وصار أبو عبد الله بالقرب من بلد إجانة وملوسة ولهيصة ولطاية وجيملة، فتسارب إليه الناس وظهر أمره وعزَّ جانبه، واجتمع غشمان على نصرته ومنعه، واجتمع إليه خلق عظيم من سائر قبائل كتامة من المؤمنين وأقاموا عندهم مرابطين مع أبي عبد الله ومنتصبين للجهاد دونه ومنعه ممن أراده.

وندم بيان بن صقلان فيما كان منه إليه، ودخل الدعوة فعزّ بجانبه من كان قبله من المؤمنين بايكجان، وعظم شأن الحسن بن هارون بما فعل من ذلك وعلا ذكره وشكر له ما كان منه وما بذل من ماله، واتصلت الأخبار بذلك في نواحي كتامة وعند وجوه أهلها.

وكان للحسن بن هارون أخ يقال له محمود أسنّ منه، فوجد في نفسه

من ذلك وعظم عليه ما جرى من ذكر أخيه، وكان هو قبل ذلك المقدَّم عليه لسنّه، وكان أيضاً مع ذلك مطاعاً في أهل بيته، فانصرفت وجوه الناس إلى أخيه لما فعل فشقَّ ذلك عليه وتكلم به وفشا عنه، وكان الحسن في ذلك يداريه ويقدمه ويظهر بره، ويستعطفه خوفاً من أن يفرّق جماعة غشمان أو يدخل فيما بينها بالشتات.

ولما صار أبو عبد الله إلى ما صار إليه بتازروت وانتهى ذلك إلى القوم الذين كانوا تعاقدوا عليه أسقط في أيديهم وعظم أمره عليهم وكثر له غمهم.



ذكر اجتماع الجماعة للحيلة في أمر أبي عبد الله

ولما اتصل بالجماعة ما كان من غيرة محمود بن هارون بأخيه الحسن رجوا أن يدخلوا من ذلك إلى ما يريدون من أمر أبي عبد الله، فاجتمعوا إلى مهدي بن أبي كناوة اللهيصي وكان أحدهم في عقد ذلك، فذكروا له ما بلغهم عن محمود، وقالوا له: هو جارك وصديقك ولعلك أن تستميله فتفرق به جماعة غشمان، فيمكننا من ذلك ما نريده.

فركب مهدي إلى محمود فنزل عنده، فذكر له اجتماع وجوه كتامة إليه وأنهم أرسلوه ليلقاه، وعلموا ما بينه وبينه وقالوا له: قد أجحف أخوك بنفسه وبأهل بيته وجاء إلى غشمان ببليّة قد تعافى منها بنو سكتان وتخلصوا من شرها فأدخَلَهم فيها. وجعل يحذره من سوء عواقب الأمور ويذكر له من أحوال أبي عبد الله مثل الذي ذكر القوم لبيان ويستميله بتطارح الجماعة عليه ورجائهم قطع ما دهمهم من ذلك على يديه، ويعده عنهم التقدمة على أنفسهم والتسويد فيهم والتأمير عليهم.

فاستماله ذلك مع ما تداخله من الحسد لأخيه والغيره به فقال له: القول في ذلك ما قلت، وما أنا إلا في غم من أمره، ولكنه قد تمكن وقوي وكثر أتباعه، وليس هو الآن كمثل ما كان في بني سكتان، قد

أجابه عامة غشمان وكثير من قبائل كتامة وارتحلوا إليه وساروا حوله فهم يمنعونه ويقاتلون دونه من أراده، ومتى دعوتُ من يطيعني من غشمان إلى أخذه صرنا فرقتين وكانت كلتا الدائرتين فينا وأهلك بعضنا بعضاً، وما أرى في أمره إلا ما رآه بيان: أن يؤتى بالعلماء فيناظروه، فإن ظهرت الحجة عليه وجدنا السبيل إليه وإن تكن الأخرى دبرنا رأياً آخر فيه.

فانصرف مهدي إلى القوم فأخبرهم بذلك، فقالوا له: من هذا الذي يناظره من علمائنا؟! أنت ترى الواحد من جهالنا إذا دخل في أمره ناظرهم فقطعهم، فكيف به هو في ذات نفسه؟ فقال لهم مهدي: قد رأيت من محمود شهوة في قتله وميلاً إلى ما وعدناه به من التقدمة، مع ما تداخله من الحسد لأخيه، ولم أجد عنده غير ما فارقته عليه، وما علينا إلا أن تأتي بالعلماء فإذا أخرجوه وقعنا عليه فقتلناه، فإذا فعلنا ذلك كان بعده ما عسى أن يكون وقطعنا أصل الداء.

فاجتمع رأيهم على ذلك، وأرسلوا في طلب العلماء من كل ناحية واختاروا من أبطال الرجال وحماتهم من يسير نحوه مع العلماء وقالوا: لا نجيء في الاحتفال أيضاً كما جئنا إلى بني سكتان فيكون من ذلك مثلُ ما كان.

واتصلت أخبارهم بالحسن بن هارون وبأبي عبد الله فقال لهم أبو عبد الله: تجتمع غشمان إلى محمود فيلاطفوه ويذكروا له ما اتصل بهم عنه ويحذروه العار في ذلك والنقص وسوء العواقب ويقدموه على أنفسهم ويعظموه ويرفعوا من شأنه ما قدروا عليه وينظروا ما يكون منه. ففعلوا ذلك، وأتاه الحسن وجماعة غشمان فذكروا له ما اتصل بهم عنه

وعن الجماعة وقالوا: نحن أهل بيتك وعشيرتك وأنت مقدَّمنا وأميرنا وهذا ضيفك وضيفنا، وقد أجرناه، وقد رأيت ما لحق بني سكتان في إخراجه من النقص وأنهم قد ندموا على ذلك وأن بياناً قد دخل في أمره فحاول ردّه إليه ليصلح ما أفسده على نفسه فلم يجبه ذلك، فلا تجعل علينا عاراً ونقصاً، وأتوه بالمصحف فحلفوا له به وقدموه على أنفسهم فاستماله ذلك، وجمع من كان يميل إليه من غشمان وأعلمهم ما عقدت عليه الجماعة من الفتك بأبي عبد الله.

وأقبلت الجماعة على ما أبرموه، فلما علم محمود أنهم قد قربوا من تازروت ركب في جماعة غشمان في عدة وهيئة. وقال أبو عبد الله لجماعة المؤمنين: اركبوا معهم وإن قدرتم على أن تلقحوا الحرب فافعلوا. فلما التقوا قالوا لمحمود: هؤلاء العلماء قد جئنا بهم، وعزلوهم ناحية، فقال لهم محمود: انصرفوا ودعوهم عندنا حتى نجمع بينهم وبين الرجل مع عشرة من وجوهكم وخياركم في مجلس وننظر ما يكون من أمرهم وأمره. فانحلَّ في أيديهم ما عقدوه وقالوا له: وما عليك أن تخرجه إلى هاهنا ليشهد ما يكون منه ومن العلماء جميعُ من حضر، فيكون ذلك أشهر في الناس وأقطع للأمر؛ فقال لهم محمود: ليس هذا وجه المناظرة، ولا مجيئكم هذا مجيء من أراد ذلك، وقد بلغنا عنكم أنكم عقدتم أمراً.

وتكلَّم الحسن أخوه فقال: هذا مجيء من أطمع نفسه فينا وأراد أن ينزع ضيفنا من أيدينا بالتغلب علينا، فَرَدُّوا عليه، فحمل فيهم وحمل الأولياء والتحم القتال، وغضب محمود وقاتل قتالاً شديداً، وقاتل

الأولياء قتالاً لم يُرَ مثله، وجرح محمود، ثم افترقوا، فمات محمود من جراحه، فسرّ أخاه موته وسرَّ أبا عبد الله وسرَّ الأولياء وأظهروا الطلب بدمه. واجتمع أمر غشمان وصاروا إلباً واحداً، ودخل الدعوة عامتهم، وصحت الرياسة للحسن وولاه أبو عبد الله أعنة الخيل وقوَّده على جميع المؤمنين.

واشتعلت الحرب فيما بين غشمان ولهيصة بسبب موت محمود واجتمع أمر ملوسة لأبي عبد الله مع أكثر القبائل؛ وظهر أبو عبد الله وأبدَى نفسه، وكان يشهد الحرب ويباشرها وكان جميع المؤمنين أنصار غشمان، والجماعة المخالفون أنصار لهيصة، وكان صاحب أمرهم مهديّ بن أبي كناوة، وكان أخوه أبو مديني قد دخل الدعوة وصار إلى أبي عبد الله مهاجراً، وكانت له بصيرة ونية ونجدة، وكان أخوه مهديّ من أشد الفرسان في عصره وأهوله منظراً، يقال إنه كان أشعر البدن كله هائل المنظر شديد الضربة، فيقال إن الأولياء احتالوا عليه في بعض تلك الحروب وقد زحف إليهم والتحم القتال وفي موضع المعركة مقبرة فيها قبور محجَّر عليها، فأدخلوا له رجالاً من أشدّ من قدروا عليه في ذلك التحجير، وقدّموا إليه فارساً ليجره إليهم، فشتمه وأغضبه فحمل عليه، وانجرّ له الفارس إلى موضع الرجالة، فرماه مهدي برمح فأصابه فأنفذه وسقط الرمح بين يدي الفارس وظنّ الناس أنه قد أخطأه فما علموا أنه أصابه حتى رأوه قد سقط عن برذونه، وخرج الرجال على مهدي فأخذوا عنانه وأحاطوا به وحملت الخيل عليه، فَضَرَب في الرجالة ففرقهم وحمى نفسه من الخيل، وخلص منهم عنوة.

فكان من شأنه من يومئذ أعجوبة لم يرَ الناس مثلها، وإنما يكون مثل هذا ويُعجب منه في النبل: إنها ربما أنفذت الرميَّة؛ وخرج السهم منها لا يصيبه شيء من الدم لشدة الضربة وسرعة خروجه؛ ومن ذلك الحديث عن النبي ﷺ في الخوارج، إنه وصفهم فقال: [يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة]، أي يخرجون منه لا يتعلقون منه بشيء. فأما أن يكون مثل هذا الذي كان من مهديّ عن ضربة كف برمح طويل، فهذا ما لم يسمع به لمن قبله ولا لمن بعده، والخبر فيه ثابت عنه.

وطالت الحرب بين الفريقين دون أن ينتصف بعضهم من بعض؛ فلما نظر أبو مديني إلى تمادي أخيه مهدي في غيه وإصراره اغتمَّ لذلك وساءه، وكان ربما وقف إليه فوعظه ودعاه إلى الله وخوَّفه وحذَّره عقابه فلا يزداد على ذلك إلا غيّاً وتمادياً، فلما رآه لا ينصرف عن ذلك اجتمع مع فتى من لهيصة كان قد صار إلى الدعوة وهاجر إلى تازروت في من هاجر من المؤمنين يقال له لاوة ابن صوحان، وكانت له شدة ونجدة، فقال له أبو مديني، وقد خلا معه: ويحك فقد ترى تمادي مهدي وما أكسبنا من العار وأدخل لهيصة فيه من الخلاف والعصيان، ولو قد أراح الله تعالى منه لافترق أمر لهيصة وصاروا إلى الدين؛ وقد رأيت أن نجتمع أنا وأنت إذا التقينا ونخرج ناحية إليه على حسب ما كنت أفعله لنعظه ونكلمه، فإذا أمكننا رميناه جميعاً برمحين في ساعة واحدة، فإن اتقى فلعله أن يتقي أحدهما، ولعل الله أن يريح منه ويقطع أثره، فاتفقا على ذلك وتعاقدا عليه.

فلما التقوا للحرب خرجا ناحية ودعوا به فأقبل إليهما، وكلمه أخوه

أبو مديني بمثل ما كان يكلمه حتى أنس إليه ثم ضرباه جميعاً ضربة رجل واحد فاختلف رمحاهما فيه فسقط إلى الأرض، وحمل الأولياء عليه، وحملت لهيصة فاستنقذته وحملته فمات من جراحته تلك بعد أن وصل إلى موضعه، وتفرّق أمر لهيصة من بعده وأقبلوا إلى الدعوة، واصطلح غشمان ولهيصة وتألفوا على الدين، فعزَّ أمر المؤمنين وقوي واشتد وحاربوا من يليهم من القبائل وشنوا الغارات على من بَعُدَ منهم.

وخرجت لهم خيل مغيرة على مزاتة، ورئيس مزاتة يومئذ يوسف الغاطشي، وكان قد قدم على إبراهيم بن أحمد فحباه ووصله وكساه وحمله وأعطاه جارية نفيسة، فقصد المؤمنون بالغارة إليه وقد تفرق أصحابه لرعي إبلهم، فكبسته الخيل، فأخذوا جميع ما كان له وسبوا الجارية التي أعطاه إياها إبراهيم بن أحمد، ولم ينجُ إلا بنفسه في مطمورة تغيب فيها، وقتلوا من قدروا عليه من أصحابه ووصلوا بالغنيمة إلى أبي عبد الله فاصطفى الجارية لنفسه فهي أم ولده ولم يكن له غيرها.



ذكر زحف جميع القبائل
إلى أبي عبد الله والفتح له عليهم

ولما رأى الذين قاموا على أبي عبد الله ظهور أمره وانقطاع أمر لهيصة عنهم وقتل مهدي وأنه لا حيلة لهم إلا المناجزة مشى بعضهم إلى بعض ومشوا في القبائل واستنفروا العامة وتجردوا للحرب، فأرسلوا إلى مزاتة فأجابوهم لما كان من إيقاع الأولياء برئيسهم، فاجتمعوا على أن تنتقل كل القبائل بالعيالات إليه وتحيط به من كل ناحية وتحصره من كل جهة حتى تسلمه غشمان أو يأتوا عليها.

واتصل الخبر بأبي عبد الله فأمر جميع الأولياء بالانتقال إلى تازروت، فانتقلوا إلى تازروت من كل ناحية، وجاءت كتامة من أطرافها فأحاطوا به، فكان أهل المدائن ناحية في عسكر، واجتمع أجانة ولطاية وجميع من يلي ميلة من القبائل في عسكر، واجتمع جميع من يلي سطيف من كتامة مع فتح بن يحيى ناحية، ومزاتة ناحية، فكان أقرب من نزل إليه منهم لطاية وأجانة؛ فلما رأى ذلك أبو عبد الله برز بمن معه عن تازروت وعسكر بناحية منها وخندق على نفسه؛ واجتمع الأولياء والدعاة والمشايخ إلى أبي عبد الله فقالوا: أنت قطب أمرنا وعليك مدارنا جميعاً، وأنت نعمة الله وفضله علينا وبك هدانا وعرفنا من الحق

ما عرفنا، فبقاؤك بقاء الدين وجمع شمل المؤمنين، وقد رأينا رأياً نعرضه عليك فترى فيه رأيك، فتأذن لنا في ذكره لك؟ قال: اذكروا ما بدا لكم، قالوا: قد ترى ما اجتمع علينا من الخلائق، ونحن بينهم في قلّة، والحرب خدعة؛ وقد كان القوم أمّلوا الوصول إلينا بالحيل والمكر والتلطف فلمّا لم يجدوا ذلك ولم يمكنهم وحماك الله ومنعك منهم تجردوا كما تراهم للحرب، ونحن من لا نلقي بأيدينا إلا أن يفتح الله عز وجل لنا أو نموت عن آخرنا، فإن كان الظفر لنا فذلك الذين نرجوه من الله ولن يضرنا أن نكون بأيدينا قد حُطناك وفعلنا بالحزم والرأي فيك، وإن تكن الأخرى وغلب علينا - ونعوذ بالله - فما منا من يشك بأنه يصير إلى رحمة الله، ولعل الله أن يعوضك غيرنا ويظهر أمره على يديك بمن شاء منا أو من غيرنا، وليس قصد القوم إلا إليك، ولا همتهم غيرك، فترى أن نخرجك سراً من هذا الموضع ونصيّرك إلى مكان لا يؤبه له تكون مستتراً فيه عند من يكلؤك ويحفظك ويرعاك، فإن كان الأمر لنا عدت إلينا بما تحبه، وإن كان الأمر علينا سلمت أنت ونظرت في غيرنا ولا نكون نحمّلك هذا الخطر ونقابل بك هذا العدد ونلقى بك هذه الكثرة والقوة.

فجزاهم أبو عبد الله خيراً وأسمعهم جميلاً وحضهم على الجهاد والصبر وتلا عليهم قول الله عز وجل: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٩] مع كلام كثير يعظهم به في مجلس عظمت بركته، وأطلعهم على كثير من الحكمة فيه، وأكّد عندهم تمام أمر الله وظهوره على أعدائه، وأنه على ثقة من الله عز وجل بإنجاز وعده لوليّه وتمام أمره على يديه، وقال لهم: ما كنت ممن

يستأثر بنفسه دونكم، ولا ممن يرغب بها عن الجهاد معكم، فأحسنوا بالله ظنكم ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] ولينفق قويكم على ضعيفكم وغنيكم على فقيركم وتوكلوا على الله ربكم، وثقوا بنصره إياكم؛ فنعشهم بذلك وقويت قلوبهم وزاد في بصائرهم ونياتهم.

وقام أبو عبد الله الأندلسي قائماً على قدميه ابتهاجاً بما سمع من ذلك ورأى من المؤمنين فقال: والله لقد ثبت أمر الله فيكم كما ثبت هذه في هذا - وأومأ بيده إلى أذنه ورأسه - والله لو قابلتم هذه الجبال - وأشار إليها - بهذه النيات لأزلتموها.

وانصرفوا من عند أبي عبد الله، فأخرج كل واحد منهم ما كان عنده من مال وكراع وسلاح، فأتى به، فحملوا من الرجالة على الخيل ممن كان يحسن الركوب، وأعطوا العدة لمن لا عدة له، وفرقوا ما عندهم بعضهم على بعض حتى استووا في الهيئة والأموال والعدة، واعترضوا فبلغت عدتهم سبعمائة فارس لا يزيدون ولا ينقصون، وبلغت رجالتهم نحو ألفي راجل بعد أن خلفوا جميع من فيهم من الضعفاء ومن لا يقدر على الحرب، وخلصوا في أهل الشدة والنجدة في هذه العدة، وكان معسكرهم وخندقهم على وادي تافرنت، وكان أقرب من نزل إليهم فحلُ بن نوح في لطاية.

فدعا أبو عبد الله المشايخ فقال: أرى لكم أن ترسلوا منكم رجلاً ممن بينه وبين فحل بن نوح خلطة، فيتلطف به ويدعوه إلى السلم، فلعلنا أن نفرق هذه الجماعة، فقالوا: سهل بن بركاس بينه وبينه صهر وهو له مخالط، فأوصاه بما يقول له وأرسله إليه، فمضى سهل حتى وقف

بالقرب من مناخ لطاية، ودعا فحلاً فخرج إليه وسلم عليه وسأله عن حاله، وقال: يا أبا تميم أنت مقدمنا وأميرنا وابن أميرنا وصهرنا، أفترضى لأخواتك أن تسبيهن البربر - يعني مزاتة وأن يُقْتَلَ إخوانك وبنو عمك على أيديهم؟ قال له أبو تميم: لا والله ما أحب هذا ولا أرضاه، ولا بيننا وبينكم ما يوجب ذلك، وإنما مطلبنا عندكم هذا الرجل الذي بدّل الدين وأوقع بيننا هذه الفتنة، فأعطونا إياه أو أخرجوه من بلدنا ينقطع هذا من بيننا؛ فقال له: سبحان الله يا أبا تميم، أفترضى أنت لو قد كان عندك واستجار بك وتحرّم بحرمك وعرف بك أن تفعل فيه مثل هذا الذي تأمرنا به أن نفعله؟! فسكت فحل، فقال له سهل: ما كنتَ والله ترضى بذلك ولا تفعله فيه، فلا ترضَ لنا بما لا ترضاه لنفسك فنحن إخوانك وعشيرتك وبنو عمك وأصيارك، قال فحل: وما عسى أن أفعله أنا في جماعة هذا الخلق؟ قال له سهل: أنت عمادهم وقطبهم ولو كنت على أمر ما خالفوك فيه، وجعل يعظمه ويرفع من قدره، فقال له فحل: فنفعل ماذا؟ قال له سهل: نصالحكم وتصالحونا ونعاهدكم فتعاهدونا ونحلف لكم وتحلفون لنا على قطع الحرب بيننا، ويرجع كل قوم إلى مواضعهم، ونكون كأهل مذهب من مذاهب المسلمين: من أراد منكم الدخول في مذهبنا دخل فيه، ومن أراد منا الرجوع إلى ما أنتم عليه رجع إليه، لا يُكْرَه أحد على ذلك ولا يُؤْخَذ عليه فيه بحسب ما عليه أهل المذاهب في البلدان وبكل وجه ومكان، فما الذي يوجب حربنا دونهم وتُستَحَل به دماؤنا من بينهم؟ فقال له فحل: دعني حتى أجتمع مع أصحابنا وأعود إليك، قال: افعل.

ومضى فحل فأرسل إلى فرح بن جيران وجميع من كان بالحضرة من وجوه القبائل، فاجتمعوا فأخبرهم بما كان من كلام سهل إليه لم يغادر شيئاً منه، فجعل فرح بن جيران يصفرّ وجهه وينكت الأرض برمحه ويطرف إليها بعينه، وهم في ذلك ركوب على خيولهم؛ فلما فرغ فحل من كلامه قال له فرح بن جيران: يا أبا تميم، هذا من حيل هذا الكافر وسحره، وما للقوم والله عهد ولا ذمة ولا دين ولا أمانة، وإنما أرادوا أن يتخلصوا من أيدينا لما رأوا أنهم في قبضتنا؛ لا والله ما كنا ممن يفارقهم حتى يدفعوا إلينا هذا الرجل أو يحكم الله بيننا وبينهم. وقال مثل قول فرح بن جيران جميع من حضر، فقال لهم فحل بن نوح: إنما هذا كلام جاء به الرجل فبلغته إليكم، فإذا عزم رأيكم على ما عزم عليه فما رأيي إلا رأيكم ولا قولي إلا قولكم، فأثنوا عليه خيراً.

وانصرف الرسول إلى سهل فأخبره الخبر فرجع سهل إلى أبي عبد الله فأعلمه بالقصة بحضرة المشايخ، فقال أبو عبد الله: هذا والله دليل النصر لكم وسبب الفتح عليكم، فاستعينوا بالله وناجزوا القوم أولاً فأولاً من قبل اجتماعهم إليكم.

وكان جميع مزاتة في ناحية بلد ملوسة وجميع المدائن وكتامة وسطيف بناحية مسالتة مما يلي ملوسة، فعبّى أبو عبد الله من معه ومشى إلى ناحية كتامة وميلة وهم أجانة ولطاية وجيملة وملوسة وديهاجة وغشمان سجا وأورسة وأهل ميلة فقاتلوهم، وقتل فارس من فرسان الجماعة وكان من أشدهم وافترق القتال ولم يصب أحد من الأولياء فقويت قلوبهم إذ رأوا أنهم قاوموهم.

ثم عاودوهم من غد فقتل من الجماعة عدد كثير وسَلِم الأولياء وافترقوا، وزادهم ذلك ثقة بالله عز وجل وبنصره، وقويت قلوبهم وعاودوهم في اليوم الثالث في أول النهار، فأقام القتال بينهم إلى وقت صلاة الظهر واستحرَّ واشتد وغلب بعضهم على بعض. وفي ذلك اليوم بدت نجدة غزوية وأبلى بلاء عظيماً وكان في الرجالة؛ وجرح غزوية بن يوسف الجرح الذي انقطع منه صوته، فلما فاء الفيء وزالت الشمس ضرب غزوية رجلاً كان أبلى في القتال من رجالة الجماعة فقتله وحمل الأولياء واجتهدت الجماعة أن يستنقذوا جثة الرجل فلم يقدروا على ذلك، وشدّ الأولياء عليهم واستوت الهزيمة فيهم، فطلبوهم يقتلون فيهم ويحرقون ديارهم ويغنمون أموالهم إلى أن حال الظلام دونهم، ولم يتعرضوا لأمة ولا حرة ولا كشفوا عورة، وانصرفوا إلى مناخهم وقد امتلأت من الغنائم أيديهم، وتفرق ذلك الجمع فدخل من دخل منهم ميلة، ورجع من رجع من القبائل إلى مكانه.

وأصبح أبو عبد الله والأولياء إلى عساكر سطيف وما والاها فقاتلوهم فهزمهم الله بين أيديهم وأمكنهم من ظهورهم فقتلوهم قتلاً ذريعاً وغَنموا أموالهم؛ وعطفوا على مزانة في اليوم الرابع فقاتلوهم فانهزموا من بين أيديهم واحتوى الأولياء على قيطونهم وجميع أموالهم وما كان لهم بعد أن تبعوهم بالقتل وأفنوهم وحازوا جميع أموالهم وما كان لهم. فبيعت الجمال يومئذٍ عشرين بعيراً بدينار وبيع الجمل بخمس بصلات، وأما الغنم والأمتعة والأموال فما أطاقا حملها ولا كيف يسوقون أنعامهم، وغنموا من الخيل ما لا يحصى عدده فصار إلى

الأولياء من النعم والأموال ما لا يحصى عدده، وانصرفوا إلى تازروت وفرق الله جَمْع من تألَّب عليهم، وقتل عامتهم على أيديهم وأورثهم أموالهم وأغنمهم وأمتعتهم وخيلهم وسلاحهم، وأصابوا من أموال أهل المدائن من السروج واللجم المحلاّة والخيل والغنائم والخلع والأموال والسلاح والبنود والطبول ما لا يحصى عدده.



ذكر ابتناء أبي عبد الله بتازروت واتخاذها دار هجرة ومحاربته القبائل منها

وابتنى أبو عبد الله بتازروت قصراً سكنه بنفسه وأقطع الأولياء دوراً حوله، وارتحل إليه المؤمنون من كل ناحية وبنوا وسكنوا وأوطنوا وقوي أمرهم واستأمن كثير من القبائل إليهم، وحاربوا من عَندَ منهم عليهم ممن قرب مما لديهم، وشنوا الغارات على من بعد منهم، فقلَّ يوم إلا ولهم فيه وقعة بموضع، وحلول بساحة قوم. وسلَّم أكثر الناس إليهم وأقبلوا يسألون الدخول في الدعوة رغبة ورهبة، وخلص جميع غشمان تازروت وملوسة ولهيصة لأبي عبد الله، واجتمعت كلمتهم على الإيمان، وأطبق على ذلك عامة اجانة، وكان رئيس المؤمنين فيهم يومئذ أبا يوسف ماكنون بن ضبارة، وثبت أبو زاكي تمام من معارك وهو ابن أخي أبي يوسف وكان يومئذٍ شاباً فقرب من أبي عبد الله، فخاف فرح بن جيران على نفسه وجماعة معه من رؤوساء أجانة أن يغلب عليهم العامة فارتحلوا إلى ميلة، وكان ممن ارتحل منهم فرح بن جيران ويوسف بن محمد ووزرة بن نصر في جماعة منهم، فلما صاروا إلى ميلة خلص لأبي عبد الله جميع أجانة. والحق بميلة فحل بن نوح في جماعة من لطاية، واستقام أمر باقيهم لأبي عبد الله، فاتصلت طاعته وظهرت في هذه القبائل دعوته وعزَّ فيها أمره.

وجمع فتح بن يحيى إليه من أطاعه في مسألته وغيرهم وأقام فيهم، وكان الذين أطاعوه من مسألته: أهل بيته ومن قاربهم وتسببَّ بأسبابهم، وبنو عفنيت لأنهم يذهبون إلى مذهب الأباضية قديماً: ليس في جميع كتامة من يذهب إلى ذلك غيرهم، وهم نُجُدٌ من مسألته؛ فكرهوا أمر أبي عبد الله؛ وفاقه من مسألته: ازاية - وهم أهل بيت أبي موسى هارون بن يونس - ومن تابعهم، وصاروا إلى الدعوة؛ فاتصل بأبي عبد الله أمره فحاربه فغلب عليه وقتل كثيراً ممن كان معه وهرب في جماعة من أهل بيته إلى ناحية سطيف، ثم كتب إلى أبي عبد الله يسأله الأمان والدخول في أمره بعد أن سلَّمَتْ مسألته كلها لأبي عبد الله، ولم يجد جنباً يلجأ إليه، فأمر أبو عبد الله هارون بن يونس بالكتاب إليه بأمانه وقدومه، فقدم عليه وأدخله أبو عبد الله إليه وآمنه، وأمر أبا موسى أن يأخذ عليه العهد ويدعوه فجعل أبو موسى يمطله بذلك ويمتحنه ويغلظ عليه ويقول: قتلت جماعة من الأولياء فجيء بديتهم، وقيل إنه كره اتصاله بأبي عبد الله لمكانه من الرياسة وما سبق له من الذكر ولأنه مع ذلك مطاع في قومه وشديد في نفسه ونجد بيده وفارس مشهور في قومه، فخاف أن يعلو عليه أو يتمكن عند أبي عبد الله فيساويه، واتصل ذلك بفتح ابن يحيى عنه وخُوِّفَ جانبَه فهرب، وصار إلى عجيشة، وجمع جمعاً كثيراً حوله منهم ومن غيرهم، فاتصل بأبي عبد الله خبره فقصد نحوه، ومرَّ على سطيف فلم يعرض لمن فيها، وتحصَّن فتح بن يحيى ومن معه في قلعة منيعة بالموضع الذي عقدوا فيه يقال لها نوبو وتسمى أيضاً وشنوك وأحاطت به العساكر فيها فقاتلوهم عليها، وكانوا يطرحون الصخرة العظيمة من

فوقها فتقبل لها دوي كدويّ الرعد، فإذا رآها أبو عبد الله مقبلة غطّى وجهه بكمه لئلا يرى ما تصيب به الأولياء، فلم يزالوا حتى افتتحوها وقتلوا أكثر من بها، وقتل فيها يومئذٍ تصولا بن يحيى أخو فتح بن يحيى، وهرب فتح، وغنم الأولياء منهم غنائم كثية، وانقادت عجيشة وزواوة لأبي عبد الله وجميع كتامة مجرس، وانصرف بالعساكر إلى تازروت.

ولحق فتح بن يحيى بإفريقية إذ لم يجد موئلاً دونها فقدم على أبي العباس بن إبراهيم بن أحمد، وهو يومئذٍ بتونس بعد خروج أبيه إبراهيم إلى صقلية، فوصله وأدناه وأنزله وأكرمه، وسأله عن أخبار أبي عبد الله، فضعَّف عنده أمره وقال: لو أنك أخرجت إليه عسكراً لأخذته، قال أبو العباس، أفليس قد اجتمعتم أنتم في عساكر عظيمة، فلم تطيقوه؟ قال: ليس أمرنا من أمرك بشيء، نحن نقاتل بلا رأس ولا كثيرة عدة، ونقاتل من يعرفنا من أهل البلد، ولو جاء عسكر من قبلك لكانت له هيبة في صدور الناس ويكون لهم حينئذٍ رأس وتأتي بالعدة التي ليست عندنا وبالرجال الذين لم يمارسهم أهل البلد ويقاتلونهم بقتال لا يعرفونه من النشاب والقنا وغير ذلك، ولعسكر السلطان هيبة، ولو دخل بلد كتامة لانصرف إليه أكثر من صار إلى أبي عبد الله، وزيّن له ذلك ومنّاه إياه لما رجاه من الرجوع إلى بلده والعودة إلى أهله وولده ورياسته.

فأمسك عنه أبو العباس بعد أن أطعمه بما قال له، وكان أبوه إبراهيم بن أحمد قد أسرَّ إليه أمر أبي عبد الله ونهاه عن محاربته، وقال له: كن من أمره على وفاء، فإن رأيت أنه قصد إليك فخل من بين يديه والحق بي إلى بلد الروم فليس لك به طاقة، وهو صاحب قطع دولتنا، فاعتمد أبو

العباس على ذلك وردَّ الغَضْبَ والقطائع ولزم الخمول والتواضع وفعلَ منتظر لما كان عهده أبوه إليه وتقدم له فيه. فلما جاءه فتح بن يحيى بما جاءه أصغى إليه ومال نحوه وأمسك عنه إلى أن أتاه ابن موسى بن عياش، فكان منه ما سنذكر خبره في موضعه إن شاء الله.

واستولت أمور أبي عبد الله على عامة بلد كتامة وظهرت دعاته في كل ناحية منها وغلب أمره عليها واستحكم فيها، ولم يبقَ فيها إلا من يدخل دعوته إما راغباً وإما راهباً أو مخذولاً قد أنكرها بقلبه وغلبت عليه شقوقته فأصر على إنكارها، فتمسك بما هو عليه غير مدافع لأمر ولا متوثب على أحد من أهله، بل قد صار كل من هذه حاله تحت أحكام الدين وأيدي المؤمنين، يجري حكمهم عليهم وينفذ أمرهم فيهم ويحيط سلطانهم من ورائهم بعد أن كانت لأبي عبد الله في قبائل كتامة وقائع كثيرة يطول ذكرها أقام بعد انهزام الجميع عنه نحواً من سنتين يوقعها بهم وينقص أطرافهم ويقتلهم ويغنم أموالهم حتى أجابوه وسلموا لأمره طائعين ومكرهين وراغبين وخائفين، ولم يبقَ غير المدائن ومن فيها من أمرائها ومن انضم إليهم، وصار عندهم من غلبت عليه الشقوة وسبق في علم الله حلول البلاء به من رؤوساء القبائل ووجوه العشائر ممن أنف عن الدخول في الدعوة والوقوع تحت من كان يرى أنه واقع تحت أمره من العشيرة، ومن خامره الخوف من مقدمات سوء فعله وزين له الشيطان التمادي على غيه وجهله، وطوائف من القبائل ممن قارب المداين وعاشر أهلها واستمالهم امراؤها يدارونهم ويكاتبونهم ويتسللون إليهم في السرّ وهم على ظاهر الطاعة والوقوع تحت الدعوة في الجهر، تركوا على حالهم مستورين كما تَرك رسول الله ﷺ من كان بالمدينة وحولها

من المنافقين وكان أصل ما أجري عليه أمر أبي عبد الله ما أراده الله عز وجل من ظهور أمر أوليائه وإعزاز دينه وعلو كلمته، فتسبب لذلك ما أجرينا ذكره من الأسباب التي لا تدرك إلا بحوله وقوته. فلما أظهر الله أمره وأعزَّ نصره وفشت دعوة أبي عبد الله، وأجابه ودخل أمره طبقات من الناس: منهم من أراد بذلك وجه الله عز وجل وطلب ثوابه وأخلص فيه له وآثر به ما عنده، ومنهم من أراد بذلك الدين والدنيا ودرك حظه من الآخرة والأولى، ومنهم من دخل ذلك يبتغي به الفخر والشرف والذكر والرياسة، ومنهم من أراد به الكسب والفائدة، ومنهم من دخله الحسد والمنافسة، ومنهم من صار إليه خوفاً وتقية ومداراة، والوجوه يطول ذكرها يجمعها أمران: أمر الدنيا وأمر الآخرة. وعلى ذلك كان أمر من مضى من السلف، فقد أخبرنا الله عز وجل عن قوم كانوا على عهد رسول الله ﷺ فقال: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وقال: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ومنهم من يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١].

فأيد الله عز وجل أبا عبد الله لما أراده من ظهور أوليائه في ذلك بتوفيقه وأيده بتسديده فنظر أن أصل ما بنى عليه أمره وقطبه الذي عليه مداره: الدين وما يوجبه الحق فتنصلح به أمور الخلق فاعتمد عليه وجعله قاعدة أمره، فلم يقدّم أحداً ولا أخّره ولا نوّه به ولا ذكره ولا أثاب ولا عاقب ولا ترك ولا طالب ولا أقبل ولا أدبر ولا أسرّ ولا أظهر إلا ما يوجبه الدين والصدق ويحقه الواجب والحق، لا يقبل من أحد إلا ذلك ولا يثيب إلا به ولا يعاقب إلا عليه ولا يعطي رخصة فيه. فاستعمل

ذلك له أهل كل طبقة لما أرادوه وقصدوا إليه إما اعتقاداً ونية وإما رياء وسمعة، وفي الرياء بالخير صلاح الظاهر، والله يجزي ويعاقب على الباطن. وكان بين الناس على ما يظهر منهم من ذلك، لا يرضى منهم بغيره ولا يداهن فيه، فمن اطلع منهم عليه قد خالف شيئاً منه عاقبه عقوبة مِثْلِه ولم يتغمد ذلك له ولم يتجاوز عنه فيه كائناً من كان ممن عرَفَ بالدين والدخول في جملة المؤمنين أقصاه ونبذه وطرده وأبعده وحرّم على المؤمنين أن يقربوه أو يدانوه أو يجالسوه أو يكلموه، فيبقى المدة الطويلة والأيام والشهور الكثيرة مقصياً مهجوراً ومنبوذاً مقهوراً في عشيرته وأهله وخاصته وولده وجميع من رآه وعرفه حتى يخلص التوبة ويقدم الأعمال الصالحة ويمتحن المحنة الطويلة بقدر ما اقترف من ذنبه وأتاه من خطيئته، فعند ذلك يبتدئ أحواله ويقربه إلى قريب أعماله. ومن أصاب ما يوجب الحدّ أقيم عليه، ومن أتى ما يوجب العقاب عوقب عليه، ومن استحق مكاناً رفع إليه، ومن قصّر عنه اطرح به. فوزن الناس أعمالهم وحاسبوا أنفسهم وعلموا أنه لا يغفل عنهم ولا يتجاوز لهم، فاستقامت أمورهم وصلحت أحوالهم. ثم غلّظ في العقوبات لمن يستحق التغليظ منهم فأدبهم بالسيف وعاقبهم بالخوف وجعل ذلك بأيديهم ولم يكله إلى غيرهم ولا سلط عليهم به سواهم، فإذا أراد قتل من يريد قتله منهم أمر به أخاه أو أباه أو أقرب الناس إليه فيرى ذلك طاعة منه ويكون أسهل عليه من أن يرى غيره يليه وأن يدخل في حال السخط وينحسم الطلب عنه بتوليته إياه دون غيره، فكان في ذلك صلاح من وجوه، فاقتصر عن الذنوب وتحامى من قبائح العيوب عامة الناس

خوفاً ورغبة وتقيّة ورهبة، وأيقنوا أنه لا رخصة فيها ولا صفح عنها، فانحسمت أطماعهم منها، وانقطع الفساد والخيانة وفشا الورع والدين والأمانة، ولذلك قال الأولون: السلطان سوق فما علم الناس أنه ينفق فيها أتوا به إليها؛ وهذا لا يكون إلا بحسب ما ذكرناه من الرغبة والرهبة واليأس من الإدهان والرخصة والله عز وجل أعلم بخلقه، فلو علم جل وعز أنهم يصلحون على غير ذلك لما جعل لهم ثواباً وعقاباً، ولو علم أن الثواب يجزي من دون العقاب والعقاب دون الثواب لما جعلهما معاً، ولكنه عز وجل علم أن من طباع البشر التي جبلوا عليها أنه لا يصلحهم إلا الثواب والعقاب؛ فلم ير الناس ولا انتهى إليهم أن قوماً كانوا من صلاح الحال والاستقامة على مثل ما كان عليه أصحاب أبي عبد الله: إن التجار يسافرون بالأموال الصامتة والنَعَم الظاهرة يمرّ بها الواحد والإثنان في الجبال والصحارى والفلوات والبراري ومواضع الخلاء فيبيت حيث أمسى ويسير حيث أحب واشتهى، كأنما هو في بيته أو سوقه يبيت آمناً ويصبح سالماً؛ وأن الضالة لتضلّ كالغنم من رعائها والدواب بسروجها ولجمها فتجول في البراري والعمران وبين الرجال والنساء والولدان لا يلتفت منهم إليها ملتفت ولا يطمع فيها طامع ولا يرغب فيها راغب، تقيم كذلك الأيام والليالي حتى يأتي طالبها ويحضر صاحبها؛ وكذلك تسقط اللقطة فتقيم بموضعها المدة الطويلة والأيام والليالي الكثيرة حتى يأتي أهلها ومن أضلها فيأخذها؛ وتحامى الناس المعائب وتركوا الاختلاف في المذاهب وصاروا على أمر واحد يتسمّون إخواناً ويتواصلون سراً وإعلاناً، إذا دعا الواحد منهم من لا

يعرف اسمه أو أحب أن يكنى عنه في دعائه إياه أو حديثه له قال: «يا أخانا» فكانت هجّيراهم وقولهم في حديثهم ودعواهم، وإن تلاقى الرجلان منهم تصافحا وتعانقا وقبّل كل واحد يد صاحبه لا يأنف في ذلك شريفهم عن مشروفهم ولا يرغب بنفسه فيه قويهم عن ضعيفهم، وكذلك كان أبو عبد الله يفعل لكل من دخل عليه وكذلك كان يدعو من يدعو به: «يا أخانا» وعنه أخذوا ذلك وبآدابه تأدبوا فيه.

ثم كان من نزاهته وصيانته وعفته وأمانته فيهم ما علموه وعظم في أعينهم من أجله أنه أقام فيهم مدة طويلة لا يذكر امرأة ولا يلوي على ذكرها، وعرّضوا بذلك له وذكروه فلم يلتفت إليه حتى صارت إليه جارية بعد زمان طويل فاصطفاها لنفسه. ومن ذلك أنه لم يكن يقبل من أحد منهم لنفسه قليلاً ولا كثيراً، وجهدوا في ذلك فلم يكن يفعله ولم يكن ينفق إلا ما أطلقه له مولاه وأتاه كتابه بأخذه، وربما أبطأ ذلك عليه فيحتاج فيرجع إلى بيع ما عنده في السرّ وإنفاقه، والأموالُ الكثيرة في يده وله مباحة. ومن ذلك أنه عاملهم بالوقار والتهيب فلم يُرَ فيهم ضاحكاً ولا ممازحاً ولا يسمع يقول هجراً ولا عبثاً ولا باطلاً، ولم يكن مع ذلك بالعَبوسِ المنقبضِ ولا بالطلق المنبسط ولكنه كان متوسطاً بين الأمرين لا يبسطهم فيُبْطرهم، إن نطق نطق بحق وصواب وحكمة، وإن صمت صمتَ بوقار وحلم وهيبة، ولا ينقبض عنهم فيوحشهم وينفّرهم، وكان يشاورهم ويُخْليهم ويسرّ إليهم ويدنيهم على قدر مواضعهم واستحقاقهم ويقدّم أهل الدين والسوابق الصالحة منهم.

وقسم كتامة أسباعاً وجعل لكل سُبع منها عسكراً وقدّم عليه مقدماً

وأطلق بكل موضع داعياً وسمى المقدمين والدعاة: «المشايخ» وإن كان فيهم من لم يبلغ السن، وأبقى أعمال المؤمنين وما أفاء الله من المغانم على وليّ المسلمين في أيدي المشايخ، لم يكن يقبض من ذلك شيئاً ولا يصل إليه ولا يأتيه ولا يراه، وكان في أيديهم إلى أن قدم المهدي عليه السلام فدفعوه إليه، وكان ذلك الوجه مما استفسدهم وحسبوا أن ذلك كذلك يكون في أيديهم أبداً، وإنما أراد به أبو عبد الله أن يطيب بذلك نفوسهم ولم يكن له فيأخذه من أيديهم ورأى أن تركه عندهم بالأمانة أحوط عليه وأصلح لهم فصار ذلك لهم لما قُطِع عنهم كقطع العادة الثقيل قطعها المستكره الانتقال عنها كما قال الشاع:

لا تُهنّي بعد إكرامك لي فشديد عادة منتزعَة

وقال بعض المتقدمين: العادة طبيعية وقطعها ذنب. ولم يكن ذلك من سوء سياسة أبي عبد الله، وإنما فسد الأمر فيه من قبَل فساد التمييز ممن أنكره وفسد من أجله، فأما الذي فعله أبو عبد الله فيوجب ما قدَّمنا ذكره، وإنما يلزم الخطأ من أحال الصواب وغيَّره من ابتدأه واخترعه.

ومن ذلك أنه كان يمتحن أصحابه بالمحن الكبار فمن رضي محنته منهم رفعه بقدر استحقاقه فكانوا لذلك لا يستعظمون محنة ولا يرغبون عنها بل يسارعون إليها ويؤثرونها، فيعاهدهم على الموت ويحملهم على التلف في وجه الدين فيجيبونه ويسارعون إليه. وكان يبعث منهم الرسل إلى المشرق قبل هجرة المهدي صلوات الله عليه، وإلى سجلماسة بعد أن صار إليها، وإلى النواحي البعيدة في الوجوه التي يريدها، فإذا اختار لذلك من يختاره وانتجب له من ينتجبه وأسرَّ ذلك

إليه لم يطلع أحداً عليه من أهل ولا ولد، ولا يعرف أحد منهم حيث سار ولا أين توجه فلا يزال مفقوداً عندهم حتى يأتيهم. وكان يبعث بالأموال العظيمة معهم فيحملونها ويتسترون ويمشون في حال الضعفاء وحجيج أطراف المغرب في الأطمار والأخلاق حتى يوصلوا ما يُبعث معهم إلى الإمام، ثم يرجعون كذلك على مثل حالهم.

ولقد أدار رأياً لما فتح الله أكثر البلد عليه، ولم يمكنه الوصول إلى سجلماسة بنفسه دون أن يفتح إفريقية، وبلغه أن زيادة الله كتب إلى أليسع بن مدرار صاحب سجلماسة بخبر المهدي وأنه قِبَله، وخاف من أجل ذلك عليه، فانتقى مائة رجل من كتامة وعاهدهم أن يخرجوا إلى سجلماسة في زي المسافرين، فإذا وصلوا إليها وثبوا على ابن مدرار فقتلوه وقاموا بأمر المهدي صلوات الله عليه، على أن كل واحد جعل على نفسه أن يقوم بمائة من المقاتلة، وعلموا أنه لا يكون بسجلماسة مثل هذا العدد، فأعطوا صفقة أيمانهم وعاهدوا الله على ذلك، وخرجوا حتى إذا كانوا بالقرب من تاهرت اشتهر أمرهم وعرفوا ولم يمكنهم النفوذ فانصرفوا؛ فكانت فيهم هذه النيات العظيمة والبصائر العجيبة لما أدبهم به وقوّمهم عليه بتوفيق الله عز وجل إياه وتسديده له لما أراده تعالى من إتمام أمره وإظهار دينه.

ومن ذلك أنه كان يتعاهدهم بالوصايا والتذكرة ويكرّر عليهم المواعظ والحكمة فيجمعهم لذلك ويجلس لهم أكثر أيامه، ويأمر من أطلقه من الدعاة بذلك ويربّيه عليه، فكانت أيامهم أكثرها مشاهدُ وسماعٌ ومواعظُ، فبين شاهد لذلك راغب فيه وحاضر له يخشى النقص

من التخلف عنه، ولا بد أن يعلق بالشيء منه فينتفع به وأعمالهم مع ذلك على مثل ذلك دارت تديناً وتصنعاً، وعلى ذلك مضى سلف الأئمة سلام الله عليهم، حتى لقد قال بعضهم - وحلف بالله -: لقد طلب العلم أول ما طلبه لغير وجه الله.

ومن ذلك ما كانوا يرونه من أبي عبد الله من الإعراض عن الدنيا وإطراحها وترك الاشتغال بالكسب فيه مع قنوعه في المطعم والمشرب والملبس والهيئة والمركب، فكانوا قد اقتدوا به وجعلوا كدّهم وجدّهم الانفاقَ في سبيل الله عز وجل والتعاون على ذلك والمواساةَ فيه إذ كان الأمر في ابتدائه ولا أموال في أيديهم إلاّ اليسير مما أفاءه الله عليهم بحسب ما كان عليه صدر السلف في ابتداء أمر رسول الله ﷺ، فلم يكونوا لذلك يشتغلون بما جاوز الكفاف وستر العورة.

ومن ذلك ما كان يحضهم عليه ويذكر لهم فضله ويبين لهم ثوابه من التواصل بينهم والتوازر والتعاون والترافد والتعاهد وإطعام الطعام وصلات الأرحام من أهل الدين وجملة المؤمنين، فكانوا إلى ذلك مسارعين وبه مغتبطين وعليه متعاونين، لا يعد الواحد منهم لنفسه مالاً دون أخيه، ولا يرى الفضل والشرف إلا فيما وصل إليه فأعان به، فلم تكن أمة من الأمم ولا أهل قرن من القرون على مثل ما كانوا عليه، وهم في ذلك على منازل بحسب نياتهم واجتهادهم: رجالهم ونساءهم، ولهم في ذلك من الأخبار ما لو ذكر بجملته مفسَّراً لطال وخرج عن حدّ هذا الكتاب.

وقد ذكرنا - ونذكر - جماعة ممن شهر بذلك وأنفق ماله فيه وكانت

له الأخبار العجيبة: فممّا يحكى من ذلك عن كوربن بن قنبر اللهيصي فإنه قيل إنه أنفق ماله كله في مواساة إخوانه وإطعامهم وسد خللهم، وكان يقال إنه يضمّ إليه كلّ جريح يجرح من المجاهدين فيأسو جرحه ويداويه ويقوم عليه إلى أن يبرأ ويستقل، فيصله بعد ذلك ويعطيه أو يموت فيكفنه ويواريه. وقيل إنه ما زال يخرّق ما عنده من الثياب لتعصيب جراح الجرحى حتى لم يبقَ له ثوب ولا لأحد من ولده، وكانوا لا يصلون إلى الأسواق فيشرون؛ واحتاج جماعة من الجرحى عنده ممن كان يقوم به ويغذيه ويداويه إلى عصائب لجراحهم فلم يجدها فأنفذ كل ما كان له ولبنيه ولأهل بيته من الثياب في ذلك. وقد أدخل ابنه يوماً على امرأة له وهي عروس وعليها ثياب فسألها فيها وعوضها مالاً منها وانتزعها عنها فشقها عصائب وشدّ بها جراحات إخوانه، مع ما كان يتجمل به هو وجماعة يطول الكتاب بذكرهم من إطعام ضعفاء المؤمنين والقيام بهم، ومن نساء كنّ يصنعن ذلك ويقمن عليه ابتغاء الأجر فيه، كامرأة يحيى بن يوسف المعروف بن الأصمّ الأجاني - وكان من أصحاب الحلواني الذي قدَّمنا ذكره ومات قبل دخول أبي عبد الله بزمان طويل - فلما احتضر أخرج مالاً إلى امرأته - وكانت حدثة السنّ يومئذٍ وهو شيخ وكان قد أدّبها وعلمها التشيع والولاية - فقال لها: إن هذا المال مال كنت أعددته لما كنا نسمعه من الحلواني من أمر المهدي وأنه يطأ بلدنا هذا وكنت أعددت هذا المال للنفقة في الجهاد بين يديه أو بين يدي داعيه، فليكن عندك بأمانة الله، فإن بلغت ذلك الزمان فأخرجيه وأنفقيه، ومات وتخلَّف عليها بعده أخوه ياسين بن يوسف، وعاشت

إلى أن دخل أبو عبد الله ودُعِيَت وحسنت حالها فأخرجت إليه المال ودفعته إليه، وأخبرته بما كان من وصية زوجها إياها، وان لها مال فأنفقته في الجهاد، وكانت تصنع بيدها الطعام للمجاهدين وضعفاء المؤمنين ولمن ينزل بأهلها منهم، حتى إن يديها كانتا تدميان من الطحن وعلاج الطعام لهم، وغيرها ممن هو في مثل حالها من النساء يطول الكتاب بذكرهن، وكن يشهدن المجالس ويسمعن الحكمة وكان منهن عجائز يسمعن ذلك ممن قد بلغ حدّ الدعوة، منهن أم موسى ابنة الحلواني الذي قدَّمنا ذكره وغيرها من عجائز كتامة. وكن كذلك يخدمن المؤمنين ويعالجن المرضى ويأسون الجرحى على نيات وبصائر، لما كنّ يسمعن من الذكر والحكمة وقوّمن عليه من الأدب والسياسة هنَّ ومن تقدَّم ذكره من الرجال.

فكان أبو عبد الله سبباً من الخير سببه الله لهم وباباً من البركة فتحه الله عليهم وسعادة ساقها إليهم وبصرهم به من الجهالة وهداهم به من الضلالة وأوسع به عليهم في النعمة.

وكان بنو أبي خنزير من وجوه أهل ميلة وهم من العرب من ربيعة ويعرفون بالسناجرة لأن أولهم من سنجار - مدينة من ديار ربيعة - وكان رئيسهم يومئذٍ حسن بن أحمد، فوصل إلى أبي عبد الله سراً ودعاه فأطلعه على أمر المدينة. وكان أبو عبد الله حينئذٍ يحاربهم، وقد انضم إليهم رؤوساء القبائل وعامة لطاية، ويزحف بالعساكر إليهم فيكون بينهم القتال الشديد وينصرف عنهم إلى تازروت، وكان مع ذلك يحارب بقايا من طوائف كتامة إلى أن غلب عليهم وسلموا لأمره.

فلما استقام لأبي عبد الله أمر كتامة وأداخ من عند عليه منهم جمعهم وزحف بهم إلى مدينة ميلة، فأحاطت العساكر بهم منكل ناحية ونزلت عليها فخرج إليهم موسى بن عياش بمن معه ومن لجأ إليه من كتامة مثل فحل بن نوح وفرح بن جيران ويوسف بن محمد ووزرة بن نصر، فقاتلهم قتالاً شديداً فقُتل فحل بن نوح وغَلَبَ أبو عبد الله وأصحابه على أرباض ميلة ودخل جميع من فيها إلى الحصن فانحصروا به، فلما نظروا إلى ما لا قوام لهم به دعا موسى بن عياش حسنَ بن أحمد بن أبي خنزير، وقد كان علم بأنه قد دعا، فأرسله إلى أبي عبد الله يسأله الأمان، فآمنهم أبو عبد الله في أنفسهم ما لم يحدثوا حدثاً، وفتحوا أبواب المدينة ودخل الأولياء وتسلّل أبو إبراهيم بن موسى بن عياش مع جماعة منهم في الليل فهربوا فوصلوا إلى إفريقية، وقيل إن موسى ومن معه من رؤوساء كتامة أرسلوهم؛ فلما دخل الكتاميون قتلوا فرح بن جيران ويوسف ابن محمد ووزرة بن نصر الأجانيين، ويقال إن الذي سعى في قتلهم أبو زاكي لأن هؤلاء كانوا وجوه إجانة فخشي أن يعلو أمرهم عليه.

وأخرج أبو عبد الله موسى بن عياش واستوصى به خيراً، وولىَّ أبو عبد الله على ميلة أبا يوسف ماكنون بن ضبارة الأجاني وهو عم أبي زاكي وانصرف إلى تازروت بالعساكر.

وانتهى أبو إبراهيم ومن هرب معه إلى أبي العباس بن إبراهيم بن أحمد - وهو يومئذٍ بمدينة تونس -، فأخبروه بالخبر وضعفوا عنده أمر أبي عبد الله وسألوه في إخراج عسكر إليه معهم وضمنوا له أمره واجتمع في ذلك معهم فتح بن يحيى المسالتي الذي كان قد قبل ذلك إليه،

فأعلموه أن أكثر الناس لو أتاهم عسكر لقاموا معه، فأمر بالحشود وبَذَلَ العطاء وجمع وجوه رجاله فأمّر عليهم ابنه محمداً أبا عبد الله المعروف بأبي حوال، وكان فارساً شديداً بطلاً كمياً، ولم يكن أحول وإنما ذلك شيء لقب به لأنه كان ربما كسر عينه إذا أدمن النظر إلى الشيء، فاجتمعت له عساكر كثيرة عظيمة.

واتصل الخبر بأبي عبد الله أن موسى بن عياش هو الذي وجه ابنه لذلك، وأمر بأن يحتفظ به، وجعل عليه الحرس، ثم أمر بقتله لما صحّ ذلك عنده وقربت العساكر منه، فقتل صبراً في بني جلامة، وألقي في مطمورة بها. وجمع أبو عبد الله إليه العساكر واستعد للقاء أبي حوال.



خروج أبي حوال بالعساكر إلى كتامة وما كان من أمره في ذلك وانصرافه منه

فاجتمع لمحمد هذا المعروف بأبي حوال ابن عبد الله أبي العباس ابن إبراهيم بن أحمد اثنا عشر ألف رجل بين فارس وراجل تنقاهم واختارهم، وأخرج إليه أبوه الأموال والخلع والسلاح والعدة، فأسبغ عليهم العطاء وكسا وجوههم وحملهم وكسا في من كسا وحمل: فتح بن يحيى وأبا إبراهيم ابن موسى بن عياش وأمر لهم بالسروج واللجم المحلاة في جماعة كانوا معهم من حماة كتامة، وخرج بالعسكر من مدينة تونس في ذي القعدة من سنة تسع وثمانين ومائتين، فكل من مرَّ عليه من القبائل بذل لهم العطاء والخلع والحملان لوجوههم، فسارعوا إليه وقصدوا نحوه وصار إلى سطيف فلم يصل إليها حتى زاد في عسكره مثله، وتلقاه بنو عسلوجة أصحاب سطيف وبنو تميم أصحاب بلزمة في من معهم ومن حولهم ممن لم يدخل مع أبي عبد الله فصاروا في عساكر عظيمة، ومال بهم على من قد دخل في حزب أبي عبد الله من كتامة أهل مجرس فقتلهم قتلاً ذريعاً وانتهب أموالهم وسبى نساءهم وذراريهم، ثم قَصَد قَصْدَ أبي عبد الله إلى تازروت.

واتصل الخبر بأبي عبد الله فبرز إليه في من معه، وكان أبو حوال منذ خرج من باغاية جعل يسيّر عساكره إذا سارت زحفاً بتعبئة كما يعبئ

العساكر عند لقاء القتال، فإذا نزل لم يبت إلا في خندق يحتفر حوله من وقت نزوله فلا تغرب الشمس إلاَّ وقد تمَّ، قد رتب ذلك على رجال أوقفهم له بقياس معلوم بأذرع معدودة ورتب نزولهم على ترتيب معلوم، فكل قوم قد علموا وعرفوا مكانهم، فإذا أظلم الليل عليهم وقف الحرس على أبواب الخندق، ودارت به الرجّالة من داخله بالدرق، والخيل تعسّ دون الرجالة في داخل الخندق، ويخرج ألف فارس فتعس حوله إلى أن يصبح. فساروا على ذلك الترتيب، وكان الزمان زمان شتاء.

وزحف أبو عبد الله إليه فالتقوا ببلد ملوسة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم أبو عبد الله وأصحابه آخر النهار واتّبهم أبو حوال إلى قرب الليل فنزل وخندق، فلما أصبح زحف إليهم وقد كانوا نزلوا بقربه فاقتتلوا فانهزم أيضاً أصحاب أبي عبد الله، وجاء ثلج عظيم فحال فيما بينهم.

وانصرف أبو عبد الله وأصحابه إلى تازروت فلم يروا أنها تحصّنهم، وأخذوا ما قدروا عليه من أموالهم وانضموا عليه بأجمعهم إلى إيكجان، وارتفع الثلج، وأتى أبو حوال إلى تازروت فأصابها خالية فأحرقها وهدم قصر أبي عبد الله الذي ابتناه بها، ومضى حتى أتى إلى ميلة فأصاب أهلها أيضاً قد ارتحلوا منها وانضموا إلى إيكجان، فنزل منها بالجانب بناحية دبور القبلة بقرب الخان الكبير المعروف بموسى بن عياش على أنه يزحف إلى أبي عبد الله إلى إيكجان وخندق في مكانه. فلما أصبح استأذنه أبو إبراهيم بن موسى بن عياش في أن يمضي إلى كجارمة يستخرج أباه فيدفنه، وكان ذلك بقرب ما قتل، فأذن له في ذلك، ومضى في خيل كثيرة حتى أتى كجارمة - وهي من بلد لطاية بالقرب من ميلة - فأصابها خالية قد ارتحل أهلها مع أبي عبد الله، فهو

على أن يستخرج جثة أبيه إذ أقبلت خيل ومعهم دواب من أهل كجارمة يحتملون طعاماً لهم، فواقعوا أبا إبراهيم ومن معه فقاتلوهم فقتل أبو غفال ابن أبي إبراهيم ابن موسى بن عياش وكان فارساً شديداً، واتصل الصراخ بالفريقين فأمدَّ كل قوم أصحابهم، والتحم القتال بينهم وتكاثروا، فلما قرب الليل وقعت الهزيمة على أصحاب أبي حوال، فطلبهم الأولياء إلى أن قربوا من العسكر ودخل الليل عليهم فانصرفوا عنهم، وبات أهل العسكر مع أبي حوال وقد ماجوا، فلما اعتكر الليل وقعت فيهم نفرة، فاقتحموا الخندق وضربوا على وجوههم كلُّ قوم منهم إلى مواضعهم، وحاول أن يُصلح ذلك أبو حوال فلم يستطع، فأمر برفع الثَّقَل، وأشعل المشاعل وسار في الليل وأخذ ناحية جيملة يريد إفريقية، فلم يصبح حتى خرج من حدّ كتامة. واتصل الخبر بأصحاب أبي عبد الله فأتوا مناخه فغنموا ما بقي فيه وانقطعت خيل منهم في طلبه فلم يلحقوا به، وسار أبو حوال حتى وصل إلى أبيه بتونس، وتراجع كتامة إلى مواضعهم وأهل ميلة إلى مدينتهم.

وكان الحسن بن هارون قد اعتلَّ فمات بايكجان، رحمة الله عليه، وكان بيان بن صقلان السكتاني وأبو جعفر أحمد بن سليم السكتاني الذي كان يقال له الجرارة قد بلغا عند أبي عبد الله المبلغ الصالح وَحَسُنَ أثرهما، فرغبا إليه مع جماعة من بني سكتان في المقام بايكجان، ورأى أنه أشبهُ المواضع به فأقام وابتنى به قصراً وارتحل الناس إليه وصار دار هجرة للمؤمنين.

وفرق أبو عبد الله الدعاة في القبائل وتجرَّد بنفسه للمجالس، وكان يجلس في كل يوم للمؤمنين يحدّثهم ويشرح لهم، وأمر الدعاة بذلك،

فحسنت نيات المؤمنين وزادت بصائرهم وصلحت أحوالهم.

وكان يرسل إلى إفريقية قوماً يأتونه بالأخبار لا يقطع ذلك عنه فقيل كان لا يمر يوم إلاَّ وعنده منها خبر، فجاءه الخبر بموت إبراهيم ابن أحمد، وجلس للناس ذلك اليوم واجتمع إليه المشايخ فرأوه مقارباً لم ينشرح ولا تكلم إلى وقت انصرافهم، فلما خرجوا من عنده أقبل بعضهم على بعض، قالوا: ما نراه إلاَّ وقد أتاه أمر أهمه، والواجب أن لا نصرف حتى نعلم علم ذلك، فإن كانت لنا فيه حيلة استعملناها، فوقفوا وردّوا بعضهم إليه فاستأذن عليه وذكر ذلك له، فأمر بردهم فقال: بلغني ما أنكرتموه من انقباضي، وما ذلك إلا لشيء اشتغل به صدري، فقالوا: ما هو؟ أطلعنا عليه فلعله أن يكون عندنا حيلة فيه، قال: الفاسق إبراهيم بن أحمد قد استأثر الله به فمات! فحمدوا الله وشكروه واستبشروا بذلك وقالوا: ما يغمك من هذا؟ قال: لم يغمني ذلك، ولكن هذا الفاسق ابنه لما أتاه موت إبراهيم أبيه زاد في الرياء وردَّ على الناس جميع ما كان أبوه اغتصبهم إياه وعدل فيهم وتواضع لهم وجلس في المسجد الجامع لظلاماتهم على حصير، ونصب درة بين يديه كفعل القضاة يستميل بذلك قلوب العامة إليه، قالوا: فذلك أوهن له قال: لا تقولوا ذلك، كيف لكم بمن قابلكم بحصير ودرة يستميل بذلك قلوب العامة؟ ولكن خذوا في أمركم واجتهدوا. فما زال يحذرهم ذلك ويقول لهم، حتى أتاه الخبر بقتل أبي العباس، وبأن ابنه زيادة الله قد صار إلى مكانه وأنه هو الذي عمل في قتله وارتكب المحارم وعكف على الملاهي وشرب الخمر، فبشرهم بذلك وقال: قد زال عنكم ما كنتم تتوقعون، وهذا صاحبكم وآخر من يحاربكم، وعنه يصير الأمر إليكم إن شاء الله تعالى.

ذكر رجوع المعروف
بأبي حوال بالعسكر الثاني وانصرافه مهزوماً

ولما انصر أبو حوال إلى أبيه وصف له ما كان من ظهوره أولاً وغلبته على البلد، وأن انصرافه إنما كان لأمر عرض عن غير علة، وقوّى ذلك من قوله جميعُ من كان معه من كتامة وضعّفوا من أمر أبي عبد الله عنده؛ وأطمعه ذلك فجهز جيشاً ثانياً زاد في عدده على الجيش الأول، وأكثر في عُدَّته وقوته، وأخرج مع أبي حوال ابنه، فخرج به قاصداً، وأخذ طريقه الأولى، وانضمت أيضاً إليه القبائل، وسار حتى نزل سطيف على مثل ما كان سيره في المرة الأولى من التعبئة والتحفظ، وزحف من سطيف، وانتهى خبره إلى أبي عبد الله، فزحف إليه من إيكجان بجميع من كان معه فنزل بتاسدست من بلد لهيصة، ونزل أبو حوال ببلد ملوسة.

فجرَّد أبو عبد الله عامة الخيل التي معه فقدَّمها إلى أبي حوال وأقام بتاسدست، فلما أشرفت الخيل على أبي حوال خرج من خندقه بجميع أصحابه، فاقتتل القوم قتالاً شديداً والغلبة في كلذلك على أبي حوال وأصحابه، حتى أدخلهم أصحاب أبي عبد الله خندقهم، وحال الليل بينهم فانصرفوا عنه، فباتوا، وأصبحوا إليهم من غد، فاحتصر أبو حوال في الخندق فلم يخرج إليهم، ورأى أن أصحابه قد غُلبوا، فأقاموا عليهم

يومهم إلى الليل وانصرفوا إلى أبي عبد الله فأخبروه بالخبر وقالوا له: من الرأي أن نرفع الساعة بجميع العساكر فنحيط بهم فإنهم يهربون الليلة لا محالة، فقال أبو عبد الله: ما أرى ذلك، وإن هربوا فإلى لعنة الله.

فلما جَنَّ الليلُ رفع أبو حوال ثَقَله فقدمه بين يديه، ثم أوقد المشاعل وكرَّ راجعاً إلى سطيف. وكانت خيل كثيرة قد خرجت من عسكر أبي عبد الله إذ أيقنوا هروب أبي حال، فقربوا منه، فلما ارتحل ضربوا في ساقته فقتلوا جماعة من أصحابه وغنموا كثيراً مما كان معه، وأصبح عسكر أبي عبد الله وقد غنموا جميع ما بقي في مناخ أبي حوال، وانصرفوا إلى إيكجان مع أبي عبد الله وانصرف أبو حوال بمن معه إلى سطيف.

ثم إن زيادة الله أبا مضر ابن عبد الله أبي العباس عمل - فيما يقال في قتل أبيه، وصانع على ذلك بعض الخدم، وقيل بل الخدم فعلوا ذلك ليرضوه به، وكان زيادة الله يومئذٍ محبوساً مقيّداً، وكان سبب حبسه أنّ إبراهيم بن أحمد جده كان قد نقم عليه وهو معه ببلد الروخ فساداً وزناً كان يرتكبه، فأمر به فحبس في خباء ووكل به حرساً.

وكان إبراهيم لما احتضر استخلف على الناس الذين معه ابنه أبا الأغلب ودفع إليه خاتمه، وكان أبو الأغلب رجلاً عفيفاً ليناً، فلما مات إبراهيم خاف أن يكون أخوه أبو العباس يكره مكانه، فدعا بزيادة الله فقال له: أبوك هذا هو الأمير وأنت أحق بهذا الأمر مني، ودفع إليه خاتم إبراهيم وتبرأ مما جعل إليه، وتولى زيادة الله أمر العسكر وكان محاصراً لكنسته وقد أشرف على فتحها، فانصرف زيادة الله بالجيش

عنها إلى صقلية، وأراد الخلاف على أبيه بها وفرَّق أموالاً كثيرة على وجوه العسكر ودعاهم إلى الخلاف معه، وذلك أنه علم من أبيه أنه سيعاقبه على ما كان منه، فقال له من دعاه إلى ذلك: أولادنا وأهلونا بإفريقية وإن خالفنا معك لم نأمن عليهم العقوبة، ولكن نحن معك بجماعتنا، فإذا وصلنا إلى إفريقية قمنا معكح فأزلنا أباك وولبناك. وكتب بعضهم إلى أبيه بالخبر. فلما انصرفوا بالأسطول أمر أبو العباس بخيلٍ كثيرة وقوة قوية، فكانت على البحر، فلما نزل زيادة الله قبضوا عليه وأتوه به فضربه بالعصا ضرباً وجيعاً وقيده وحبسه فلما عمل عليه أو عمل له دخل الخدم عليه الذين كانوا يدخلون إلى حرمه ليلاً وهو نائم، ويقال إنه كان قد شرب وسكر فقتلوه في داخل قصره بمدينة تونس ليلة الأربعاء ليوم بقي من شعبان سنة تسعين ومائتين، فكانت ولايته من اليوم الذي خرج أبوه إلى صقلية إلى الليلة التي قتل فيها سنة واحدة واثنين وخمسين يوماً.

ولما قتله الخدم أتوا إلى زيادة الله فأخبروه، وأتوا بحدّاد إليه ليقطع قيده، وسلموا عليه بالإمرة فأبى من ذلك وخاف أن يكون دسيساً من أبيه عليه، فمضوا وأتوه برأسه في الليل، فلما رأى ذلك أمر بقطع قيده وخرج فجلس مجلس أبيه وضمَّ أمواله، وأصبح فأظهر الوجد عليه وقتل الخدم الذين قتلوه وقبض على إخوته وعمومته فاعتقلهم، وكتب في ذلك اليوم كتاباً إلى أبي حوال على لسان أبيه يأمره بالانصراف إليه، ليقوى أمره ويزيد من الرجال إليه، وأكّد عليه في استعجال القدوم عليه، وذلك أن زيادة الله خاف مكانه، ووجه بالكتابة مع فُرانق واستحثه وكتب معه

إلى وجوه العساكر بموت أبيه وبالقبض على أبي حوال إن هو تثاقل عن القدوم، وأمر الفرانق بدفعه إليهم إن رآه قد تثاقل، فلما وصل الكتاب إلى أبي حوال وافقه وقد كره المقام، إذ علم أنه لا قوام له بأبي عبد الله ورأى غلبته عليه، فدعا في ذلك الوقت بوجوه العسكر فأقرأهم الكتاب وأمرهم بالنهوض، فسرّ الناس بذلك لانصرافهم إلى مواضعهم، فسارعوا إليه.

وانصرف، فلما وصل إلى بلزمة اتصل به أمر أبيه وأخبره بذلك حي ابن تميم وقال له: إن أحببت المقام عندنا فنحن نحميك ونمنعك، فلم يرّ ذلك، وسار فلما قرب من باغاية لقيه صالح بن الروحاني في عسكر، فقبض عليه وكبله وحمله على البريد وتولى أمر العسكر وجاء بكتاب زيادة الله في ذلك، فانصرف به، فوصلوا إلى تونس، فقتل زيادة الله أخاه أبا حوال وعمومته وأخوته في شهر رمضان سنة تسعين ومائتين، وكان ذلك من صنع الله لأوليائه وما أراده من قطع دولة الظالمين، فقتل بعضُهم بعضاً، وكان في ذلك وهن لهم وتضعيف لأمرهم.

وكان أبو العباس يعني بعلم الفتيا ويرى رأي أبي حنيفة ويذهب إليه وينتحل القول بخلق القرآن، وكان ذلك مما ينقمه عليه العامة. فلما ولي زيادة الله أراد أن يسترضيها فعزل الصدني عن القضاء، وكان ممن يذهب إلى مذهب أبي حنيفة، وولّى حماس بن مروان، وكان يذهب إلى مذهب مالك ويسمّى سنياً؛ وكتب في بنوده: نصر من الله، للأمير زيادة الله بن عبد الله القائم بسنة رسول الله، وهو على ما هو عليه من الخلاعة والسجانة والفساد وارتكاب حرم أبيه، فلم يلتفت العامة إلى ما رأته من

ذلك ولا أقبلت عليه، وفشا عنه شرب الخمر بعينها ولم يكن قبله يُعرف بإفريقية شربها، وأظهر الغناء والمعازف، وجمع إليه أهل اللهو والمتخنثين والمضحكين، وكان لا يقلع عن الشرب ولا يكاد أن يُرى إلاّ سكراناً، واتخذ ندماء يتصافعون بين يديه ويفحشون في القول عنده، ويأتون ما لا ينبغي أن يذكر فضلاً عن أن يعمل به، وكانوا يتخذون له مثانات الغنم منفوخة مربوطة ويجعلها تحت بساطه فإذا دخل عليه الجليل من رجاله فجلس تقعقعت تحته فيضحك ويضحك أصحابه في كثير من الرقاعة والعبث والمجانة والخلاعة.

وكان يأتيه ويتصل بأبي عبد الله أخباره فيه، ويحدِّث بها عنه رجاله ويقول: أبشروا فهذا صاحبكم وآخر من يحاربكم.

ثم انتقل زيادة الله من مدينة تونس إلى رقادة فنزلها، وكان جده إبراهيم بن أحمد إنما انتقل عنها لما خالف عليه أهل إفريقية وعندوا بتونس فسار إليهم فهزمهم وافتتحها وأقام بها، فرأى زيادة الله أنها منقطعة عن القيروان وخاف من أبي عبد الله أن يأتي إلى رقادة فينزل بها؛ فارتحل إليها وابتنى سورها ولم يكن عليها سور أيام إبراهيم بن أحمد وإنما كان عليها خندق وأبواب وأقام بها.



ذكر هجرة المهدي عليه السلام (من ديار المشرق) ووصوله إلى سجلماسة

ولما انتهت الإمامة إلى المهدي عليه السلام وقبض الإمام قبله الذي كان قد عهد فيها إليه وقد كان يقول له: إنك ستهاجر بعدي هجرة بعيدة وتلقى محنة شديدة، فلما قبضه الله تعالى إليه وقام المهدي بالإمامة من بعده عليه السلام اشتهر ذكره وفشا خبره ودلّت عليه آياته وتبين للناس علامته وخاف المهدي بني العباس على نفسه، وكانت له في ذلك أخبار يطول شرحها وذكرها ومحنٌ كما وعده الإمام من قبله عليه السلام بها، فخرج بنفسه وبالإمام ابنه القائم من بعده معه، وهو يومئذٍ غلام حدث السن والمهدي شاب عندما كمل، حتى انتهى إلى مصر وأمل أن يقصد اليمن، وكان قد تقدم بعض دعاته فقصد اليمن قبله وفسد أمره وأتى إلى أبي القاسم صاحب دعوة اليمن فأراد أن يستزلّه فوجده ثابتاً على أمره، فانصرف عنه إلى عليبن الفضل صاحبه، - وكان في ناحية من اليمن - فاستماله وأفسده، فكان يقال في ذلك الوقت: أتى إلى عراقي يطلب أن يسخر منه فلم يمكنه ذلك فأتى اليماني فسخر منه، فانسلخ علي بن الفضل من أمر الله وأمر أوليائه واستحلّ المحارم ورفض الظاهر ودعا الناس إلى الإباحات، فلما اشتهر بذلك تبرأ منه ذلك الذي أفسده، فكان كما قال

عز وجل من شأن إبليس اللعين: ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] فحارب أبا القاسم فكانت له أمور يطول ذكرها، ومات على ذلك من غيه وضلاله، نعوذ بالله من الخذلان والضلالة والخسران.

واتصل ما كان من ذلك بالإمام فكره دخول اليمن على هذه الحال وأقام بمصر مستتراً في زي التجار، فأتت الكتب من بغداد إلى صاحب مصر بصفته والأمر بطلبه والقبض عليه، وإلى العامل بها، وكان بعض أهل خاصة ذلك العامل مؤمناً ولياً فأسرع إلى المهدي بالخبر وأمره بالتستر وتلطف في أمره إلى أن خرج من مصر ومعه ابنه القائم عليه السلام وبعض عبيده، ومعه أموال في الأحمال كثيرة، فابتاع بها بضاعة وجعل الأموال معها في الأحمال، وسار في رفقة في زيّ التجار حتى انتهى إلى ناحية الطاحونة، فخرج على الرفقة اللصوص فسلبوا كثيراً من أهلها وذهب بعض ما كان للمهدي عليه السلام فيها، وكان أعظم ما ذهب له كتب كانت فيها علوم من علوم الأئمة عليهم السلام، فلما خرج القائم بأمر الله تعالى إلى مصر في الغزاة الأولى التي غزاها أخذ الذين قطعوا على الرفقة بردّ ما انتهبوا واسترجع الكتب بعينها، وكان المهدي يقول: «لو لم يكن هذه الغزاة إلا لردّ هذه الكتب لكان ذلك فتحاً عظيماً»، وسرّ باسترجاعها سروراً عجيباً.

وخرج يوم ذلك السلب مع المهدي أبو العباس محمد بن أحمد ابن زكريا أخو أبي عبد الله، وكان في من قدم مع المهدي عليه السلام، فلما انتهى إلى مدينة طرابلس فرّق من كان معه عنه وأرى الناس أنهم كانوا أصحاباً وتجاراً.

وقدم أبو العباس إلى القيروان ببعض ما كان معه، وأمره أن يلحق به إلى كتامة، وكان قصده إليها ومعه بعض الكتاميين الذين كانوا ينفذون إليه فلما وصل أبو العباس إلى القيروان أصاب الكتب قد سبقت إلى زيادة الله بطلب المهدي وصفته لمّا أفلتهم من مصر، فأمر زيادة الله بالسؤال عنه فأخبر بعض من كان في الرفقة معه أنه تخلف بطرابلس، وذكروا أن أبا العباس من أصحابه، فأخذ وقُرِّر فأنكر وقال: إنما أنا رجل تاجر، فحبس؛ واتصل الخبر بالمهدي وهو بطرابلس، فصادفه رفقة خارجة إلى قسطيلية، فخرج فيها. وأتى كتاب زيادة الله إلى عامل طرابلس بطلبه وصفته، وقد كان استعطفه وأهدى إليه فكتب بأمخ قد خرج من عمله ونفذ إلى ناحية قسطيلية. ووصل المهدي إلى قسطيلية فوافى بها عيداً، وكانت في الرفقة التي هو فيها بها رجال من بلدان المغرب والزاب وسجلماسة، وكان قصده إلى أبي عبد الله، فلما انتهى إليه أن أخا أبي عبد الله قد اعتقل وأنه علم أنه من أصحابه خاف إن قصد إلى أبي عبد الله أن يتحقق ذلك عليه فيقتل، فترك القصد إلى أبي عبد الله، وقصد إلى سجلماسة.

ولما شهد عليه السلام صلاة العيد بقسطيلية دعا بعض عبيده فقال له: ويحك إن نفسي والله حدثتني أنني مطلوب فاذهب إلى مقدم الرفقة فأقرئه سلامي وقل له: قد قضينا صلاة عيدنا ونحن مسافرون وما قطعنا من طريقنا فهو خير، فإن رأيت أن ترحل بنا الساعة فافعل، وكان إليه محسناً يصله ويعطيه، فلما جاء رسول إليه قال: والله إن هذا لشيء يشتد على الناس ولكني ما أرى مراجعة أبي محمد فيما سأله. فضرب الطبل

ورحل، ورحل الناس، فلما كان من غد وافى البريد من قبل زيادة الله إلى والي قسطيلية بطلبه، فأصابه قد خرج من عمله، وحماه الله تعالى منهم وصرف عنه بأسهم لما أراده عز وجل من تمام أمره وبلوغ الكتاب إلى أجله.

فسار حتى وصل إلى سجلماسة، فأقام بها، وكل ذلك تلحظه العيون في طريقه، وحيثما نزل وفي أي مدينة دخل، ويقول كل من رآه ممن له تميز وبصيرة: والله ما هذا تاجر وما هذا إلا سلطان أو ملك من الملوك، وكذلك كان يقول فيه كثير ممن يراه من أهل سجلماسة، وكان مما يدل عليه إفضاله على من يصحبه أو يأتيه وما أنزل الله عليه من المهابة والجلالة في عين من رآه.

وكان صاحب سجلماسة يومئذٍ أليسع بن مدرار، وكان المهدي يصله ويهدي إليه ويواصله فكان لذلك يوجب حقه وتعظيمه إلى أن أتاه كتاب زيادة الله لما اتصل به مصيره إليه يخبره أنه هو الذي يدعو أبو عبد الله إليه، فغير ذلك منه عليه، وسنذكر خبره إذا صرنا إليه إن شاء الله تعالى.



ذكر افتتاح مدينة سطيف

وكان صاحب أمر مدينة سطيف علي بن حفص، ويعرف بان عسلوجة - نسب إلى أمه - وكان من الأبطال المعدودين، ولم يكن له بالناحية كلها نظير في النجدة والذكر، وأخوه أبو حبيب مثله أو قريب منه، وكان في من قام وقعد في أمر أبي عبد الله وأدار الحيلة في أخذه، وزحف مع أبي حوال مرتين إليه، وقد ذكرنا خبره؛ ولم يُبْقِ شيئاً قد عليه إلاَّ استفرغ جهده فيه.

فلما أخذ أبو عبد الله مدينة ميلة واستقام له أمر من بنواحيها من كتامة جمع جموعه وزحف إلى سطيف، فنزل عليها بالعساكر؛ وكان علي بن عسلوجة يواصل كثيراً من رجال كتامة ممن يقرب إليه، فسار إليه جماعة من وجوههم وحماتهم، فقاتل أبا عبد الله وكان يخرج بهم وبأهل سطيف إليه فيقاتله ويكون منه من البلاء في ذلك ما لم يشاهد من أحد غيره مثله: قيل إنه قتل في يوم واحد ثلاثة عشر فارساً في القتال لا يزيد الواحد منهم على ضربة واحدة، فقال أبو عبد الله لما شاهد ذلك منه: هذا الملعون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٣٠] .

وأقام أبو عبد الله على سطيف أربعين يوماً وهو يقاتله كذلك خارجاً

منها. ثم انصرف أبو عبد الله لى إيكجان فأقام بها شهراً وجمع الأولياء وأوعب في جمعهم وزحف إلى سطيف في عساكر لا يحصى عددها حتى أحاط بها، وخرج إليه علي بن عسلوجة بجمعه فقاتله كما كان يقاتله في المرة الأولى خارجاً من المدينة، إلى أن غلب عليه واحتصر في الحصن فمات هو وأخوه أبو حبيب جميعاً في أيام قليلة، فلما ماتا انحلَّ أمر سطيف.

وكان في من نزع إليها من الكتاميين داود بن حياسة اللهيصي، وكان من فرسان لهيصة وخيارهم ووجوههم، وكان جميلاً عفيفاً ذهناً، فآل أمره بعد ذلك إلى أن كان داعياً من الدعاة، فرمَّ أمر سطيف وكلمه أخوته وهم مع أبي عبد الله في أن يستأمن فقال: إن كنت استأمن على أمان أهل البلد كلهم فعلت، فأخبر بذلك أبو عبد الله فآمنه ونزل إليه، فأخذ الأمان لأهل سطيف منه خلا من استحق القتل عنده، وانصرف إليهم ففتحوا أبوابها ودخل الأولياء إليها، وقُتل من استحق القتل بها وهُدم سورها، وكان أهل علي بن عسلوجة قد دفنوه وأخاه لما ماتا وأخفوا مكانهما، ولو ظُهر عليهما لنُبشا وصلبا لما كان في أنفس الأولياء منهما وما صنعا فيهم.

وانصرف أبو عبد الله إلى إيكجان بجميع العساكر واستعمل عاملاً على مدينة سطيف.



ذكر إخراج زيادة الله إبراهيم بن حبشي لحرب أبي عبد الله إلى بلد كتامة وانهزامه

ولما اتصل بزيادة الله أخبار أبي عبد الله وظهوره على كتامة واجتماع أمرهم له وافتتاحه مدينتي ميلة وسطيف، ونزع إليه من كتامة جماعة ممن خاف على نفسه وممن قُتل وليه فحركوه في ذلك وخوّفوه أنه إن لم يعاجل أبا عبد الله زاد أمره وجلّ، فأخذ في الحشود وأوسع في العطاء فاجتمعت له عساكر عظيمة، فقدم عليها إبراهيم بن حبشي، وكان من أهل بيته إلاّ أنه لم يكن من أهل الحرب ولا ممن كان له نكاية وكان الغالب عليه اللين، فأخرج معه العسكر وحصله فبلغ أربعين ألفاً بين فارس وراجل. ولم يكن خرج لبني الأغلب مذ دخلوا إفريقية عسكر أكثر منه عدداً ولا قوة، وأخرج معه أحمالاً كثيرة من الأموال والخلع والسلاح، ولم يدع أحداً من حماة رجاله ولا ممن نزع إليه من كتامة وأهل الزاب إلا أخرجه في ذلك العسكر، وأمر ابن حبشي بأن يبذل العطاء لمن يمرّ به من القبائل، ويستميل وجوههم بالحملان والخلع.

ودبّر أهل المواضع له بأن يأتي كتامة من غير الموضع الذي أتى منه أبو حوال، فقصد إلى قسطنطينة - وهي مدينة أولية في جبل وعر في طرف من بلد كتامة - فنزل فيها، فأتاه من كتامة من يليها، وحارب من

قُرْب منها ممن عند عليه فقتلهم، وتعاظم كتامة أمرهم وكثرتهم وما معهم من العدة. وفي ما بين هذا الموضع الذي نزلوا فيه وبين إيكجان - الموضع الذي به أبو عبد الله - أقل من مرحلتين، إلا أنه في طرف من كتامة، فتركه أبو عبد الله ولم يتقدَّم إليه، فأقام ابن حبشي بقسطنطينة ستة أشهر.

وكان بطبنة شيب بن أبي الشداد مقيماً في عسكره فأمره زيادة الله بالمصير إلى ابن حبشي، فأتاه بعسكره، فيقال إنه اجتمع له بقسطنطينة نحو المائة ألف بين فارس وراجل، فلما رأى إحجام أبي عبد الله زحف إليه بالعساكر التي معه كلها حتى انتهى إلى كبونة من بلد أجانة، فأخرج أبو عبد الله خيلاً انتقاها واختارها ليختبر نزول ابن حبشي أين ينزل ويقصد فوافته بكبونة، فلما تراءت له الخيل قصد إليها بنفسه فعل جاهل بالحرب ولم ينزل ولا نزل أحد من أصحابه، والأثقال على الدواب والجمال، فنشب القتال وكان القوم الذين لقوه من خيار فرسان كتامة، فقامت الحرب فيما بينهم فاقتتلوا قتالاً شديداً، وأصحاب ابن حبشي لم ينزلوا ولا لهم معسكر؛ واتصل أمر القتال بأبي عبد الله فزحف بالعساكر إليهم فوقعت الهزيمة على ابن حبشي وأصحابه وعُقر برذونه وجرح فلم ينجه إلا جواده؛ واستوت الهزيمة وأسلموا جميع الأثقال والأموال وأخذوا طريق باغاية، وطلبهم الأولياء يومهم ذلك أجمع ومن غد يقتلون فيهم ويغنمون أموالهم، وقتل منهم ما لا يحصيه إلا الله تعالى وحده وغنم من أموالهم ما لا يحصى عدداً من أحمال الأموال والخلع والسلاح والكراع سائرُ الناس.

ووصل ابن حبشي بمن نجا معه إلى باغاية وكتب إلى زيادة الله كتاباً بخطه يقول فيه: «كتبت إلى الأمير - أطال الله بقاءه - من مدينة باغاية وقد انهزم العسكر المنصور فلم ينج منه إلا شرذمة يسيرة، وذهب كل ما كان معه من الأموال والسلاح وغير ذلك، وقتل أكثر أهل العسكر المنصور»، وجعل يخبر في كتابه بما كان من أمره، فإذا ذكر العسكر قال: العسكر المنصور، فكان ذلك مما رأى من ضعفه وسخفه، ثم لم ينتظر جواب زيادة الله أن يأتيه فانصرف إلى إفريقية في بقية من بقي معه من أهلها ورجع كل من كان سلم إلى موضعه وانصف شيب بمن بقي معه إلى طبنة، فاضطربت إفريقية واستهال أهلها أمر أبي عبد الله، وأخبرهم من وصل من الفلّ بما عاينوه ونالهم.

وكتب أبو عبد الله سجلماسة إلى المهدي عليه السلام بما وهبه الله من ذلك الفتح وما غنمه من الأموال والغنائم وأرسل إليه ببعض ذلك مع رجال من قبله من كتامة، وكان أول فتح قدم على المهدي وكان ببركته وبركة أيام هجرته، فسرَّه ذلك وحمد الله عليه.



ذكر افتتاح مدينة طبنة

ثم إن أبا عبد الله نادى في الناس فاجتمعوا إليه - وكذلك كان حشده إنما هو بالنداء - فزحف بجمع عظيم إلى مدينة طبنة، وقد كان قبل ذلك طرقها بعسكر بعد عسكر، فانتهى إليها بجميع العساكر فأحاط بها من كل جهة، ونظر من بها إلى أمر لا قوامَ لهم به ولا طاقة بالخروج إليه فاحتصروا؛ وكان العامل عليها يومئذٍ حسن بن أحمد بن نافذ المعروف بأبي المقارع، وبها شيب بن أبي الشداد المعروف بشيب الصغير على أعنة العسكر الذي كان بها، وفتح بن يحيى على عسكر جمعه من أهل بيته ومن قبائل جميع البربر، وقد كان جُرِحَ بجائفة فأوهنته، وبها على الخبر محمد بن قرهب، وعلى العطاء يحيى بن القسرلي فاحتصروا في المدينة وعلّوا السور يقاتلون عنها، فزحف إليهم الأولياى من كل جانب وقدموا إليهم دبابة، فنقبوا برجاً من أبرجة السور فسقط، وحمل الأولياء عليه فهرب جميع العسكر والمقاتلة والمقدمين، فدخلوا حصناً أولياً مبنياً بالحجارة منيعاً في داخل المدينة، واحتوى الأولياء على المدينة، وعامتها تجار، فأمنهم أبو عبد الله ولم يصل إليهم إلا ما شُغلت فيه العسكر.

واحتصر الذين صاروا إلى الحصن فيه وعلوه ونصبوا القتل عليه،

وأمر أبو المقارع بمنجنيق كان فيه أن يرفع عنيه، فلما رفع وأرادوا أن يرموا به انكسر سهمه، فنظروا إلى ما يصلحونه به فلم يجدوه، فسلخوا جلد مئة دابة ماتت لهم وقدّوا منه قداً وربطوا به السهم، ثم ذهبوا ليرموا به فانكسرت خنزيرته فقال أبو المقارع: دعوه فهذا أمر الله الذي لا يدفع، فقال له شيب صاحب العسكر: ما الحيلة يا أبا القاسم؟ قال له أبو المقارع: ما ترى أنت؟ قال: أرى أن نحتال في الهرب في الليل فقد هرب من ميلة جماعة فنجوا، قال: ويحك ليس نحن مما كان أهل ميلة فيه بسبيل، نحن في وسط مدينة قد أخذ العدو علينا وأحاطوا بها من حولها وأقرب العمارة إلينا باغاية، وبيننا وبينها ثلاثة أيام فإن نجونا من المدينة لم ننج مما حولها، وإن نجونا وطُلبنا لُحقنا، واليأس من النجاة من هذا كله أقرب، قال: فنستسلم إليهم ولا نقالتهم فإن القتال مما يغريهم بنا ويُحميهم علينا أو نطرح أنفسنا إليهم فلعلهم أن يبقونا، قال أبو المقارع: هذا استعجال الموت، قال له شيب: فما الحيلة عندك؟ قال: نسألهم الأمان ونحن على ما يرون من المدافعة فلعلهم يرون الأمان أصلح لهم من المحاصرة، قال: فافعل، فنادى أبو المقارع بالأمان، وكان أبو زاكي بإزائه فقال له: لكم الأمان، قال له أبو المقارع: ومن أنت؟ قال: أنا أبو زاكي، قال: فهذا الأمان عنك أو عن السيد؟ قال: عني، قال: ما كنّا بالذين نلقي بأيدينا ألا أن يؤمننا السيد، قال له أبو زاكي: فإن لم يفعل فما تصنعون؟ قال: يكون كما قال الشاعر:

فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت أخمصك الحشر

قال: هكذا؟ قال: نعم، وما راحتنا في استعجال الموت؟ بل ميتة كريمة بعد بذل المجهود أفضل، فانصرف أبو زاكي إلى أبي عبد الله فأخبره بالخبر، فقال له: أعطهم الأمان؛ فانصرف أبو زاكي فأخبره بذلك فنزل ومن معه وقد تهيأ ولبس، فأتى أبا عبد الله وهو في الفازة، فسلَّم عليه وهنأه بالفتح، فقال له أبو عبد الله: ما حملك على طول هذا العناد والإصرار؟ قال له أبو المقارع: إن ذلك - أطال الله بقاءك - ما نفعنا ولا ضرَّك، وخلّفْنا أهلاً وولداً وخشينا إن ألْقَينا بأيديهم علينا أن ينال منهم، وقد آمننا هذا عنك، قال: نعم، فشكر له ودعا؛ وأعجب أبا عبد الله بما رأى من بيانه وجزالة منطقه وأمر أبا زاكي بحفظه وحفظ أصحابه، وقَتَل فتح بن يحيى وجماعة ممن كان معه من العسكر.

واستعمل أبو عبد الله يحيى بن سلمان على طبنة وانصرف بالعساكر إلى إيكجان، ومضى معه بأبي المقارع وأصحابه وأنزلهم بايكجان؛ وحسنت منزلة أبي المقارع عنده، وكان يخصه ويدنيه ويجله، وخيّره في المقام عنده أو الإنصراف فقال: ما كنت بالذي أنصرف عنك ولا أدخل إفريقية إلاَّ بدخولك، وكيف اختار المسير إلى قوم قد أدبرت عنهم الدنيا وأدعك وهي مقبلة عليك؟ فأعجب ذلك أبا عبد الله منه، فأقامه عنده بايكجان إلى أن فتح أبو عبد الله إفريقية، فأرسل في طلبه فقدم عليه.



ذكر افتتاح بلزمة

وكان أبو عبد الله قد خرج إلى بلزمة وأخرج إليها عساكره مرة بعد أخرى، كل ذلك يقاتلونه ويدفعونه، وكان يخرج إليهم العساكر في أوان زراعتهم فتأتي عليها، فعل ذلك بهم ثلاث سنين حتى انقطع الطعام من أيديهم، ثم زحف إليهم فحاصرهم، ومات حي بن تميم محصوراً، وأبلس أهل بلزمة؛ وكان فيهم رجل من أهل مجّانة يعرف بأبي عبد الله له لسان، وكان يحملهم على العناد والإصرار ويصنع لهم المجانيق والعرادات وآلات الحروب، فلما طال عليهم ذلك نزل إلى أبي عبد الله فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فجعل يحتج عليه، فأمر أبو عبد الله بقتله فقتل، وهذه سبيل المعاند المحتج في الحرب والسيرة فيه، فلو لم يجب قتال المشركين، وأهل البغي حتى يحتج عليهم وتقوم الحجة للمحتج لم يكن قتال أبداً، ولم يكن أيضاً يجب أن يقاتلوا ويقتلوا حتى يحتج عليهم واحداً واحداً، ولكن السيرة أن يُدعوا ويناشدوا إن لم تكن الدعوة بلغتهم، فإن أجابوا وإلاّ قوتلوا.

وقاتل أهل بلزمة قتالاً شديداً ودافعوا مدافعة عظيمة ونصب أبو عبد الله عليهم الدبابات والأبرجة فأحرقوها ولم يصل إليهم إلا من شدة الجهد وغلبة الجوع عليهم، فإنه أقام عليهم حتى نفد ما كان بأيديهم

وأكلوا كل ما عندهم من الحيوان ثم أكلوا جلودها، ثم لما نفد ذلك كله عادوا إلى درقهم فكانوا يقطعونها ويبلونها ويطبخونها ويأكلونها إلى أن غلب عليهم الجوع فاستأسروا. وافتتحها أبو عبد الله عنوة فقتل من بقي بها من المقاتلة ولم يعرض لامرأة حرة وغنم العسكر ما وجدوا بها من الأثاث والأمتعة وغير ذلك، وأمر أبو عبد الله بهدم سورها فهدم، وانصرف إلى إيكجان.

واتصلت بزيادة الله الأخبار بأخذ أبي عبد الله طبنة وبلزمة فعظم ذلك عليه وأخذ من حشد الناس وبذل الأموال، فاجتمع له عسكر حصّله عند العطاء فبلغ إثني عشر ألفاً بين فارس وراجل، فأوسع عليهم العطاء وحمل وكسا وجوههم وقوادهم وأمّر عليهم هارون بين الطبني، وكان أخوه زيادة الله عامله على باغاية، فأنفذه إليه وأمره بضبطها، فوصل إليها وأقام بها، وبعث معه زيادة الله بأحمال الأموال والخلع، وأمره بالعطاء لمن أتاه من القبائل، فتسامع الناس به فأتوه فأعطاهم وأجزل لهم العطاء، فاجتمعت له بباغاية عساكر كثيرة.

واتصل به أن أهل دار ملول قد دخلوا في طاعة أبي عبد الله فخرج إليهم بجميع من كان معه فقتلهم وهدم حصنهم وانصرف، فلما صار بفحص الرماح أشرف غزوية من جبل بلزمة، وكان أبو عبد الله قد بعثه في ألف فارس إلى ناحية بلزمة لما اتصلت به أخبار هارون بباغاية، ولم يكن عند غزوية وأصحابه علمٌ من خروج هارون إلى دار ملول، فلما رأوا العساكر في فحص الرماح وقفوا وصفوا على الخيل، ونظر إليهم هارون وأصحابه، فوقعت فيهم نفرة وتصايحوا: الجبل الجبل - يعنون

أوراس نجعله خلف ظهورنا، فإن كان علينا أمر تحصنا به وإن كان لنا اتبعنا العدو بطول الفحص؛ فما هو إلا أن عطفوا يريدون الجبل إذ صاح فيهم صائح: البلد البلد، فقصد كل قوم إلى جهة بلدهم، ونظر عزوية وأصحابه إلى الغبرة قد قامت، والعسكر قد افترق، فنشروا عليهم وهم خيل جريدة فيما يحصى ما قُتل منهم، وقتل هارون صاحب العسكر وغنموا جميع ما كان معه، وانصرفوا إلى أبي عبد الله بفتح لم يرَ مثله، ومن الغنائم والأموال ما لا يحصى عدده، ولم يصل إلى باغاية من أهل إفريقية إلاَّ أقلهم، وقتل أكثرهم، ولحق من كان من أهل القبائل بقبائلهم، وكتب زيادة الله عامل باغاية إلى زيادة الله بذلك وبقتل أخيه، فجاءه من ذلك غم عظيم.



ذكر افتتاح مدينة تيجس

وكان قد صار إلى أبي عبد الله جماعة من هوارة ورأس الفحصين من بني معاد، وكان فيهم تشيع قديم، كان منهم إسماعيل بن نصر المعادي ولحق بالحلواني وأخذ عن أصحابه وأتى إلى أبي عبد الله ودعا هو وجماعة من أهل بيته، وجاء من أهل تلك الناحية جماعة إلى أبي عبد الله، وكان فيهم حمزة الملزي وكان فارساً جلداً جسوراً، فاجتمع مع قوم من أصحابه فأداروا بينهم رأياً أن يخرجوا في جريدة خيل يغيرون على نواحي بلدهم حيث يعرفون، واستأذن حمزة في ذلك أبا عبد الله فأذن له، فأحجم عنه أصحابه وبدا لهم ما عقدوا عليه معه وخافوا، فمضى حمزة وحده مع غلام له متسللين، فوافيا بفج العرعار رفقة قدمت من القيروان إلى باغاية وفيها فرانق معه كتب من زيادة الله ليلاً، فهجما فيها وقتلا جماعة من أهلها وأخذا ما أصابا مع من قتلاه من المال وما قدرا عليه من المتاع، وقُتل الفرانق في من قتلا وأخذا كتبه، وقدما على أبي عبد الله فسرَّه ذلك، وكان سروره بالكتب وعلم ما فيها أكثر، فلما نظر إلى ذلك أصحابه الذين كانوا تخلفوا عنه تسارعوا في ذلك، فكانوا يضربون على نواحي باغاية إلى تيجس.

وكان لزيادة الله بتيجس رابطة خمسمائة فارس مع عبد من عبيده يقال له «يحفور»، وكان ابن ركاب رئيسها قد سأل ذلك فأعطيه، فلما رأى ورأى أهل تيجس أن الغارات صارت تجاوز بلدهم وتضرب في

نواحيهم وأن المدائن كلها التي تليها قد افتتحت خافا على نفوسهم، فكاتب ابن ركاب أبا عبد الله وسأله إخراج عسكر إليه ليجد السبيل به من أجل الرابطة التي عندهم، فأنفذ إليه أبو عبد الله عسكراً قدّم عليه مكنداس الجيملي، فنزل عليهم فلم تجسر خيل الرابطة أن تخرج إليهم واحصنوا في الحصن وهو منيع ولم يمكن ابن ركاب فيهم شيء، فأقام مكنداس أياماً وانصرف. ثم أرسل أبو عبد الله عسكراً ثانياً، وقدم عليه يوسف بن سكلة الغشمي فنزل على تيجس فحاصرها فصالحه أهلها على أن يدع العرض للرابطة التي عندهم وقالوا: هم أضيافنا ولا يمكننا أن نخيس بهم، فأجابهم يوسف على ذلك، وخرجت خيل الرابطة بجميع ما لها فنفذت إلى زيادة الله، ولم يتعرض لأحد منهم في قليل ولا كثير، ودخل الأولياء تيجس صلحاً فلم يعرضوا لأحد من أهلها بمكروه وانصرفوا، ومضى إلى أبي عبد الله ابنُ ركاب وجماعةٌ من وجوهها فدخلوا الدعوة وانصرفوا إلى بلدهم.

ووصلت خيل الرابطة إلى زيادة الله وأخبروا بما كان من خبرهم وبما وفى لهم من الأمان، وشاع ذلك في أهل إفريقية وقد كان تشنع عندهم على أبي عبد الله وأصحابه الغدر والقتل وأنهم يؤمنون الناس ثم يقتلونهم ويعطونهم العهود ثم يفرونهم ولا يفون، فأكْذَبَ ما كان من فعلهم في الرابطة الذين كانوا بتيجس ما شُنِّعَ من ذلك عليهم، وأخبروا بذلك من أذاعه فكانت من ذلك عن أبي عبد الله وأصحابه عند العامة بإفريقية أخبار صالحة وسكنت أنفسهم إليهم ومالت نحوهم قلوبهم بعد أن كانت القلوب منهم نافرة لما كانوا يصفون عنهم، واضطربت إفريقية وكثر خوض الناس بها، وتوقعوا قدوم أبي عبد الله إليهم.

ذكر كتاب زيادة الله إلى البلدة بتسكينها وتهدئة ما اتصل به أنه استفاض من الرعب فيها

ولما اتصلت الأخبار بزيادة الله عن البلدان بنواحي إفريقية وما خامر أهلها من الخوف ووقع فيهم من الإرجاف، وخاف أن ينفتق عليه من ذلك فتق، أمر بكتاب فكتب نسخاً وبعث إلى كل ناحية من نواحي إفريقية بنسخة منها وأمر أن يقرأ على المنابر ليهدئ به الناس. وكان نسخته هكذا:

بسم الله الرحمن الرحم، من الأمير زيادة الله بن عبد الله، الناصر لدين الله، القائم بسنّة رسول الله ﷺ، المجاهد لأعداء الله، إلى جماعة المسلمين بمدينة كذا وبواديها: سلام عليكم؛ فإن الأمير يحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو، ويسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله ﷺ. أما بعد، فإن الله تبارك وتعالى اسمه وعز جلاله إله قد تكفل بالفتح والإعزاز لأهل دينة والذابّين عن سنّة رسوله على من ناوأهم والتمكين ممن انتصب لهم وعاداهم ممن شاقه ونصب له وبدل دينه وغيّر سنن أنبيائه؛ وقد انتهى إليكم معش المسلمين عن هذا الكافر الصنعاني المبدّل لدين الله، المحرّف لكتابه، المستحلّ دماء المسلمين بغير حقها، المبيح للفروج بخلاف حلها، مرتكباً للمحارم فيها، الآكل

أموالهم، مستلباً لها، ما قد عرفتموه فيما انتهى إليكم عنه، فإنه أوى إلى كتامة برابر اغتام، وجهّال طغام، فاستزلهم واستهواهم واستغواهم، فدعاهم إلى تبديل دين الله فأجابوه، وتحريف سن رسول الله ﷺ فأطاعوه، لجهلهم بالدين والسنة، وما أراده الله عز وجل بهم من الشقوة والمحنة، ولأنهم بمنزلة الحمر النافرة والأنعام السائمة، فما زَخْرَف لهم قبلوه، وما زَيّن لهم اتّبعوه، وكل من كانت له منهم مسكة، أو علم شيئاً من الكتاب والسنّة، لم يجد غير الهرب إلينا منه بدينة، والمقام على حربه، منتجزاً وعد الله في هلاكه وقطع شأفته، كعادته في أمثاله. ومن أيسر ما ظهر من كفره، وانتشر من قبيح انتحاله وأمره، وفشا عنه وعرف وأطبق عليه من اتبعه، إظهارُ لعنة أبي بكر وعمر صاحبي رسول الله ﷺ وصهريه وخليفتيه وضجيعيه، وعثمان ذي النورين زوج ابنتيه، وطلحة والزبير حوارييه، وجماعة من أخيار صحابته رحمة الله عليهم، ويزعم أن علياً رحمة الله عليه كان يرى ذلك فيهم، ويذهب إليه من أمرهم، وقد برّأه الله من ذلك بحسن الصحابة لهم، وجميل العشرة أيام حياته وحياتهم، واتفاقه معهم على ما أرضى الله عنهم، ثم زعم الفاسق أن من لم يدن بذلك ويره ويقله ويعتقده ويتبرأ من أصحاب رسول الله ﷺ السابقين فهو خارج من جملة المسلمين، حلالٌ دمه وماله وسبي ذراريه. ثم شرع شريعة غير شريعة الإسلام، واستنّ سنّة غير سنّة محمد ﷺ كتمها وأسرّ أمرها وأخذ العهود والمواثيق على من أطلعه عليها في كتمانها وترك التفوّه بها وما يدل عليها لئلا تظهر إلى المسلمين فيستحلوا دماءهم عليها. وافترض لله على كل امرئ دخل في أمرهم

ديناراً مسَّاه دماءهم عليها. وافترض لله على كل امرئ دخل في أمره ديناراً سمَّاه «دينار الهجرة ودرهماً زعم أنه درهم الفطرة، وجعل لنفسه حقاً واجباً في أموال الأمة، وهدم المساجد وقطع الصلاة واستخف بحرمة الدين وبان من جماعة المسلمين. وقد رأى الأمير زيادة الله بن عبد الله - رغبة في ثواب الله ربه - جهاد هذا الفاسق بنفسه، والقصد إليه بحماة رجاله وأنصار دولته، وانتهاز الفرصة فيه قبل أن يسبق إليه؛ فقد انتهى إلى الأمير أن أمير المؤمنين المكتفي بالله، أطال الله بقاءه، لما انتهى إليه خبره أمر بإخراج العساكر إليه من قبَله مادةً للأمير زيادة الله بن عبد الله وتقويةً له، والأمير يرجو أن يظفرَه الله بالفاسق من دون ذلك ويجعل له سبباً للظفر به وفخره وثوابه، ويجعل ذلك ما سره ويجمع ذكره مع فخره لأمير المؤمنين بحسن نيته، والأمير زيادة الله بن عبد الله سهم من سهامه، وشهاب من شبهه، وما أظهره الله عز وجل عليه وأظفره به فهو منسوب إلى أمير المؤمنين وسبب من أسبابه. وقد انتهى إلى الأمير ما انتشر قبلكم وفشا فيكم من الأشانيع من أقوال المرجفين وزخارف المشنّعين وتهويل المهوّلين أمرَ اللعين الفاسق لمَّا بلغهم انصراف الجيوش عنه وتغلبه على ما ذنا وقرب منه، وزاد في ذلك المرجف والمهول، وشنع به الكذوب المبطل، ولم يكن أكثر ما قالوه ولا بعض ما أرجفوا به وهوَّلوه. ولا بد في الحروب من الكرات والإقدام، والهزائهم والإحجام، فقد قيل: الحرب سجال، مرة لك ومرة عليك، وقد انهزم أصحاب رسول الله ﷺ في غير مشهد، وأحجموا في غير موقف، ثم كان العاقبة للمؤمنين كما وعده الله عز وجل في كتابه

المبين. فليحسن بالله ظنكم، ويطمئن بما وعدكم قلوبكم، وليظهر من قلة اكتراثكم بأمر هذا الفاسق ما يكون دليلاً على ثقتكم بربكم، وانفروا إليه خفافاً وثقالاً كما أمركم الله، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم كما افترض الله عليكم، وادفعوا عن إباحة مهجكم وانتهاك حريمكم، وأن لا تُفتنوا في دينكم، وكافحوا عنه من بدّله، وتبرّأوا ممن أحدث فيه وغيّره، وفّقكم الله لما يحبه وما يرضاه ويزدلف به إليه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقرئت هذه النسخة على منبر القيروان وقرئت في سائر البلدان، فما زاد الناس ذلك إلاّ خوفاً وإرجافاً وتهاوناً بأمره واستخفافاً، وجعلوا يذكرون أحواله ويعددون أفعاله وسفكه دم أبيه وإخوته وعمومته وارتكابه المحارم وشربه الخمور واشتغاله باللهو والمعازف، ويذكرون ويتفاوضون فيما ينتهي إليهم ويتصل بهم عن أبي عبد الله وأصحابه من الورع والدين والعفاف والأمانة والصيانة وإقبالهم على الصلاة والصيام وانتهائهم عن المحارم وتحرّجهم من المآثم، فعاد ما شنّعه عن أبي عبد الله وأصحابه منسوباً إليه، وما عدده عليهم معدداً عليه. واتصل ذلك به وأن الناس قد علموا أن ذلك تمويه منه ومخرقة أراد بها قطع ما قيل فيه، فعظم ذلك عليه واستعمل رسولاً أظهر أنَّه جاء إليه من بغداد بخلع وأعلام وبسيوف وبدروع وبكتاب كتبه نسخاً وفرقها فقرئت أيضاً على المنابر. وكانت نسخة الكتاب هكذا:

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أبي محمد الإمام المكتفي بالله أمير المؤمنين إلى أهل إفريقية من المسلمين: سلام عليكم؛ فإن أمير

المؤمنين يحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله ﷺ؛ أما بعد، فإن الله جعل الإسلام محجة هادية إلى مرضاته، وجُنة واقية عن سَخَطه وغضبه، وعصمة لمن لجأ إليه، ووسيلة إلى النجاة لديه، وجعل المسلمين إخوة ألَّف بين قلوبهم، وأوجب الترافد والتعاون عليهم، وجعل من فارق جماعتهم، وخرج عن جملتهم، ومرق عن ملتهم، واختار غير دينهم، منقطع العصمة، بريئاً من الذمة، مبدلاً بالكفر النعمة، وألزمهم أن يكونوا يداً على من سواهم، وأعداء لمن عاداهم، وإلباً على من بغاهم، وحرباً لمن ناوأهم، وسلماً لمن والاهم، يجتمع على ذلك ألسنتهم وأهواؤهم، ويتفق فيه أيديهم وآراؤهم، حتى يكون عدو الله عدوهم المقصود بكيدهم، المقهور بأيديهم، المكبوب بتظاهرهم، المغلوب بتوازرهم، ولا يجدوا وليجة بينهم، ولا سبيلاً إلى المخالفة بين قلبوهم، فمن فعل ذلك فقد سلك الطريقة المثلى، وتمسك بالعروة الوثقى، واستحق خير الآخرة والأولى، وجرى مع طاعة الله عز وجل وأمره، ومن جانبه مخالفاً له، حائداً عنه، ناكباً عن سبيله، أوتغ دينه، وخان أمانته، وختر عهده، وباء بغضب من ربه، وكان الحاطب على ظهره، والجاني على نفسه؛ يقول الله جل ذكره: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] والله يؤيد من أحب بإرشاده وبتوفيقه، وبكل من برئ منه إلى نفسه واختياره ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الزمر:

٣٦ـ٣٧]. وانتهى إلى أمير المؤمنين خبر عدو الله الخارجي الناجم بأطراف نواحي المغرب واستهوائه من استهواه من أشياع الضلال، وأوباش الجهال، والموضعين في الفتن، وما هم معتقدوه من خلع ربقة الإسلام، وتدرع جلباب الكفر، وإظهار الشقاق والنفاق، والمروق عن الدين والملة، وبسط الأيدي بالعظائم وسفك الدماء، وانتهاك المحارم وارتكاب المآثم، ما قد فشا من الفساد في ذلك الصقع بهم ووصل إلى أهله من معرّتهم، وأن زيادة الله بن عبد الله أنفذ إليهم الجيوش عدة دفعات، وأن هؤلاء الكفرة مقيمون على مناوأته والطمع في نواحيه، مغترون بالمهلة التي جعلها الله حجة عليهم، وأملى لهم ليزدادوا إثماً إلى إثمهم، وليحملوا أوزارهم وأوزاراً مع أوزاهم؛ وليس يخفى على أهل الحزم والرأي والنظر والتميز موع الطاعة ومقدار فضلها وما تعود به على أهلها من صلاح الدين والدنيا، والبدء والعقبى، إذ كان الله جلّ ثناؤه قد جعل طاعة سلطانه وخلفائه في أرضه معقودة بطاعته وطاعة رسوله وفرضها على المؤمنين من عباده فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩] فالسعيد الوافر حظاً، الرشيد أمراً، الفائز يوماً، من تمسك بحبلها، وأوى إلى ظلها، والشقي الخاسر، ذو الجد العاثر، من عَند عنها، وابتغى غير سبيلها؛ وقد علمتم حال زيادة الله بن عبد الله من الموالاة والإخلاص والمشايعة لأمير المؤمنين، والانتهاج بسبيله، والاقتفاء لأثره، والعمل بعهده، والوقوف عند أمره، وحسن السيرة، والرفق بالرعيّة، وإقامة المعدلة، والذب عن الثغور التي هو بسبيلها، ومقارعة المتطرقين لها، والراغبين بها،

والمحاولين انتهاز الفرص فيها، وما درج عليه سلفه من ذلك واحداً بعد واحد، وإن من كان مذهبه مذهب زيادة الله كانت وسيلته الوكيدة وقربته القريبة عند أمير المؤمنين، وكان حقيقاً بالاجتباء له والإحسان إليه والسكون إلى ناحيته؛ وأمير المؤمنين مرتضٍ لأمره، حامدٌ لطريقته، واثق بمناصحته، معتمد عليه في الصقع الذي هو به، وقد واجه من هؤلاء الكفرة وتجرد من أمرهم ما الله معينه عليه، ومتوحد بالصنع فيه، ومجري أمير المؤمنين على أفضل عاداته عنده في أمثاله؛ وأمير المؤمنين على إنفاذ الجيوش ومواصلة الإمداد إليه معونة له، وتقوية لأمره، وشداً على يديه، فيما هو بسبيله؛ ورأى أمير المؤمنين أن يكتب إليكم لتعلموا حال زيادة الله عنده، وموقعه من رأيه، وما يرعاه من حرمته، ويحافظ عليه من وسيلته بنفسه وسلفه، وتؤثروا بالتمسك بطاعته، وترك الخلاف عليه، والتصرف مع أمره ونهيه، ومكانفته على محاربة أعداء الله الكفرة ومجاهدتهم وإجابة دعوته متى استدعاكم، واللحوق إليه، وترك التثاقل عنه، والإجلال له، لترد كتبه بوصف ذلك منكم، والإخبار به عنكم، فيحسن موقع شهادته لكم، وتحلوا محل الأولياء وأهل السمع والطاعة الذين يجب حياطتهم، ويركن إليهم ويعود عليكم من عوائد ذلك ما تغتبطون به وتحمدون اختياركم معه، فاعلموا ذلك من رأي أمير المؤمنين، واعملوا به، وقفوا عنده، ولا تخالفوه إلى غيره، وأجيبوا عن كتاب أمير المؤمنين بوصوله، وامتثال ما حدّ لكم منه، إن شاء الله تعالى، والسلام.

فلما قرئت أيضاً نفسخة هذا الكتاب على منبر مدينة القيروان وسائر

البلدان زاد كلامهم في زيادة الله لأشانيعهم عليه وقالوا: لم يحصل من أمره إلاَّ على المخاريق، وما عسى أن يصنع الرعية له؟ إنما الرعية لمن غلب، فإن كانت له قوة وعنده غَناء فليقاتل. فأما الرعية فما تعرف مدافعة ولا اعتادت محاربة. وجعل الناس يتكلموا بهذا ونحوه من الكلام في أسواقهم وشوارع سككهم وحاضرهم وباديهم علانية. واستدعى الجواب منهم في ذلك، وأمرَ من يتقاضاه من شيوخ القيروان وغيرهم من البلدان، فسوّفوه وتثاقلوا عنه ولم ينفقوا عليه، فأمسك عنهم فيه، ولم يرَ فائدة فيما أبرمه من ذلك وأداره، بل رأى أنه صار سبباً إلى الشناعة وذريعة إلى كشف ما عند العامة، فندم عليه وأسقط في يديه.



ذكر خروج زيادة الله
بالعساكر إلى مدينة الأربس وانصرافه منها

ولمّا نظر زيادة الله إلى اختلال البلد عليه وكثرة الأشانيع فيه أظهر الخروج بنفسه إلى أبي عبد الله وتقدم في الاستعداد لآلات الحرب وشد السلاح والأموال، فنادى في البلدان بتوسعة العطاء للرجالة والفرسان، وأخرج الحشّاد إلى الأمصار والأجناد، وتقدم إلى أهل بيته وجميع خاصته ورجاله في الخروج معه، فاجتمعت له عساكر عظيمة. وتسارب الناس إليه لطلب العطاء، وجعل يجلس في قبة برقادة يقال لها «قبة العرض» وتُصَبُّ الدنانير بين يديه ويعترض أهل البلدان عليه ويعطيهم العطاء، فإذا مرَّ به من يرتضيه غَرَفَ غَرْفَة من الدنانير بصحفة بين يديه تسع نحواً من خمسين ديناراً فيعطيه إياها. واتصلت الأخبار عنه أنه يعطي بالصحفة، فأقبل إليه الناس من كل الجهات، ووافته الحشود، وقطع ذلك خوضَ الناس فيه وإرجافهم به، وكان أكثرَ ما يقولون: هذه ضربة الفيصل تكون لمن تكون. وكان قواد أهل بيته قديماً يفخرون بالنجدة والسخاء، ومن لم يكن ذلك فيه منهم نقصوه وأزْروا به، فتهيأ كل واحد منهم في هيئة حسنة، وجمع حوله من عبيده ومواليه والمنقطعين إليه جماعةً قام بما يحتاجون إليه بما له من حملان وهيئة وسلاح وغير

ذلك، وأخرج زيادة الله مصون ما كان في خزائنه من ذخائره وذخائر آبائه من العدة والحلي والخلع، فأظهر ذلك وأعطى منه قواده ووجوه رجاله وأهل بيته، لكل واحد منهم حسب ما رأى أنه يستحقه عنده، فظهر لذلك زي لم يَرَ مثله أهلُ ذلك العصر، وعمل بنوداً كباراً منقوشة لم يعمل قبل ذلك مثلها، ومضارب منقشة.

وخرج إلى الأربس أول سنة خمس وتسعين ومائتين، وأخرج معه من شيوخ أهل القيروان، فلما وصل إلى الأربس ولّى أبا العباس محمد بن عبد الله بن جيمال القضاء، وكان ممن يذهب إلى مذهب العراقيين، فسر ذلك أهل بيته ووجوه رجاله وذلك لمّا لم يرَ في مداراة أهل القيروان فائدة، وجعل له أن يرفع إليه من شاء من الخصوم من القيروان ومن سائر البلدان ويولي من شاء الحكومة، وقَرَّبَه وأدناه ورفع من شأنه وأعرض عن كل حماس ورفض به.

وأقام بمدينة الأربس وتوافرت بها العساكر على أن يتقدم بها إلى أبي عبد الله، وشاور في ذلك خاصة رجاله فقالوا له: هذا تغرير، إن لقيته بنفسك وجميع عدتك كان الفيصل وما ندري ما يكون من الأمر، وقد أوقع قبل هذا بغير عسكر فلم يضعضع ذلك المملكة إذ كنت ردءها وفيئها. والذي نرى من الرأي أن تكون في دار ملكك، فإنّا لا نأمن أن يحدث بعدك حدث، وتبقي ها هنا عسكراً قوياً مع رجل من رجالك، فإن قصد الشيعي موضعاً قصد فيه إليه وتكون أنت ردءاً له. فاستحسن ذلك من رأيهم وقدم إبراهيم بن أبي الأغلب على العساكر، وكانت له شجاعة وهو من وجوه أهل بيته، وترك معه عامة العسكر وانصرف زيادة

الله إلى رقادة في أهل بيته وخاصة رجاله ﷺ. فلما وصل شد أمر ابن جيمال ونادى مناديه بالقيروان أنه إذا تداعى الخصمان إليه وإلى حماس كان على من دعا إليه أن يجيبه؛ فمال الناس بالخصوم إليه، فلما رأى ذلك حماس رفع ديوانه وأغلق بابه وخلص القضاء لابن جيمال. ثم أخذ أهل القيروان بشراء الأخبية وضربها جهة باب سلم والكون بها ليلاً ونهاراً بالسلاح والعدة، وكتب من كل محرس من محارسها عدة معلومة من شبابهم، فأخرجهم لذلك كرهاً ليذيع أن أهل القيروان تقدموا معه للحرب، وحشد أهل البلدان، وأقام برقادة وأقام ابن أبي الأغلب بالأربس.



ذكر افتتاح مدينة باغاية

واتصلت هذه الأخبار بأبي عبد الله على حقها وصدقها، وكان قد صار إليه جماعة من أهل باغاية منهم إبراهيم المعروف بابن المذيلي وعبد الله بن الروم وحمود القصير وغيرهم، فكاتبوا أهلها وحركوا أبا عبد الله على المصير إليها، وأتوه بكتب من كاتبوه من أصحابهم فيها أنَّهم يريدون مجيئه وإن جاء سلموا لأمره، فزحف في عساكر كثيرة؛ فلما قرب منها اتصل بالعامل مكاتبةُ من فيها أصحابهم، وخاف أن يقبضوا عليه، فهرب إلى الأربس، وخرج جماعة من وجوه أهل باغاية فتلقوا أبا عبد الله وسألوه الأمان فآمنهم، ونزل عليها ودخل عسكره فتسوقوا بها وأقاموا أياماً، واستعمل عليها أبا يوسف ماكنون بن ضبارة الأجاني عم أبي زاكي، وترك معه بها رابطة، وانصرف أبو عبد الله إلى إيكجان، وأقام أبو يوسف بباغاية ومعه بها خمسمائة فارس. واتصل الخبر بزيادة الله واغتم، وخاض أهل إفريقية فيه وكثرت الأشانيع.

وجمع زيادة الله إليه من يشاوره من رجاله فشاورهم في العمل في ذلك فقال له بعضهم: اكتب إلى ابن أبي الأغلب بالنزول على باغاية ومحاصرتهم فلعلّهم يسلّمون من بها إليه؛ قال عبد الله بن الصانع، وكانصاحب أمره وأمثل رجاله: ما هذا وجه الرأي، ولو نزل ابن أبي

الأغلب على باغاية لينفرن إليه أبو عبد الله في جميع كتامة، فإن قاومه لم يؤمَن عليه، وإن تنحى من بين يديه كانت هزيمة ولم يؤمن أنيتبعه، وإن اتبعه لم يؤمن أن ينحل العسكر؛ ولكن الرأي مقام ابن أبي الأغلب مكانه، فإن زحف الشيعي - يعني أبا عبد الله - إلى غير باغاية عاجله قبل أن يصل إلى الموضع الذي يريد إليه، ولو فعل هذا قبل أن يصل إلى باغاية أو سبقه إليها لكان ذلك رأياً، ولكن لما صار أهل باغاية معه وفيها عامله وعسكره وهي حصن حصين وهو منها بالقرب فليس لزحف ابن أبي الأغلب إليها وجه. قال ابن الشنميم، وكان أحد من ينادمه ويجري معه في العبث والخلاعة التي كان يجري فيها: وما باغاية - أعز الله الأمير - ومَن أهل باغاية؟ والله ما كانوا عليك إلاَّ كَلاًّ يرتزقون أموالك ويأخذون لأطفالهم الرضع، ما نفعوك ولا قاتلوا عدوك ولا كان لهم غناء ولا معهم فائدة، أراحك الله منهم وحمل عنك مؤنتهم، وقد قلت الساعة بيت شعر فإن رأى الأمير أن يأمر السند أن يأخذوا عليه طريقة من الغناء ويريح نفسه من هذا الغم وهذا الشغل الذي قد خامر قلبه فليفعل؛ وذلك أنه كان إذا جمعهم أحضر المائدة فأكلوا ثم أحضر النبيذ فشربوا، فإذا أخذ الشراب منهم خاطبهم بما يريد، فكان هذا وقد شربوا أقداحاً واللهاة والمغنون في البعد منهم في المجلس بخارجه - قال زيادة الله: وما هذا البيت؟ قال: نقوله للسند فيأخذون عليه فيكون الأمير يسمعه منهم غناء فهو أجود، قال: افعل؛ فقام إلى السند فقال لهم: غنوا وازمروا وحركوا ملاعبكم وقولوا بعد فراغ كل بيت تغنون به من كل قصيدة:

اشرب واستقينا من الرب يكفينا

واجعلوا له حلة، ففعلوا. فلما سمع ذلك زيادة الله ضحك وتناول كأساً فشربها وقال لابن الشنميم: القول ما قلت يا عبد الله، ومن دون القرب كفاية، قال: يا سيدي، أوليس من القيروان هزمنا عسكر مدلج وقتلناه؟ قال: نعم، قال: فأين باغاية من القيروان، وما يضطرك إلى استعجال الغم؟ قال: لا شيء.

فلما نظر ابن الصانع ومن كان يتكلم في ذلك من طريق النظر والتدبير إعجاب زيادة الله بقول ابن الشنميم وقبوله منه هذا المحال وميله إليه، أخذوا له في معناه وأقبلوا على شربهم إلى أن سكروا وتفرقوا، وكان ذلك يستعمل عند كل حادث يطرأ عليهم من أبي عبد الله. وانهمك زيادة الله في الشرب والعزف والملاهي كأنه يغتنم أيامه ويقضي شهواته، غير أنه كان يمدّ ابن أبي الأغلب بالأموال والرجال، وأمره بإسباغ العطاء على عسكره وأن لا يتحرك من مكانه إلاّ لأمر معهم لا بد له منه، وأقبل على لذاته.



ذكر وقائع أبي عبد الله بمجانة ونواحيها مما يلي الأربس

ولما اتصل بأبي عبد الله ما عقده زيادة الله من إقامة العسكر بالأربس، أراد أن يزوره، وكان خفاجة العبشي عاملاً لزيادة الله على مجانة، وكان من الفرسان المعدودين من أصحابه، وكان قد تجذم، وكانت معه رابطة بمجانة، فأخرج أبو عبد الله خيلاً مجردة تنقاها نحو ألف فارس، وقدم عليهم أبا مديني وأمرهم بالوصول إلى مجانة، فأخذوا على باغاية وخرجوا منها يريدون مجانة، فلما قربوا منها خرج عليهم خفاجة فيمن معه من الرابطة مع أهل مجانة فقاتلهم بقرب المدينة إلى أن حجز بينهم الليل، فدخل المدينة ونزل الأولياء على وادي مجانة فباتوا، فلما أصبحوا أتوا المدينة فاحتصر خفاجة ولم يخرج إليهم، فساروا إلى ناحية قلعة مجانة فانتهبوا تلك المنازل وانصرفوا إلى أبي عبد الله بايكجان؛ فأقام مدة ثم جرد خيلاً أيضاً وقدم عليهم أبا مديني وأمره أن يقصد مجانة. فلما انتهوا إلى باغاية اتصل بهم أن أهل مجانة تقلعوا إلى قلعة قسر فأخذ أبو مديني بالعسكر على تبسّى ثم إلى ناحية مجانة، وكان خفاجة بمجانة في الخيل التي معه، ورجال مجانة على خيولهم، فأخذ على جبل المطاحق وقصد ملزورة - بيتاً من نفزة - بقرب مجانة، وكانوا على

خيولهم، ورفعوا الأموال والعيالات والضعفاء إلى القلعة، فاتصلت بهم الصيحة فخرج بمن معه فوافاهم أبو مديني بالجبل فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل خفاجة العبشي وجماعة معه ولجأ الباقون إلى القلعة وقتل منهم دونها بشر كثير واجتزت رؤوسهم مع رأس خفاجة، وانصرف العسكر إلى أبي عبد الله ووصلوا إلى إيكجان.

ووقعت بين كزناية وأهل قصر الإفريقي وقعة قتل فيها رجل من وجوههم يقال له عبلّو، وكان له أخ يقال له فوناس، فأتى إلى أبي عبد الله يستنصره على أصحابه ووصف له عدتهم، فأمر بإخراج عسكر قدَّم عليه أبا جعفر السكتاني أحمد بن سليمان، فوصلوا إلى قصر الإفريقي فقاتلهم فانهزموا بين يديه، فاتبعهم بالقتل حتى وصلوا إلى طبرشق، فانتهب منازل مكلاته وبني عمر وقتل منهم بشراً كثيراً، وانصرف إلى إيكجان.

وكان إسحاق بن أبي سلاسل عاملاً لزيادة الله على تيفاش، فلما رأى عسكر أبي عبد الله وصل إليه ولم يتحرك ابن أبي الأغلب من مكانه، خاف أن يعود عليه فلحق بأبي عبد الله وخلَّى تيفاش. واتصل الخبر بزيادة الله، فندب إلى الخروج إليها جماعة ليوليهم إياها فتعافوا، وذكر له رجل من أهلها يقال له حبيب بن ليفة، فكتب إليه بالولاية وبعث إليه بصلة وخلعة فقبل وتولى أمر تيفاش.

وكان بها رجل من أهل مجانة يقال له عبد الله بن كليب، شيعي قديم التشيّع، وكان قد صار إلى أبي عبد الله ودعاه، وكان يرسله إلى الناحية فيأتيه بالأخبار وكانت له أم بتيفاش، فاستأذن أبا عبد الله في أن يأتي بها

إلى إيكجان فأذن له فأتى بها وبرجلين من أهل تيفاش من وجوه أهلها يقال لأحدهما محمد بن زنبور والثاني أبو زعبل؛ فدعاهما أبو عبد الله فأخبراه بأخبار البلد وسألاه توجيه عسكر ليأخذ تيفاش فبعث معهما عسكراً وقدَّم عليهم صولات بن القاسم السكتاني، وكان من الدعاة، وكان عدة من خرج معه خمسمائة فارس فاتصل الخبر بحبيب بن ليفة فخرج هارباً إلى الأربس إلى ابن أبي الأغلب، ووصل صولات إلى تيفاش فتلقاه أهلها واستأمنوا إليه فآمنهم ودخلها وأقام بها. ثم أتاه خلفون بن مهدي من أهل قالمة فسأله الدعوة فدعاه - وكان مقدم قالمة - وسأله الأمان لأهلها فآمنهم وأمره أن يرفع منها رجالاً منهم مرابط بن عيسى وعبد الله بن ميمون وإبراهيم بن البروج الذي كان يضرب السكة بها، فمضى لذلك وبعث معه صولات واكليد بن سنبل في ثلاثمائة فارس، وأقام صولات بتيفاش في مائتي فارس. ثم أتى إلى صولات جابر بن موسى وفرح بن حية ويوسف بن أيوب من بني ورديم في جماعة منهم يسألونه الدعوة والأمان، فدعاهم وآمنهم، وأتاه من بني هراش صولات بن بازل وعدي بن ذكر وحبيب بن بكر ومحمود بن حفص فسألوه في مثل ذلك ففعله فهم وأمر جميعهم برفع بيوتاتهم إلى إيكجان، واستقام له أمر الناحية.

واتصل بإبراهيم بن أبي الأغلب أنه لم يبقَ بتيفاش غير مائتي فارس فزحف إليها في إثني عشر ألف فارس وما لا يحصى من الرجالة، وكان الذي حركه على ذلك حبيب بن ليفة وجماعة، فلم يشعر صولات ومن معه من الأولياء بتيفاش حتى أظلتهم العساكر، فأمرهم صولات

بالخروج من المدينة، وخاف من أهلها، فخرجوا غير نفر قليل منهم لم يكن لهم دواب فأقاموا بالمدينة، ووقف صولات بمن معه على باب المدينة حتى وافتهم طلائع ابن أبي الأغلب فقاتلوهم فهزموا الطلائع حتى ألحقوهم بمعظم العسكر وقتلوا منهم جماعة ثم انصرفوا وقدموا ضعفاء الخيل أمامهم وأمسك الباقون ساقتهم حتى أتوا المدينة فجاوزوها، ولما وصل عسكر ابن أبي الأغلب المدينة أقام ولم يطلب الأولياء، ومضى صولات بمن معه إلى قالمة فاجتمع مع واكليد ومن معه من الخيل التي وجّهه بها، وأرسلوا إلى أبي عبد الله بالخبر، فأمرهم بالانصراف فانصرفوا إلى إيكجان، ودخل عسكر ابن أبي الأغلب إلى تيفاش فقتلوا من كان بها ممن بقي من الأولياء وقتلوا عبد الله بن كليب فيمن قتلوا، قتله حبيب بن ليفة، فلما وصل أبو عبد الله إلى رقادة أتته أم عبد الله بن كليب، وكانت مؤمنة صالحة، فقالت له: اقدني بابني من حبيب بن ليفة، فأمر بدفعه إليها فقالت: ما أريد أن أقتله بسيف ولا رمح ولكن يقيد ويغلّل ويترك حتى يموت ففعل ذلك به لها. ثم أتى إلى أبي عبد الله منصور بن خليل الأوربي فذكر أن أوربة قتلوا أباه ونافقوا، وكان أبوه قد دعا قبله وقدم عليهم، فأمر أبو عبد الله بإخراج عسكر وقدم على كل قبيلة فيه رجلاً منهم، فخرجوا مع منصور حتى أتوا بونة فنزلوا على مجاز المراكب وقسموا العسكر على ثلاثة أثلاث فأخذ الثلث على ساحل البحر والثلث على سنديني وإيران والثلث في وسط الفحص، وشنوا الغارات على أوربة فقتلوا كل من مروا به وغنموا أموالهم واجتمعوا بباب زانة وانصرفوا بالغنائم إلى إيكجان.

ذكر وقعة دار مدين

وخرج أبو عبد الله بنفسه في احتفال من العساكر فوصل إلى باغاية وسار حتى أتى مسكيانة، ثم مال إلى تبسى وخرج منها فأتى ميدرة، وهي حصن حصين، فأصاب بها بقايا أهل قصر الإفريقي وأهل مجانة والقلعة وتبسى ومرماجنّة وأخلاطاً من الناس قد أووا إليها وتحصنوا بها فنزل عليها وأصابته علة شديدة من الحصاة التي كانت تعتريه، فاشتغل بنفسه، وأغلق أهل ميدرة أبوابهم ووقفوا على السور، فأحاط بهم العساكر من كل جانب يسألون الأمان، فأعطاهم الأمان بعض العسكر من قبل نفسه، ففتحوا لهم الباب، فلما دخلوا عليهم وتوسطوا المدينة وضعوا السيوف على من فيهاوانتهبوها، فبلغ ذلك أبا عبد الله فاغتم لذلك وخرج بنفسه وهو لما به، فاجتمع المشايخ إليه مما وجدوه، فخلّص كل ما قدر عليه واستنقذ كل من لحقه وردّ ما قدر عليه مما وجده بأيدي العسكر. واغتم لذلك غماً شديداً، وطلب من فعل ذلك فلم يوجد. واتصل خبر ميدرة بزيادة الله وتشنعت منه على أبي عبد الله وأصحابه شناعات من الغدر وترك الوفاء بالعهد.

وارتحل أبو عبد الله من ميدرة فنزل على قصرين من قمودة واحتصر أهلها وسألوه الأمان فأمنهم وأمرهم أن لا يفتحوا باب مدينتهم لما كان

من أمر ميدرة؛ فكانوا يبايعون العسكر من فوق الحصن. وأظهر أبو عبد الله الغضب على أصحابه وإنكار ما كان منهم إلى أهل ميدرة، وكثر اغتمامه به واتصل به ما كن من الكلام في ذلك بإفريقية وبأن زيادة الله كتب بذلك كُتباً فقرئت على المنابر، فجمع مشايخ كتامة وعرّفهم ذلك وبكّتهم به، فاعتذروا إليه من ذلك بأنهم لم يعلموا من فعل ذلك، وأنهم قد بذلوا مجهودهم في رد ما قدروا عليه، وأنهم قد قتلوا جماعة ممن أصابوا النهب في يديه ممن علموا أنه تعدّى فيه، واسترضوه مما نقمه من ذلك عليهم، فرضي عنهم.

واتصلت الأخبار بابن أبي الأغلب أن أبا عبد الله يريد أن يضرب على زيادة الله برقادة وأنه انتهى إلى القصرين، ولم يكن مع زيادة الله عسكر كثير، فخرج ابن أبي الأغلب من الأربس بجميع عساكره فنزل دار مدين، فاتصل بأبي عبد الله ذلك وهو بالقصرين، فأمر بإخراج ألفي فارس إلى ناحية دار مدين لاختبار أمر ابن أبي الأغلب فانتهوا إليها فوافوه بها وناشبوه القتال، فقتل جماعة من الأولياء استبطأ أبو عبد الله خبرهم فركب في جميع العساكر يريد إليهم، فوافاه رسولهم يخبره بأنهم قد ناشبوا القتال فعبى العساكر وسار نحوهم فبينا هو يسير إذ وافاهم وقد انهزموا متفرقين في الوعر والشَّعْراء وقد قرب الليل، فلما رأوه كروا وكرت معهم الطلائع فانهزم ابن أبي الأغلب بين أيديهم فقتلوا جماعة من أصحابه، وحجز بينهم الليل، وانصرف أبو عبد الله إلى القصرين وانصرف ابن أبي الأغلب إلى دار مدين، وكتب إلى زيادة الله بالخبر وأنه قد هزم أبا عبد الله وقتل عسكره وزاد في القول، فزاد في ذلك زيادة

الله وكتب السجلات إلى البلدان بذلك فقرئت على المنابر، وكان ذلك قد هدّأ من الشناعة عليه وقطع كثيراً من قول الناس فيه، وانصرف أبو عبد الله إلى إيكجان.

وعاد ابن أبي الأغلب إلى الأربس فسار إليه بنو وشنو وبنو صدغايان من بني هراش بعد أن كانوا دخلوا طاعة أبي عبد الله. واتصل ذلك بأبي عبد الله فأخرج إليه عسكراً وقدم عليه غزوية بن يوسف وأبا مكدول فسارا بالعسكر حتى وصلا إلى قصر الإفريقي فأصاباه خالياً، فانتهيا إلى طبرشق فباتا بها وبنو وشنو بقربهم فكمنوا دونهم ولم يوقدوا ناراً ثم صبحوهم مع الصباح فقتلوهم إلاّ من شذّ منهم، ثم صاروا إلى بني صدغايان فقتلوهم قتلاً ذريعاً وأحرقوا منازلهم وغنموا أموالهم وانصرفوا إلى المُناخ الذي كانوا فيه فنزلوا به.

وكان ابن أبي الأغلب قد خرج يريد قتل بني ورديم لدخولهم في طاعة أبي عبد الله، واتصل خبر خروجه بأبي عبد الله، فأرسل إلى غزوية وأبي مكدول ينذرهما به، فأتاهما رسوله وقد قرب ابن أبي الأغلب منهما وليس فيما بينه وبينهم إلا مقيل، ولم يعلم بعضهم ببعض حتى جاءهم رسول أبي عبد الله فقاموا من وقتهم فمشوا نهارهم وليلهم حتى نزلوا قالمة، فأرسل أبو عبد الله خمسمائة فارس إلى ناحية بني ورديم وأمرهم بأن يأتوهم فإن أصابوهم قد ناصبوا ابن أبي الأغلب أعانوهم، وإن أصابوهم استسلموا إليه انصرفوا عنهم، فوافوا غزوية ومن معه جماعة بقالمة وانصرف غزوية وأبو مكدول بمن معهما إلى ايكجان، وسارت الخمسمائة فارس إلى حيث وجّههم أبو عبد الله وانصرف معهم

جماعة من أصحاب غزوية بن يوسف فأتوا إلى جبل بانورات ونزلوا عليه فألفوا عسكر ابن أبي الأغلب قد نزل بجبل الساطور وبنو ورديم بين الجبلين. وكان عسكر ابن أبي الأغلب عسكراً ثقيلاً كثير العدد والمقدم عليه ابن الهمداني، فلما أصبحوا زحفوا إلى بني ورديم ووقفت الخمسمائة فارس مع راجلها ومن زاد إليها من عسكر غزوية على الجبل ينظرون ما يكون من بني ورديم كما أمرهم أبو عبد الله، وعلم بنو ورديم بمكانهم فقويت قلوبهم وخافوا إن سلموا لعسكر ابن أبي الأغلب أن يأتيهم من أبي عبد الله ما يكرهونه، فناصبوا عسكر ابن أبي الأغلب فهزموه وقتلوا جماعة منه، ونزلت خيل أبي عبد الله فأعانوهم وأقاموا عندهم أياماً ثم انصرفوا إلى أبي عبد الله.

ثم نافق إلى ابن أبي الأغلب بنو ماجن من هوارة كادران، فاتصل خبرهم بأبي عبد الله فأخرج إليهم عسكراً من جيملة وإجانة وقدم على الجيمليين أبا مكدول وعلى الإجانيين أبا يوسف ماكنون ابن ضبارة، فوصل العسكر إليهم فقتلوهم وغنموا أموالهم.



ذكر افتتاح قسطيلية وقفصة

ثم إن أبا عبد الله جمع الأولياء واحتفل في عساكر عظيمة وخرج يريد قسطيلية، فلما انتهى إلى باغاية وافاه بها يحيى بن سليمان عامل طبنة يخبره عن رجال من الأولياء كان أبو عبد الله أرسلهم بأموال إلى المهدي ﷺ، إلى سجلماسة، فأوصلوها وانصرفوا إليه بالجواب وهم أربعة عشر رجلاً، فلما أن جاوزوها قطع عليهم الطريق جماعة من زناتة، فلما رأوهم قد أقبلوا إليهم في جمع عظيم اجتمعوا ودفنوا الكتب التي كانت معهم في موضع وقالوا: إن عاش منا أحد استخرجها، ووقفوا للقوم حتى أتوهم فقاتلوهم، فلم يزالوا يقاتلونهم ويقتلون منهم ويقتل منهم الواحد بعد الواحد حتى صرعوا عن آخرهم. واحتمل زناتة قتلاهم وانصرفوا وتركوهم مجندلين، فأصابهم مطر وابل فدخل الماء جراح رجل منهم، وكان فيه رمق، فتحايا وقام بقوة النفس، فلم يزل يسير حتى انتهى إلى طبنة فأخبر يحيى بن سليمان الخبر ووصف له موضع الكتب، فلما فرغ من ذلك مات رحمة الله عليه وعلى أصحابه لما أراد الله عز وجل من إبلاغ رسالة وليه؛ وكان قد كتب إلى أبي عبد الله في تلك الكتب بأمور مهمة، فمضى يحيى بن سليمان إلى المكان الذي وصف له الرجل فأصاب القوم مصرعين فدفنهم واستخرج الكتب فوافى

بها أبا عبد الله بباغاية، فعظم أمر قتلهم، وكانوا من أخيار المؤمنين، فأزمع على الانصراف إلى زناتة والإيقاع بهم، وجمع المشايخ وشاورهم في ذلك فقالوا: البلد بعيد، وهذا العسكر منا بالقرب ولا نأمن أن يخالفنا إلى بلدنا، وأمرُ زناتة لا يفوتنا إن شاء الله، ومن قتل منا فهو في الجنة وقد قضى نحبه على طاعة ربه؛ وعزّوه عنهم وهوّنوا عليه أمرهم واغتبط بوصول كتاب المهدي إليه وحمد الله تعالى إذ لم يطلع زناتة على ما فيه.

وسار بالعساكر إلى قسطيلية، فخرجوا إليه فقاتلوه ساعة من النهار قتالاً خفيفاً ثم استسلموا إليه وسألوه الأمان فأمنهم، وأصاب الأولياء منهم في وقت القتال قبل الأمان غنائم كثيرة، وأخذ أبو عبد الله ما كان بها من الأموال لزيادة الله ولرجاله وسار فنزل على قفصة فسألوه الأمان فأمنهم، وأخذ أيضاً ما كان لزيادة الله من الأموال عندهم. وانصرف فأتى إلى باغاية فخلف بها أبا مكدول في خمسمائة فارس، وحَضر محمد بن غزوية بها فتخلف عليه أبوه غزوية وتخلف معه خمسون فارساً من ملوسة، ومضى أبو عبد الله بالعساكر حتى وصل إلى إيكجان.

وكان ابن أبي الأغلب قد خاف أن يكون أبو عبد الله أراد إفريقية لما توجه إلى قسطيلية، وكان متوقعاً لذلك عازماً على أنه إنْ بَلَغه ذلك سار إلى إفريقية. فلما بلغه رجوعه إلى إيكجان، وأنه لم يبقَ بباغاية إلاّ خمسمائة فارس، زحف بميع عساكره من الأربس حتى نزل على باغاية، وأرسل أبو مكدول رسلاً إلى أبي عبد الله، فلما وصلوا إليه أمر في الوقت بضرب الطبول وتصايح كتامة ففاضوا من كل جانب وعلوا

السهل والوعر مبادرين إلى باغاية، فلما رأى ذلك أبو عبد الله سبقهم إلى سكتان، فجلس الناس وتخير إثني عشر ألف فارس وقدم عليهم أبامديني وقال له: إن لحقت القوم بباغاية فقاتلوك دونها فاحمل نفسك عليهم ولو حملتها على الأسنة ولا يردك راد عن الوصول إلى باغاية، وإن أصبتهم قد انصرفوا أو قاتلتهم فانهزموا فلا تجاوز فج العرعار. فمضى أبو مديني نحو باغاية، وانصرف أبو عبد الله بالجمع إلى إيكجان.

وكان بباغاية يومئذٍ جماعة من أهلها، وكان بها حارث المدغري في ثلاثمائة فارس من مدغرة، فلما نزل بهم ابن أبي الأغلب خرجوا إليه فقاتلوه قتالاً شديداً، وكان لغزوية ذلك اليوم مقام عجيب، وقاتل حارث المدغري قتالاً شديداً، فقال له ابن أبي الأغلب: يا حارث، أخذك الله بإحساننا إليك، وكان قد وصله زيادة الله وأحسن إليه، فقال حارث: إحسان أبي عبد الله إلي أكثر من إحسانكم: بَصَّرَني من العمى واستنقذني من الجهل. وكان من الأولياء يومئذٍ بباغاية رجاء بن أبي قتة، فقاتل قتالاً شديداً وأبلى بلاءً عظيماً. ونظر أصحاب ابن أبي الأغلب من قيام الأولياء بباغاية على قلة عددهم ما علموا أنه لا طاقة لهم بهم وخافوا من مجيء المدد إليهم فماجوا، وكان القتال ذلك اليوم من أول النهار إلى آخره، فلما قرب المساء انهزم أصحاب ابن أبي الأغلب فلم يتبعهم الأولياء لقتلهم وكان مناخ عسكرهم بالقربات فباتوا به.

وبات أبو مديني تلك الليلة بكرشة، فلما أصبح عبأ العساكر وزحف

بها، فلما قربوا من باغاية خرج إليهم من بها فمشوا كذلك على تعبئتهم نحو مناخ ابن أبي الأغلب فأصابوهم قد رحلوا من الليل ووجدوا بقايا من العسكر وأمتعة فقتلوا من وجدوه وانتهبوا ما أصابوه واتبعوا العسكر حتى انتهوا إلى فج العرعار، فوقف أبو مديني وقال: هذا المكان الذي حده لنا الشيخ وأمرنا أن لا نتجاوزه، وانصرف إلى باغاية ولحق ابن أبي الأغلب بالأربس، وانصرف أبو مديني إلى إيكجان بالعساكر التي قدم بها وانصرف معه أبو مكدول وغزوية، وأقام أبو يوسف بباغاية بالخيل التي كانت معه.



ذكر افتتاح مدينة الأربس وانهزام ابن أبي الأغلب

ولما دخل فصل الربيع وطاب الزمان، جمع أبو عبد الله العساكر واحتفل واستعد ثم زحف يريد ابن أبي الأغلب بالأربس، فخرج من ايكجان في أول جمادى الأخرة من سنة ست وتسعين ومائتين، فنزل مدينة باغاية وعرض من معه وحصلهم فبلغوا مائتي ألف بين فارس وراجل وكان زيادة الله قد حشد وبذل العطاء وأوعب وأرسل إلى ابن أبي الأغلب عساكر فاجتمع بالأربس من العساكر ما لا يحصى عدده إلاّ الله. وسار أبو عبد الله من باغاية حتى انتهى إلى مسكيانة، فأخذ مع الوادي حتى خرج إلى وادي مجانة، ثم خرج على مرماجنة إلى وادي الرمل فنزل عليه، وأخرج خيلاً إلى منيولة يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الأخرة فانتهبوا منيولة، ثم أصبح من غد يوم الجمعة فأخرج خيلاً إلى شقبنارية فوافتها قبل نصف النهار فقاتلوهم إلى وقت العصر ثم نزلوا إليهم على الأمان فأتوا برجال من وجوههم إلى أبي عبد الله. وكان أبو عبد الله قد أخرج ذلك اليوم جرائد الخيل فضربت جريدة منها إلى بني جودان، فوافتها خيل كثيرة لابن أبي الأغلب، فقاتلوهم، فأسر رجل من الكتاميين فأتوا به إلى ابن أبي الأغلب وعنده محبوب بن

عبدون فسأله فيه فأبى ابن أبي الأغلب عليه إلاّ أن يقتله، فغضب محبوب وقام عنه وأمر ابن أبي الأغلب بقتل الرجل فقتل.

ثم أصبح أبو عبد الله يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة فميز العساكر وعبأ بها، فجعل في الميمنة بني نبطاش وفي الميسرة بني نباوة وفي القلب ملوسة ومسالتة، وانتقى عشرة آلاف فارس من الدعاة ووجوه القبائل وأهل النكاية فجعلهم معه وزحف إلى الأربس فأصاب ابن أبي الأغلب قد عبأ عساكره، فالتحم القتال، ووقف أبو عبد الله بالعشرة آلاف فارس على كدية مطلة على المدينة، وانتشر القتال في الفحص، وأخذ الناس بعضهم بعضاً، وكانت معارك عظيمة ومواقفة شديدة، وقتل من الفريقين خلق كثير، وأقام القتال بينهم من أول النهار إلى وقت صلاة العصر، وكلح أصحاب ابن أبي الأغلب ولم يكن بقي بإفريقية ونواحيها وأطرافها من عربها وبربرها ورجال زيادة الله أحد مذكور إلاّ وكان مع ابن أبي الأغلب.

فنظر أبو عبد الله إليهم قد شقوا على أصحابه، وأحسَّ من أصحابه بعض الفشل، وخاف عليهم الهزيمة، فقال لمن حوله من المشايخ: انتقوا من الرجالة من قدرتم عليه من خيارهم وابعثوهم يأخذون في هذه المسيلة، مسيلة تعرف بالمغارة ويستترون فيها حتى يضربوا في الخيل، فلعلهم أن يحركوهم فانتقوا من الرجالة خمسمائة وخمسة وسبعين رجلاً من أشد من قدروا عليه، فتعروا عراة وأخذ كل واحد منهم رمحين ودَرَقَة ومشوا في تلك المسيلة. واتفق أن كان ابن أبي الأغلب قد رأى مثل ذلك الرأي ودبّر مثل ذلك التدبير وأخرج رجالة من قبله في تلك

المسيلة، فوافق بعضهم بعضاً في موضع يعرف بالغرة البيضاء بقرب جنان لوز على طريق الأربس إلى شقبنارية، فوافق أول رجل طلع من الكتاميين أول رجل طلع من أصحاب ابن أبي الأغلب، فتقايسا بالرماح، وحمل كل واحد منهما على صاحبه، فقتل الكتاميُّ الخارجَ إليه من أصحاب ابن أبي الأغلب، وحمل أصحابه على رجالة ابن أبي الأغلب فانهزموا وقامت الصيحة فيهم، فانهزمت عساكر ابن أبي الأغلب وداخلت خيلَها رجالةُ أبي عبد الله وحَمَلَتْ خيلُه عليهم فولوا منهزمين وقصد كل قوم منهم إلى جهة بلدهم وأخذ ابن أبي الأغلب ومن معه من رجال زيادة الله وأهل إفريقية على جبل الحراقين، وأخذ لواتة وكزناية ومكلاتة على طريق جثيرمس، وأخذ عامة العبيد وخِلَط الناس من أهل إفريقية طريق القيروان، وأخذ محبوب بن عبدون مع هوارة ونفزة على بني بشير، واتبعهم الأولياء بكل ناحية يقتلونهم ويأسرونهم ويغنمون ما معهم، وقصد قوم منهم إلى المدينة فقتلوا بها من وجدوه وانتهبوا ما قدروا عليه إلى أن غربت الشمس ودخل الليل، فانصرفوا إلى مناخهم فباتوا فيه. وأصبح أبو عبد الله فأمر بقصد مدينة الأربس، وذلك أن أهلها أضرموا ناراً وأصروا مع ابن أبي الأغلب، فدخلها الأولياء بالسيف فقتلوا بها من الخلق ما لا يحصى وانتهبوا ما بها وأقاموا يوم الأحد، وانصرف أبو عبد الله بجميع العساكر يوم الإثنين، فأخذ على دقة يريد إلى قمودة والناس يقولون: يريد إلى قسطيلية.



ذكر هروب زيادة الله من رقادة

ووصل خبر الهزيمة إلى زيادة الله يوم الأحد بعد صلاة الظهر، وكان قد علم وأيقن أنه لا يقوم له أمر إن انهزم عسكر الأربس لأنه آخر ما قدر عليه من الحيلة واستفراغ المجهود. وكان قد تقدم في شد جميع أمتعته واستعد للهرب، فلما أتاه خبر الهزيمة، أظهر أنه جاءه الفتح، وأرسل إلى السجن فجاء برجال منه فضرب أعناقهم واجتز رؤوسهم وأمر أن يطاف بها بالقيروان وبالقصر القديم، وأخذ في ضم حوائجه ورفع ثَقَله وأمواله. وأرسل إلى خاصة رجاله وأهل بيته فأنذرهم بالخروج معه وعرّفهم ما جاءه من الخبر، فأشار عليه ابن الصانع بالمقام وقال له: العساكر تجتمع إليك، فأظهر العطاء يأتك الناس، وليس يجسر الشيعي أن يقتحم عليك، فلا تدع ملكك، فقد حارب زيادة الله حدُّك إفريقية كلها وقد اجتمع عليه أهلها في القصر القديم اثنتي عشرة سنة، وأنت في قوة من أهل بيتك وخاصتك، فلا تفرق جماعتك، ولا تخسر ملكك، وتثبت لهم؛ فلم يقبل منه، فألحَّ عليه في ذلك، فقال زيادة الله: هذا تصديق ما قيل فيك أنك كاتبتَ الشيعي فأردت أن تمكّنه مني؛ فاعتذر إليه وتبرأ مما قيل فيه، وأمسك عنه.

وأخذ زيادة الله في شد الأموال ونفيس الخلع والجوهر والسلاح وما

خف من الأمتعة وَوَاعَدَ من حضره من رجاله الليل، وانصرف كل واحد منهم يحمل ما يريد حمله، وخافوا على أنفسهم القتل إن تخلفوا بعده، وحمل من يعز عليه من الجواري وأمهات الأولاد وبنيه وبناته، وانتخب من عبيده الخدم الصقالبة ألف خادم، وجعل على وسط كل واحد منهم منطقة فيها ألف دينار خوفاً من أن يُلحق أحمالُ أمواله، وشد باقي الأموال أحمالاً؛ فلما أذن المؤذن بصلاة العشاء الآخرة، خرج من رقادة واتبعه الناس قوم مبعد قوم يهتدون بالمشاعل ويتبعونه، فأخذ إلى قلساية جادة طريق مصر، وخرج ابن الصانع بعد ساعة بثقله وحمله وحشمه فقصد سوسة، وكان قد أعدّ بها مركباً لنفسه ليركب إلى صقلية ويفارق زيادة الله، وذلك أنه كان يخاف على نفسه رجاله الذين كانوا معه أن يحملوه على قتله، وذلك أنه كان معادياً لأكثرهم وكانوا يعادونه لتقدمه عند زيادة الله وغلبته عليه، فلم يأمنهم أن يسعوا به إليه وسمع ما كانوا رموه به من مكاتبة أبي عبد الله وما قال له زيادة الله لما نصحه في المقام. وخرج ابن الصانع لما خرج من رقادة ومعه مشاعل، فأخذ على القصر القديم وخرجت ثلاثون حملاً من المال تخلفت عن جملة المال، فنظر الدين خرجوا بها إلى مشاعل ابن الصانع فظنوا أنها مشاعل زيادة الله فاتّبعوها. ووصل ابن الصانع إلى سوسة فدخل البحر من ساعته ووصلت احمال المال بعده إلى سوسة فأخذها ابن الهمداني فاختزنها، فلما دخل أبو عبد الله إلى رقادة أخذها.

وبقي من بقي برقادة من سائر الناس، فهربوا على وجوههم في الليل إلى القصر القديم وإلى القيروان وإلى سوسة وإلى كل ناحية بما خف من

متاعهم وقدروا على حمله، فأصبح صباح يوم الاثنين ففاض أهل القيروان والناس من كل مكان إلى رقادة ينتهبون ما بها ويحملونه فيلقى بعضهم بعضر فيسلب القوي الضعيف. وسابت أهل إفريقية وشغل أهل الذعارة بنهب رقادة، فانتهبوا ما في قصورها مما خلّفه زيادة الله وما في دور رجاله ودور سائر الناس، الأنفس فالأنفس والأعلى فالأعلى، إلى أن لم يبقَ شيء على وجه الأرض إلاّ انتهبوه. وصاروا إلى البحث عن المطامير وانتزاع حديد الأبواب وحمل الأسرّة وثقيل الخُرْثيّ، وأقاموا كذلك ينتهبون إلى أن دخلت خيل أبي عبد الله.

ثم خالط الخوف من تخلف من بني الأغلب، وكانوا خلقاً كثيراً أكثرهم في حال الفقر والمسكنة، وتخلف كثير من وجوههم عن زيادة الله وجماعة من عبيده ورجاله وأهل الحرب وأصحاب الدواوين، وكان أكثرهم برقادة فتفرقوا على حسب ما ذكرنا ليلة هرب زيادة الله، وكان معظمهم أيضاً بالقصر القديم وما حوله من الأرباض، فانضم من كان حوله إليه، ثم خاف الوجوه الذين كانوا فيه، فكسروا أقفال أبوابه ليلة الثلاثاء، وخرج عامتهم إلى القيروان وإلى نواحي البلدان فاختفوا بها، فلما رأى ذلك الباقون من غد ترحلوا إلى القيروان بأجمعهم فلم يبقَ بالقصر القديم أحد، ونقلوا أمتعتهم منه وافترقوا بالقيروان والبوادي وسوسة حيث رأى كل واحد منهم أن يصرف بوجهه. وشغل نهب رقادة كل مفسد ولم يتعرض أحد في الطريق ولا في غيره ولا كان في الناس قتل ولا شيء إلاّ ما كان برقادة، وانتهب بعضهم ذلك النهب من أيدي البعض.

ووافى إبراهيم بن أبي الأغلب مدينة القيروان صبيحة يوم الثلاثاء في جماعة من انضم إليه في وقت الهزيمة ممن كان معه، فلما علموا هرب زيادة الله تفرقوا عنه وقصد كل قوم إلى ناحية بلدهم، فدخل إبراهيم بن أبي الأغلب إلى مدينة القيروان وقصد دار الإمارة فنزل بها، ونادى مناديه بالأمر في تسكين الناس، وأرسل إلى جماعة الفقهاء ووجوه أهل القيروان فأتوه. وتسامع الناس بمسيرهم إليه فأتوا دار الإمارة، فاجتمع على بابها خلق عظيم، وحضر وقت صلاة الظهر، فأذّن المؤذّنون وسلموا عليه بالإمرة، وأدخل الفقهاء والشيوخ إليه، فذكر لهم أحوال زيادة الله وما كان عليه من سوء الحال وأن ذلك هو الذي أخلّ بدولته وقوّة عليه عدوه وسلبه ملكه، وذكر أبا عبد الله وكتامة وشنع عليهم أقبح الأشانيع وخوَّف من ناحيتهم وقال: إنما قصدت إليكم وجئتكم لأجاهد عن حريمكم ودمائكم وأموالكم فأعينوني على ذلك بالسمع والطاعة، وأمدوني بأموالكم ورجالكم، ودافعوا عن مهجكم وحرمكم وأموالكم، فقالوا: أما السمع والطاعة فهما علينا لك ولكل من وَلِيَنا، وأما عونك بأموالنا وأيدينا فنحن سوقة تجار وباعة فأموالنا لا تبلَغ ما تريده، والقتال فما لنا به قوة ولا نطيقه، وأنت قد ناصبت هؤلاء القوم ومعك صناديد أهل الحرب ووجوه رجاله ووراءك بيت المال تستمد منه فلم تطقهم، أفَنُطيق ذلك بنا نحن وأموالنا؟ فراجعهم في ذلك وراجعوه حتى قال لهم: فانظروا ما كان في أيديكم من أموال الأحباس والودائع فأعطوني ذلك سلفاً لينادى بالعطاء ويجتمع الناس إلي، فقالوا له: وما عسى أن يكون في الأحباس والودائع؟ ولو مددت يدك إليها لأنكر

الناس ذلك وقاموا فيه. فلما يئس منهم صرفهم فخرجوا والناس مجتمعون على باب دار الإمارة لا يعلمون ما كان من الكلام.

فلما خرجوا وأخبروهم بما كان منه صاحوا به: أخرج عنا لا نبتلى من أجلك، وأجلب الغوغاء وصاحوا: تؤخذ وتكبل، وشتموه. فلما سمع ذلك ركب ومن كان معه في سلاحهم واقتحموا الباب، فهرب من كان على الباب بين أيديهم وأفرجوا لهم، وأخذتهم الحجارة من فوق البيوت وهم يتقون ويركضون دوابهم حتى خرجوا من المدينة. ومضى ابن أبي الأغلب ومن كان معه وانضم إليهم من بقي بعد زيادة الله من رجاله ممن خاف على نفسه فلحق بزيادة الله.

وكان يؤثر في أخبار ما يكون أن أول أمراء بني الأغلب إبراهيم وآخرهم إبراهيم، فلما ولي إبراهيم ذلك اليوم بالقيروان قال الناس: هذا الذي كان يقال آخرهم إبراهيم، وكان يؤثر في بني مروان أن أولهم مروان وآخرهم مروان، فكان ذلك كما قيل، وكذلك يؤثر أن أولهم بالأندلس عبد الرحمن وآخرهم عبد الرحمن.



ذكر دخول أبي عبد الله إفريقية ونزوله برقادة واستقامة الأمور له

ووافى أبا عبد الله الخبر بهرب زيادة الله وقد خرج من دُقة من قبل أن يصل إلى سبيبة، فأخذ على سكتانة ونزل وادي الرمل فبات به، فلما أصبح قَدَّم غزوية بن يوسف وحسن بن أبي خنزير في ألف فارس إلى رقادة، وأمرهم أن لا يعترضوا أحداً بمكروه، فوصلوا إلى رقادة، وأصابوا الناس بها ينتهبون الطعام وما بقي من خسيس الخرثي. فلما رأوهم تفرقوا خافوا منهم، فأمنوهم ولم يتعرضوا لهم، وتركوا لكل واحد منهم ما كان معه قد حمله ومنعوا ما بقي، فأتى من كان برقادة إلى القيروان فأخبروا بالخبر، فابتهج الناس بذلك وسروا به.

وخرج شيوخ أهل القيروان وفقهاؤهم لتلقي أبي عبد الله، فلقوه وسلموا عليه وهنّأوه بالفتح، فأقبل عليهم بوجهه ورد عليهم أحسن الردّ وأمرهم فركبوا دوابهم ودعا بهم فاستصحبهم وحدثهم وآمنهم في أنفسهم وأموالهم، فأعجبهم ما رأوه من تواضعه وحسن عشرته وأخبروه بخبر ابن أبي الأغلب وما كان منه إليهم ووصفوا له رغبتهم فيه وميلهم نحوه، فقال لهم: قد أخذتم بحظكم ونظرتم لأنفسكم وعملتم لما فيه نجاتكم وصلاح حالكم وما يعود بالنفع لكم في عاجلكم وآجلكم. ثم

أخذوا يذكرون له أخبار زيادة الله ويصفون سوء حاله ومساويه، وأبو عبد الله ساكت عن ذلك، حتى إذا أكثروا فيه قال لهم: أئمته الذين ولوه وقدموه وآباؤه من قبله وآباؤهم من قبلهم أسوأ حالاً منه؛ فلو علمتم ورأيتم أحوال بني العباس وما هم عليه من الفسق وسوء الحال لما تعاظمكم ما رأيتموه من هذا. وما وصفتموه من وهنه وضعف أمره، فما أبقى في المدافعة والاجتهاد بما قدر عليه وأمكنه؛ ولقد كان له من القوة والمنعة ما رأيتموه، ولكن أمر الله لا يدافع ولا يغالبه مغالب، وأولياء الله المنصورون وجنده الغالبون، ومن حزمه وشدة أمره هربه بين أيدينا إذ لم يرَ أن له بنا طاقة. فعلم القوم أنهم قد أخطأوا فيما وصفوه من وهن زيادة الله لأنه كان يقال: من صغر أمر مقتول صغّر أمر قاتله، فأمسكوا عن ذلك وأخذوا في شكر أبي عبد الله والثناء عليه والدعاء له والرغبة إليه في حسن السيرة فيهم والصفح عن مسيئهم، وكل ذلك يسمعهم خيراً ويعدهم به إلى أن وصل إلى رقادة، وهم كذلك يمشون حوله، فنزل بها وأذِنَ في الانصراف لهم فانصرفوا إلى مدينة القيروان، واستعمل عليهم حسن بن أحمد بن أبي خنزير.

وكان دخول أبي عبد الله يوم السبت غرة رجب سنة ست وتسعين ومائتين، وهي السنة والشهر اللذان تقدمت الروايات والأخبار عما يكون فيهما، وقد ذكرنا ذلك في أول الكتاب. ونزل أبو عبد الله ببعض قصور رقادة وفرق دورها على كتامة، ولم يكن بقي بها أحد من أهلها، فنزل بها جميع كتامة، ونزلوا أيضاً بالقصر القديم في دور الهاربين مع زيادة الله وفيما حوله من الأرباض وحول رقادة، فكانوا كالجراد

المنتشر، ورأى الناس من جمعهم ما لم يظنوا أنه يجتمع مثله لأحد من الناس، ونظر الناس منهم من حسن السمع والطاعة والعفاف والسكينة إلى ما صدّق عندهم ما كان يُحكى عنهم لهم: لم يبسط أحد منهم يده إلى شيء، ولم يتعدَّ ما قيل له، ولا خالف ما أمر به، كأنهم قيام في الصلاة أو عليهم من غيرهم حَفَظَةٌ يأخذون على أيديهم ويمنعونهم.



ذكر ما أمر به أبو عبد الله من أمان العامة وما أجراه فيها من وجوه الضبط والسياسة

ولما استقر أبو عبد الله برقادة، أمر منادياً فنادى بالقيروان بالأمان التام للعامة ورجوع من كان تنحى عن وطنه إليه، فرجع الناس إلى أوطانهم، وقروا في قرارهم، وأخرج العمال إلى البلدان، ونادى فيها بالأمان وبطلب أهل الذعاة والفساد، فأنكاهم عقوبة، فسكنت الدهماء وأمنت السبيل ومشى السيارة وخاف أهل الأذى والذعارة، وقتلوا حيثما ثقفوا، وطلبوا أين توجهوا. وأمر بقطع شرب المسكر وكل ما ظهر من المنكر، ونشر العدل وأذاعه، واستوت الأمور واعتدلت، واشتدت المملكة وقويت. وأمن كل خائف كان يتولى شيئاً من خدمة زيادة الله ومن بقي من أهل بيته وعبيده ومواليه وموالي آبائه ومن كان يتصل بأسبابهم، فآمنوا وظهروا وانتشروا، واتصلوا به وبرجاله، ودخلوا في خدمته وأعماله. وولّى قضاء مدينة القيروان محمد بن عمر المروزي، وكان له تشيّع قديم ونظر في الفقه من قول الأئمة عليهم السلام، وجعل إليه تولية القضاة والحكام بسائر البلدان، وكان يكتب في كتبه وسجلاته: من محمد بن عمر قاضي القضاة، وكان توليته إياه في أول شهر رمضان من سنة ست وتسعين ومائتين، وأمر بجمع ما ظهر من

أموال زيادة الله وعبيده وسلاحه ودوابه ومن بقي له من الجواري، فجمع ذلك على ما ظهر منه من غير أن يطالب فيه أحداً واجتمع له من الجواري اللاتي كنّ لزيادة الله جماعة لهن جمال ومقدار، فسأل عن من يكفلهن ويحوطهن، فذكرت له امرأة كانت عند زيادة الله تقوم عليهن يقال لها روند، فأحضرها إليه وأعطاها وأحسن إليها وأمرها بحفظهن والقيام عليهن وإقامة ما يجب لهن وأن ترفع إليه ذلك ليأمر لهن بكل ما يصلحهن فقالت: أيها السيد الكريم أعزك الله، أمرت بأمر وشرطت القيام عليهن ورفع ما يحتجن إليه ويصلحهن إليك والذي يصلحهنّ ما عُوِّدْنَه وجَرَيْنِ عليه وغُذين به ونَشأن فيه، قال: وما هو؟ قالت: الطعام الطيب، قال: يقام لهن من ذلك أفضل ما كنّ يعرفن منه، قالت: واللباس الحسن والفرش والدثار والوطاء الليّن، قال: يقام لهن من ذلك ما يعرفن وفوقه، قالت: وشيئان آخران إن أذن السيد فيهما ذكرتهما، قال: أذكري ما بدا لك، قالت: عودن الشراب، قال: هذا شيء لا يجدنه عندنا، فاجعلي لهن من التوسعة عليهن ما يكون عوضاً لهن منه، قالت: ويردن من الرجال ما يريده الرجال منهن، قال: هذا لمولاهن وهو عن قريب يأتي إليهن إن شاء الله تعالى، فأحْسني لهن القول في ذلك والوعد به وقومي عليهن، وأمر لها بكل ما أرادته لهن من طعام ولباس وفرش ودثار ونفقة على أفضل ما عرفن من ذلك. وما نظر إلى واحدة منهن ولا عرف لها صفة إلا بالخبر.

ولما حضرت الجمعة أمر بإقامتها، وقدم خطيباً بجامع رقادة وخطيباً بجامع القيروان، وكتب بذلك إلى البلدان، وأمر في الخطبة بالصلاة

على محمد وعلى آله وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعلى الحسن والحسين وعلى فاطمة الزهراء صلوات الله عليهم أجمعين، وأمر يوم دخل بالأذان بحيّ على خير العمل. وأمر بضرب السكة، ولم ينقش فيها اسماً لأحد ولكنه جعل مكان الأسماء من وجه: «بلغت حجة الله» ومن وجه آخر: «تفرق أعداء الله»، ونقش سكة أخرى جعل فيها مكان ذلك: «الحمد لله رب العالمين»، ونقش على السلاح: «عدة في سبيل الله»؛ ووسم الخيل: «الملك لله» ونقش في حص خاتمه: «فتوكل على الله، إنك على الحق المبين»؛ وفي الخاتم الذي يطبع به كتبه: «وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم».

وأقا على ما كان عليه من لباس الدون من الثياب والخشن، لم يغيّر ذلك ولا غيّره أحد من رجاله، وكانوا إذا قيل لهم: البسوا، قالوا: ما نلبس لباس الجبارين. وبقوا على ما أجراهم عليه واعتادوه، وهم على ذلك في سعة من دنياهم وقد ملكوا وأفادوا مما أفاء الله عليهم نعماً كثيرة ودنيا واسعة عريضة، وهم في ذلك على حالهم من التواضع والكفاف إلا فيما يقوون به على الجهاد من الخيل والسلاح والعدة، فإنهم كان لهم من ذلك ما لم يكن لأحد مثله، وذلك أن جميع ما كان في خزائن بني الأغلب من ذلك وعند جميع رجالهم انتقل إليهم وصار في أيديهم مما أفاءه الله عليهم. وكانت عندهم خيول لم يرَ الناس مثلها فيما رأوه جودةً وعتقاً وفراهة وصلاحاً، ليس فيها ساقط ولا منها ضعيف.

وكان قد خلف المعروف بأبي المقارع أبا القاسم الحسن بن أحمد ابن نافذ والقوم الذي كانوا معه بطبنة، بايكجان، فكتب إليه بالقدوم،

فلما قدم إليه ودخل عليه قام فسلم عليه، وكان ذلك عادته فيمن يدخل إليه ممن بعد عهده عنه، وإذا سلّم عليه المسلِم ممن يدخل إليه يقبّل يده فقبّل هو أيضاً يده، وأقام كذلك على ما أجراه بكتامة، وكان أبو المقارع يقول له وهو بايكجان إذا رآه يفعل ذلك: إذا فتح الله عليك إفريقية وصرت إليها قطعت هذه العادة ولم تستعملها، فإن أهل إفريقية لا يعرفون ذلك من أمرائهم ولا يصلحون عليه، فيقول له: إذا كان ذلك استعملنا لهم ما يصلحهم إن شاء الله؛ فلمّا دخل عليه وقام إليه قال له: يا سيدي، ألم يكن بيني وبينك ترك هذا وأنه لا يصلح في هذا المكان؟ قال له: يا أبا القاسم الحق يصلح في كل مكان.

وكان هذا نسخة الكتاب الذي كتبه إلى البلدان بالأمان:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله محمد النبي وعلى أهل بيته الطاهرين؛ أما بعد فالحمد لله الناصر لأوليائه لما سبق لهم من وعده، والخاذل لأعدائه بعد الإعذار إليهم بوعيده، الذي لم يجمع بين أنصار الحق وأتباع الباطل في موطن من مواطن التحاكم إلا وهبَ لأنصار دينه النصر وأيّدهم بالعز وأنزل بأعدائه البؤس والنقمة والدمار والهلكة، إظهاراً لفضل منزلة الحق عنده، وإذلالاً لمن عَنَدَ عن سبيله وصدف عن حقه، حمداً يرضاه ويتقبله ويحسن المزيد عليه من فضله. وإني لم أزل بحمد الله ونعمة مذ قمت لله بواجب حقه ذاباً عن دينه، طالباً ثأر أوليائه، آمراً بالمعروف داعياً إليه، وأنهي عن المنكر وأحذر منه، وأحيي ما أماته الظالمون من معالم الحق، وأجاهد أعداء الله المارقين المغتصبين حق آل رسول الله ﷺ، وأقدم الموعظة إلى بني الأغلب والإنذار بانتقاص أطرافهم، وتطرق

مدائنهم، طمعاً في إنابتهم إلى الحق، ورجوعهم إليه، وإقرارهم به، ودخولهم تحت لوائه. متوقفاً عن التقحم عليهم رجاء حقن دماء المسلمين، فكلما ازددت في الرفق بهم بصيرة، ازدادوا في الضلال تمادياً، وعلى ظلم عباد الله تعاوناً، وعلى المعاصي جرأة، وفي الغي إقداماً، وبالإملاء لهم اغتراراً قد اتخذوا مال الله دولاً، وعباده بينهم خولاً، لا يرجعون إلى تقية، ولا يرعون لله إلاً ولا ذمة. فلما يئست من إنابتهم وانقطع طمعي من توبتهم، رأيت أنه لا يسعني ترك مناجزتهم، فقصدت ببعض جيوشي المنصورة وعساكري المؤيدة مجتمع جيوشهم بالأريس، واثقاً بالله، متوكلاً عليه، منتجزاً ما وعد أولياءه في من نصب لهم وعاداهم وتولى سواهم فمنح الله أولياء دينه أكتافهم فقتلوهم أبرح القتل في كل وادٍ ومغارات ومدخل، وتفرق من سلم منهم شذوذاً، قد استأصل الله شأفتهم، وكسر شوكتهم، واجتاح ناجمهم، وَوَصَلَ فَلُّهم إلى المخذول زيادة الله فأسلم ملكه، وخرج هارباً قد أوبقته ذنوبه ومعصيته، وأسلم أهله وماله وولده وأهل بيته، وكان في فراره أعظم الخيرة للمسلمين في حقن دمائهم، وقطع ظلمة وجوره عنهم، فسدلت على حرمه ستر العفاف وحفظت منهن ما لم يحفظه من دمائهن احتساباً لثواب الله واتباعاً لقوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] بعد أن كنت عزمت على الانصراف لأخفف الوطأة على أهل القيروان رفقاً بهم، وإعذاراً إليهم، حتى أتاني رسولهم، وتلقاني علماؤهم وشيوخهم، يسألونني الأمان لهم، والحوطة عليهم، ويرغبون في ذلك إلي، فأجبت سؤالهم، وحققت آمالهم وسكنت دهماءهم،

وشملت بالأمان البريء والنطف، والبر والفاجر منهم ومن غيرهم بعد أن أحاطت بهم العساكر المنصورة والجيوش المؤيدة، وتلافيت نفرة النافر، وقبلت فيئة الراجع، وأقلت المستقيل طلباً لعظيم ثواب الله الجزيل، وأنتم معشر أهل بلد كذا داخلون فيما أدخلتم فيه، وصائرون من الأمان والحفظ والحوطة إلى ما أصرتهم إليه، وما قبلتم ذلك وما أقبلتم عليه، وعرفتم فضل النعمة عليكم به، فاسمعوا وأطيعوا، واثبتوا وأجيبوا، واحمدوا الله ربكم على ما وهب لكم ودافع عنكم، وكونوا في الحق أعواناً، وعلى إماتة الباطل أنصاراً، تظفروا بحظكم، واشكروا الله على إنعامه عليكم، يدم لكم ذلكم ويزدكم، ولا تكفروا فيوقع بأسه بكم، فإنه يقول وهو أصدق القائلين: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] .

وزاد في نسخة هذا الكتاب إلى أهل صقلية: وأنتم معشر أهل جزيرة صقلية أحق بما أوليته من المعروف والإحسان وأزديته، وأولى به وأقرب إليه، لقرب داركم من دار المشركين، ولجهادكم الكفرة الظالمين، وسوف أملأ إن شاء الله جزيرتكم خيلاً ورجلاً من المؤمنين الذين يجاهدون في الله حق جهاده، فيعز الله بهم الدين والمسلمين، ويذلك بهم الشرك والمشركين، والحول والقوة لله العلي العظيم، وهو حسبننا ونعم الوكيل.

فلما قرئت كتبه في البلدان أمن أهلها واطمأنوا وسكنوا وشكروا وهدأت روعاتهم، وأتوه وفوداً من كل بلد يشكرون له ويهنئونه، ورأوا من عدله ورفقه وحسن سياسته ما زادهم غبطة وسروراً به.

ذكر مسير زيادة الله ووصوله إلى المشرق وأخباره إلى أن هلك

ولما خرج زيادة الله من رقادة، خرج معه وجوه رجاله وعبيده وحماته ممن كان قد حضر في وقت خروجه وتقدم إليه في الخروج معه ولحق به من لم يكن في الحضرة بعد ذلك ممن عرف به وخاف على نفسه، ولحق به أيضاً ابن أبي الأغلب فيمن انضم إليه ممن انهزم معه من مدينة الأربس، فاجتمع معه خلق عظيم، فسار بهم حتى أتى مدينة طرابلس فدخلها، وقصد إلى دار الإمارة فنزلها، وافترق رجاله في المدينة، وعالمه عليها يومئذٍ ابن قرهب، ولم ير عبدَ الله بن الصانع معه، فتحقق عنده ما كان يرمى به من مكاتبة أبي عبد الله.

وكان ابن الصانع قد وتر جماعة رجال زيادة الله وعاداهم وحسدوه لقربه منه وغلبته على أمره، فأطبقوا بأجمعهم عليه وحققوا عند زيادة الله مكاتبته لأبي عبد الله ولم يكن كاتَبه، إلا أنهم شنعوا ذلك عليه ليقتلوه فلم يقبل ذلك منهم فيه. وأتوه برجل ممن كان صار إلى أبي عبد الله، فشهد عليه بذلك فرد شهادته ودفعه إليه فقتل، فيئسوا من بغيه عنده إلا أنهم كانوا قد انطووا على عداوته وبغضه، وكان سبب تخلفه عن الخروج مع زيادة الله لأنه خافهم على نفسه، فلما لم يخرج معه أكثروا

القول فيه عنده وحققوه وصدقهم هو وندم على تركه إياه.

وكان عبدُ الله بن الصانع قد ركب البحر من سوسة في مركب كان له هناك يريد صقلية، فصرفته الريح إلى طرابلس، فبينا زيادة الله بها إذ حط المركب وأرسى مراسيه، فنزل ابن الصانع لما علم أن زيادة الله هناك، وأتاه وأراه أنه قصد إليه، فأدخله إليه فأدناه وقربه وعاتبه في تخلفه، فاعتذر إليه بأنه كانت معه ثقلة وأنه لم يطق حملها في البر، فكأن ذلك قد أذهب عنه كثيراً مما ظن به، فاغتمّ رجاله لذلك وساءهم تقريبه إياه وكذبوا قوله وأتوه ببعض من كان في المركب فأخبره أنه لم يكن يريد إلا صقلية، فعلم أنه لم يكن كاتب أبا عبد الله وأنه لو كان كاتبه لأقام بإفريقية، وعلم أن قصده إلى صقلية إنما كان خوفاً على نفسه من رجاله؛ ورأى تغيرهم عليه، وعلم أنهم لا يصلحون له معه، وخاف أن ينفتق عليه منهم من أجل ذلك فتق، فانقبض عنه بعض الانقباض وقال له: أردت أن تلقيني في يد الشيعي وعملت علي، قال: وكيف ذلك يا سيدي؟ قال: ألم تقل لي وأشرت علي يوم أردت الخروج بالمقام، وقد انحلت عساكري وتفرق أصحابي، فما أردت بهذا إلا أن ترحلني، قال: معاذ الله ما أردت إلا تسديد حالك وأن تقفو أثر سلفك، فقد حوصر جدك زيادة الله بالقصر القديم اثنتي عشرة سنة ثم كان الفتح له. فلم يقبل ذلك منه وأقصاه وأبعده، فألحّ عليه فيه من كان معه من رجاله حتى خاف أن يفسد أمرهم عليه من أجله، فأمر به فقتل. وأقام زيادة الله بطرابلس أياماً كثيرة.

وكان أبو العباس أخو أبي عبد الله لما هرب من الحبس تسلل فصار

إلى طرابلس، فلحقه زيادة الله بها، وكان زيادة الله لما أتي به برقادة حبسه، فلما زحف إليه مدلج خرج يومئذٍ مع جماعة أهل السجن، فاستخفى بمدينة القيروان مدة وطُلب وجُعل عليه الرصد، فخاف إن خرج إلى ناحية أبي عبد الله أن يظفر به، فتسلل إلى أن وصل إلى طرابلس، فلما وصل إليها زيادة الله أخبر بخبره وأتي به إليه فقال له: قد أمكننا الله منك، وقرره هل هو أخو أبي عبد الله فأنكر ذلك وقال: أصلح الله الأمير، إنما أنا رجل تاجر قدمت من المشرق ببضاعة فبغيت عندك فأخذت واعتقلت وحيل بيني وبين نعمتي، ولو كنت الرجل الذي نسبت إليه بسبيل لكنت قصدت إليه وسرت نحوه، ولكن لما تخلصت من السجن قصدت إلى بلدي، قال له: فإذا كان هذا هكذا فسر معنا حتى نوصلك إلى بلدك ونعرف صدق ما قلت وما قيل فيك منكذبه، قال: أعز الله الأمير، إنك قد وسمتني بهذه السمة ونُسبت عندك إلى ما نُسبتُ إليه، وأنت تصل إلى موضع يحكم فيه غيرك، فأخاف أن أؤخذ فأحبس فأهلك دون أن يُتَبَيَّنَ أمري، وأمر المشرق بعيد وبلدي منقطع، فاتق الله فيّ ولا تعرض بي إلى الهلاك، فقال له: لا يخلو أمرك من أن يكون كما قيل فيك أو كما قلت، ونحن نبقيك، فإن كان الأمر على ما قيل فيك وكنت للصنيعة موضعاً فستحفظنا فيمن خلفناه، وإن كنت كما قلت لم نتعرض لإثمك. وخلى سبيله.

وكان المهدي عليه السلام قد أمر بمن خَلَّفَهُ من الحُرم والخدم أن يأتوه، فأتي بهم شيخ من ثقاته وأوليائه يقال له أبو جعفر الخزري، فوافى أيضاً زيادة الله بطرابلس وهم معه، وكان يجتمع مع أبي العباس قبل قدوم زيادة الله وبعد قدومه بالمسجد الجامع فيتناظران في العلم بحضرة أهل

المسجد ويظهر كل واحد منهما خلاف صاحبه والطعن عليه والبراءة منه ويكفره، فلم يكن بطن بالخزري مما هو عليه ولا أنه إليه، ودخل إلى زيادة الله وسلم عليه، وكان يظهر الغم به والتوجع لأمره. وخرج زيادة الله يوم خرج من مدينة طرابلس فمشى تحت ركابه وهو يبكي ويُسيل دموعه على لحيته ويقول: لمن خلقتنا يا سيد العرب، وزيادة الله يُسمعه خيراً ويقبل عليه، فقيل له بعد ذلك: قد يكون الكلام تصنعاً، فمن أين كانت لك الدموع وكيف تهيأ لك البكاء؟ قال: والله إن كان ذلك إلا غماً بخلاصه ونجاته.

ولما خرج زيادة الله من مدينة طرابلس مشى معه شيوخها ووجوهها، فلما خرج من باب المدينة صرفهم وقال: أغلقوا باب مدينتكم على أنفسكم ولا تفتحوها لأحد إن رجع من ورائي إليكم. وسار فلما أبعد بدا له في أمر أبي العباس فأراد قتله فرد ابن قرهب في طلبه ليأتيه به، فأتى ابن قرهب مدينة طرابلس - وهو كان عاملها - فلم يفتحوا له وقالوا: قد أمرنا الأمير أن لا نفتح لأحد، قال: فأخرجوا إليّ الرجل، قالوا: ما نعرف أين هو؛ فلما يئس منهم مضى فلحق بزيادة الله فأخبره الخبر فأعرض عنه وسار.

وكان زيادة الله قد نقم على إبراهيم بن أبي الأغلب ما أراده من العقد بمدينة القيروان، واتصل به قوله لأهله فيه، فاطرحه وأعرض عنه. وكان أبو المصعب ابن زرارة مائلاً إلى ابن أبي الأغلب، فأعرض عنه أيضاً زيادة الله، واتصل أنهما يقعان فيه وينالان منه. وسعي بهما عنده وقيل: هذا قولهما فيك وهما معك وفي قبضتك، فكيف بهما إن وصلا إلى

مصر؟ سينالان منك ويشهرانك بسوء وينسبان إليك كل قبيح. فعزم على قتلهما، وكان ذلك وقد قرب من مصر. واتصل بهما الخبر فهربا في الليل إلى الإسكندرية واستجارا بعاملها فأجارهما ووجه بهما في الوقت إلى مصر فدخلاها قبل زيادة الله، وانتهى ذلك إليه وعلم أنهما سيقعان فيه عند عامل مصر وكان العامل يومئذٍ عليها عيسى النوشري فوصلا إليه فنالا من زيادة الله عنده وأخبراه بسوء حاله وبأن ذلك كان سبب زواله من إفريقية وأنه يمني نفسه بمصر، فوقع ذلك من النوشري موقعاً، وعزم على أن يحول بينه وبين الدخول إلى مصر إلى أن يكتب فيها إلى بغداد ويأتي جوابه.

وكان زيادة الله قد بعث إلى من كاتبه بمصر سراً يستخبر حال ابن أبي الأغلب وأبي المصعب، فجاءه الخبر بما كان منهما وما عزم عليه النوشري من منعه دخول مصر، فأرسل ابن القديم بكتاب إلى النوشري يستحله له فيه ويسأله النظر في دار ينزل بها ويخبره أنه مقيم إلى أن ينصرف إليه رسوله. فلما أنفذ ابن القديم بالكتاب سار في إثره فوصل ابن القديم في آخر النهار. فلما قرأ النوشري الكتاب رأى أنه سيقيم حتى يرجع إليه رسوله، وعزم على أن يرسل من غد إليه بالمقام ويخبره أنه لا يمكنه إدخاله مصر إلا عن أمر يأتيه. فلما كان في آخر الليل وافى زيادة الله الجسر، فقام في وجه الحرس فحمل عليهم فكشفهم عن الجسر ودخل الجزيرة بجميع عساكره، وقامت الصيحة بالجزيرة فقطع دونه الجسر الثاني، واتصل الخبر بالنوشري فتغير على ابن القديم، فحلف له ما عنده علم من ذلك ولا فارقه إلا على المقام إلى أن يرد إليه بكتابه، فأصبح الصبح وزيادة الله قائم بعسكره على الجسر الثاني وقد

قطع دونه، واجتمع النوشري مع أبي العباس ابن بسطام صاحب خراج مصر يومئذٍ فشاوره فيما يعمل فقال له ابن بسطام: هذا رجل قد غلب على الجزيرة وصار فيها ومعه عسكر ضخم وأن باينته حاربك منها وصرت معه محصوراً، وجاز الجزيرة دونك؛ ولكن أنا أتلطف لك في هذا. فركب قارباً وأتى زيادة الله فعاتبه فيما صنع وقال: بينما أنت تبغي رضاء أمير المؤمنين عنك ونصرته إياك إلى أن أخذت تتغلب على أطرافه ويتصل به مثل هذا عنك، وأراه في ذلك النصيحة وأنه قد صرف عنه النوشري، فاعتذر زيادة الله إليه وقال: ما كان ذلك شيئاً قصدته ولكني قمت من الموضع ليلاً لأقرب من المدينة ويكون دخولي أول النهار فسبقتني مقدمة العسكر فكان من أمرهم ما قد كان. فانصرف عنه إلى أن يُصلح له ذلك وأنزل عامة رجاله بالجزيرة ورد الجسر وأدخل فأنزل في دار ابن الجصاص، وافترق رجاله بمصر فنزلوا في نواحيها، ثم خرج منها بعد مقام ثمانية أيام يريد بغداد، فتخلف عنه عامة من كان معه، فلما انتهى إلى الرملة كتب إلى بغداد فيهم، فورد الكتاب إلى النوشري بإلحاقهم به فألحقوا به.

وكان معه خصيان لهم وضاءة فرغب فيهم رجال من رجال بني العباس وسألوه بيعهم منهم، فامتنع من ذلك، ووصل إلى الرقة فكتب فيه أولئك الذين امتنع عليهم من بيع الخدم منهم فألزم القة ولم يؤذن له في الوصول إلى بغداد، فأقام بها وتحلل عنه رجاله وتفرقوا. وأدمن شرب الخمر والارتكاب على الملاهي، فدسوا عليه محتسباً احتسب عليه عند قاضي الرقة في أولئك الخدم الذين سئلوا منه، وشهدوا عليه أن يفجر بهم، فباعهم عليه قاضي الرقة، واتضعت أحواله. وكان ابن

القديم قيّمه على أمواله وصاحب نفقاته، فاقتعد له بأموال كثيرة وانتزع منه وتنحى عنه وطالبه بما اقتعد به له فلجأ ابن القديم إلى من منعه منه وقال: إن يكن له عليه حق فيخاصمه إلى القاضي؛ فأقام بالرقة مدة يتلطف في الوصول إلى بغداد فلم يمكنه ذلك، وسعى قوم به واحتالوا في صرفه وقيل: يُرَدّ إلى المغرب فيطلب بثأر نفسه ويقوم على من قام عليه، فكتب له بذلك وصرف وأمر النوشري وابن بسطام بتقويته بالرجال والأموال، فلما وصل إلى مصر أخرجه النوشري إلى ذات الحَمَام وقال له: تكون مُبْرَزاً حتى يأتيك الأموال والرجال، وأخرج معه رجالاً من عنده فاجتمع إليه ممن كان قد قدم معه من أهل إفريقية وجماعة. وجعل النوشري يمطله بالأموال ويسوّفه بالرجال ويتحفه بالتحف ويرسل إليه الهدايا ويحمل إليه أحمال الخمر، فعكف عليها وأدمن شربها وأنفق ما كان معه إلى أن فرغ من يديه وتحلل عنه من قدم من الرجال إليه. وكتب النوشري إلى بغداد بسوء حاله وتهتكه، فكتب إليه أن يصرفه، فلم يأت الجواب بذلك حتى باع أكثر ما كان معه وأنفقه. وكان في حين قدومه من الرقة قد قدم بهيئة وعدة وشق مصر وقد تقلد بسيفين وأظهر ما كان بقي معه من السلاح والعدة، فباع ذلك كله في مقامه بذات الحمام وأنفقه. واعتل علة قيل إنها كانت من سم دس إليه فأسقيه ورهل لها بدنه وتساقط أكثر شعر رأسه ولحيته، وانصرف إلى مصر وخرج منها إلى بيت المقدس فمات بها، فيقال إنه لما دفن انهار به لحده، وذلك أنه وافق مكان مرحاض قديم فسقط به فلم يمكن إخراجه فترك كذلك ودفن.

ذكر انصراف أبي عبد الله إلى سجلماسة وافتتاحه إياها وخروج المهدي بالله عليه السلام منها

ولما استقر أمر أبي عبد الله برقادة، أتاه أخوه محمد أبو العباس بن أحمد، فسرَّ أبا عبد الله قدومه، وكان أسنّ منه وأنفذ وأحدّ ذهناً وأكثر تفنناً في العلوم وأسبق منه سابقة، وأبو عبد الله أرجح وزناً وأورع من أبي العباس، وكان أبو عبد الله يعظمه وإذا دخل عليه قام إليه على قدميه ومكث قائماً حتى يأذن له في الجلوس، وإذا دخل هو عليه قبّل يده ووقف حتى يأمره فيجلس. فلما وصل أبو العباس أتاه شيوخ أهل القيروان فسلموا عليه وهنّأوا أبا عبد الله بقدومه ورأوا تعظيمه له فعظم في أعينهم، وانتصب يدعو الناس، وجمع فقهاء أهل القيروان فناظرهم في الإمامة وفيما خالفوا فيه أهل البيت عليهم السلام من علم الفتيا فقطعهم في ذلك، فعجبوا من نفاذه. وأخذ أبو عبد الله في هيئة الخروج إلى سجلماسة، فلما تهيأت أموره وفرغ من حوائجه كتب كتاباً جعله نسخاً وبعث كل نسخة منه إلى كل منبر بإفريقية فقرئت عليه، وهذه نسخة عما جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه عوني وعليه توكلي؛ أما بعد، فإن الله له الحمد قد شرف منزلة العدل، وأعلى قده، وأسنى ذكره، واختاره

لنفسه ورضيَه، وصيّره ذريعة إلى الهدى، وسبباً إلى التقوى، وأقامه ميزاناً بين خلقه، وجعل به صلاح كل شيء ونظامه وقوامه وتمامه، فكان من عدله أنه أوجب الثواب لمن أطاعه، العقاب لمن عصاه، ولم يوجب للمسيء ثواب المحسن، ولا للمحسن عقاب المسيء، بل جازى كل ساعٍ على قدر سعيه، وأعطى كل عامل أجر عمله، عدلاً منه كما قال جل ثناؤه في محكم كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٩-٤١] وأوجب إظهار منهاج الحق، وإبطال سنن الجور، والغَشم على من مكّنه الله في بلاده وعباده، ومنحه ما منحني من النصرة والتأييد والعز والتمكين على أعدائه وأعداء رسوله ﷺ، حتى انقادت إليّ الأمور بأزمّتها، وسلست أعنّتها، وإن أولى الناس بنصرة الحق والذب عنه من فهّمه الله ما فهّمني من علم كتابه، ومواقع وعده ووعيده، وعلم أنه مسؤول عن رعيته، ومأمور بالعدل فيها، والإحسان إليها؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] فجعل تبارك وتعالى الحكم بالعدل أمراً عاماً دخل فيه الشريف والوضيع والصغير والكبير، ثم دل سول الله ﷺ أمته على الشيئين المنجيين من الضلال والهاديين إلى الرشاد، وأمر ﷺ أمته بالتمسك بهما وقال: إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله وعترتي أهلَ البيت؛ فمن تعلق بكتاب الله وعمل به وتصرف مع أوامره وزواجره فقد تعلق بالحجة

العظمى، ومن تمسك بسنة رسول الله ﷺ وسيرة أهل بيته وسلك سبيلهم فقد استمسك بالعروة الوثقى، وقاداه معاً إلى النجاة، ووقفا به على محجة الحق الذي أمر الله به نبيّه داود عليه السلام أن يحكم به فقالوا: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦] فأمر نبيه داود عليه السلام بالحكم بالحق الذي هو أزكى الأعمال، وأشرف الذخائر، وأرجح كل موزون، وأفضل كل مخزون لديه، ثم أخبر رسول الله ﷺ بمنازل أهل العدل والحق في الآخرة فقال: المقسطون على منابر من نور يوم القيامة. وقد علم الله - وكفى به مستشهداً وعليمر - أن نيتي وطويتي وإرادتي إقامة العدل في الرعية، والإحسان إليها، والرفق بها، وأن تكاءد إظهار ذلك وحمله باضطراب الحيل وانتقال الأمر وجنايات فرطت من السفهاء والغوغاء، فلم أستجز في ذلك كلمة وإن عظم موقع فعلهم مني، لا آخذ البريء بالنطف، ولا الحليم بالسفيه، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فلا تستكثروا رحمكم الله ما تكاءد من ذلك فإن لكل بادرة وهنة، ولكل هدم غباراً، ثم تسكن الأمور، وتستقر في قرارها، وتثبت في نظامها، ولا تستوحشوا من سرعة خروجي من بلدكم وانقشاعي عنكم، فإني إنما آثرت ترك الدعة والسعة، وهجرت مهاد الخفض ورفاهة العيش، ابتغاء ثواب الله، وطلب الزلفى لديه، في لمّ شعثكم، وضم نشركم، وما يعود نفعه عليكم في يومكم وغدكم، وعاجلكم وآجلكم. فاسكنوا إلى ذلك واطمئنوا إليه، وكونوا على إحياء

الحق أنصاراً، وعلى إماتة الباطل أعواناً، فإني إرجو من الله أن يبلغني إظهار العدل وإحياء الحق إلى غاية يشرب لها الذئب والشاة من منهل، ويجتمع العدو مع عدوه في منزل، رضى بالحق واصطلاحاً عليه، ويسلك السفر والسيارة بلا خفير ولا سفير من لدن أرض مصر إلى أقى حجر بالمغرب إن شاء الله تعالى. وقد أمرت تمام بن معارك بالرفق بالرعي والإحسان إليها، وإفاضة العدل والعرف فيها، وقبض يد الجور وإزالة الغشم عنها، وإنفاذ نسخة كتابي هذا إلى جميع العمال في جميع أعمال إفريقية ليأتمّوا به، وينتهوا إلى أمري فيه، ويقفوا عنده ولا يتجاوزوه، إن شاء الله والسلام.

واستخلف على إفريقية أبا زاكي تمام بن معارك وأقام معه أخوه أبو العباس، وخرج أبو عبد الله في عامة عسكره وسائر أهل الحرب من رجال إفريقية، وأقاممع أبي زاكي روابط وفي سائر البلدان كذلك.

وخرج إلى سجلماسة في شهر رمضان سنة ست وتسعين ومائتين فأخذ الجادة ولم يعدل إلى كتامة. واهتز أهل المغرب لخروجه، وارتفعت القبائل وزالت عن طريقه وخافت زناتة أن يقع بها لما كان تواعدها به لقتل من قتلوه من رجاله، فأتاه محمد بن خزر، وهو يومئذٍ أمير زناتة كلها وقبائل البربر بأسرها، فوافاه بطبنة يسأله الأمان متطارحاً عليه وملقياً نحوه بيديه، فأمّنه وَقَوْمَهُ وأخذ عليه العهد، واستحلفه أن لا يفتك ولا يغدر ولا يتعدى على أحد من الأولياء في حياته ولا بعد وفاته، وأطلق سبيله. وسار قاصداً إلى سجلماسة وأوقع بقبائل عرضت في طريقه واتصل به عنها سوء حال، حتى إذا قرب من سجلماسة وانتهى

خبره إلى اليسع بن مدرار صاحب أمرها وأنه إليه قصد، وقد كان زيادة الله كتب إليه بخبر المهدي عليه السلام وصفته وأنه الذي يدعو إليه أبو عبد الله، فلم يكن في ذلك إليه مكروه؛ فلما قرب منه أبو عبد الله أرسل إليه فسأله عن نسبه وحاله وهل إليه قصد أبو عبد الله، فاعترف له بالنسب عليه السلام إذ لم يسعه إنكاره، ولغز له في ذكر أبي عبد الله فقال: ما رأيته ولا أعرفه، وكذلك كان لم يره - وقد ذكرنا كيف كان ابتداء أمره - وقال له: إنما أنا رجل تاجر، وذلك أنه خافه على نفسه ورأى منه إنكاراً لقدوم أبي عبد الله وأنفة من دخوله بلده، فغلظ له في القول في ذلك، فلزم له كلامه الأول، فأنزل الله عز وجل له الهيبة في قلبه، والجلالة في عينه، فلم يمتحنه بأكثر من أن جعله في دار وجعل عليه حرساً، وجعل ابنه القائم بأمر الله عليه السلام كذلك في دار أخرى ليفرق بينهما ويختبر قول كل واحد منهما، وكان قولهما واحداً، وتعاظم أن ينالهما بمكروه لمكانهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدّق الذي قيل له، وأقرّ به، وخذله الله وحَرَمَه خيرهما أحوجَ ما كان إليه، وأقربَ ما هو منه، وامتحن رجالاً كانوا معهما بالعذاب ليقرّوا عليهما فلم يكن منهم إلاّ ما قالاه.

واتصل الخبر بأبي عبد الله فعظم ذلك عليه، وكان يقول لمن يدعوه من الناس إن المهدي سيظهر الله أمره ويعزّ نصره، وأرسل رسلاً من الخدم إلى اليسع بن مدرار وكتب إليه كتاباً يؤمنه جانبه ويتلطف له فيه ويذكر أنه إنما قدملحاجة ولم يقدم لحرب، ووعده الجميل من نفسه والبر والإكرام، وأكّد ذلك له وبالغ فيه. فلما وصلت الرسل بكتابه إليه رمى به بعد أن علم ما فيه وأمر بقتلهم فقتلوا. واتصل ذلك بأبي عبد الله

فعاوده ولاطفه خوفاً من أن يكون منه إلى المهدي عليه السلام ما يكرهه، وأعرض له عن ذكره تقية عليه، وكان منه آخراً مثل ما كان أولاً، ولجّ في طغيانه، فعاوده ثالثة، فأصرَّ وتمادى على غيه، فاستعان بالله وعبأ عساكره ودنا من المدينة، فخرج إليه اليسع بن مدرار بمن معه، فما لبث أن اقتحمته الخيل في المدينة بعد أن ناوشها ساعة وقتلوا من أصحابه جماعة. وكان ذلك قرب المساء فاختلط الظلام ورجع العسكر فنزل حيث كان، فلما جن الليل هرب ابن مدرار في بني عمه وأهل بيته، وبات أبو عبد الله ومن معه تلك الليلة في غم عظيم لا يعلمون ما صنع بالمهدي عليه السلام، ولم يمكنهم دخول المدينة في الليل، ولم يعلموا بهرب الفاسق حتى أصبحوا، فخرج إليهم وجوه أهل المدينة فأعلموهم بذلك ودخلوا معهم إلى المكان الذي كان فيه المهدي عليه السلام فاستخرجوه، واستخرجوا القائم، فكانت في الناس مسرّة عظيمة استفزتهم وكادت تطيش لها عقولهم. وقُرِّبَ لهما عليهما السلام فرَسَان فركباهما، وحف المؤمنون بهما، والدعاة يمشون حولهما وأبو عبد الله يمشي بين يدي الإمام ويقول: هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون، ويحمد الله عز وجل ويشكره ويبكي من شدة الفرح، حتى وصل الإمام إلى فازة وقد فرشت له، فدخل وأمر بطلب اليسع بن مدرار، فخرجت العساكر في طلبه، وأقام عليه السلام إلى أن راح النهار، فخرج إلى المؤمنين وفُرش له أمام الفازة، وحفوا به يسمعون قوله ويبكون ويحمدون الله على ما بلّغهم إياه من رؤيته، وهو في ذلك يثني عليهم ويذكر فضلهم وما أعدّ الله لهم من جزيل ثوابه ويعدهم بالفضل ويبشرهم بدرك خير الدنيا

والآخرة إلى أن أذن المؤذن بصلاة المغرب، فقام فصلى بهم، فقرأ في الأولى بفاتحة الكتاب وسورة القَدْر وفي الثانية بفاتحة الكتاب وسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وأتم الصلاة ودخل الفازة وانصرف الناس.

وأدركت العساكر اليسع بن مدرار ومن هرب معه من أهل بيته، فأخذوهم وأتوا بهم إليه عليه السلام فأمر بضرب اليسع بن مدرار بالسوط، فضرب أربعين سوطاً وطيف به العسكر وفي مدينة سجلماسة، واستصفى أمواله وأموال من أعان عليه وهرب معه من أهل بيته، وقتله بعد ذلك، وقتلهم، وأمن سائر الناس وأهل البلد، واستعمل عليهم عاملاً وأتته القبائل من نواحيها ففعل مثل ذلك فيهم، وأقام بسجلماسة أربعين يوماً ثم نهض بجميع العساكر يريد إفريقية.

وكانت أخبار أبي عبد الله قد انقطعت عن إفريقية وأرجفوا به وكثرت الأشانيع عليه فلم يكن بأوشك من أن قدم عليهم البريد بفتح سجلماسة وبما كان من أمر المهدي عليه السلام وبكتاب من أبي عبد الله جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه عوني وعليه توكلي؛ أما بعد فالحمد لله الهادي إلى توحيده بآثار صنعته، والداعي إلى معرفته ببراهين حجته، الذي سبقت مشيئته وجرى حكمه بإعزاز أوليائه الذين نصروا دينه، وقاموا بحقه، وإذلال أعدائه الذين عندوا عليه وكفروا نعمته، فلم ينصب لأوليائه ناصب إلا كان طاعناً في الدين الذي نصروه، وعدواً للحق الذي أقاموه، لأنهم يقدمون الحجة أمام سيوفهم، والدعاء قبل مناجزتهم، والأناة دون معاجلتهم، ثقة منهم بأن المحجوج من فارق

سبيلهم، والمفلول من خرج من جماعتهم، فالأناة تظهر حقهم، وتكشف باطل أعدائهم، فمن عاد إلى الحق تلقوا بالقبول إنابته، ومن أقام على باطله ناجزوه بعد إقامة الحجة عليه، ولم يجعل الله لمصرّ إقالة ولا لمعاند مقيم على الذنب توبة، بل يحل بأسه ونقمته به، والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً. وقد كنت قصدت سجلماسة على بعد شقتها، وتراخي مزارها، ووعر سبيلها، لأقضي حق الله جل ذكره، وأؤدي فريضة من فرائضه، وأظهر حجة من حججه في أرضه، واستنقذ ابن رسول الله ﷺ من بين أوباش وطغام، طلباً لرضوانه وزلفى لديه، فلما دنوت منها قدمت الأمان إلى الخائن اليسع بن مدرار كعادتي في البلدان، ونويت أخذ حاجتي منها، والانصراف عنها، من غير أن أهيج فتنة أو أثير غباراً. وكتبت إليه كتاب الأخ إلى أخيه أستعطفه فيه وأؤمنه وأدعوه إلى عقد الإخاء بيني وبينه في إخراج ابن رسول الله ﷺ، رغبة في الإبقاء عليه وعلى مؤازريه، وحفظاً لما ضيّعوه، فمنع الخائن جانبه، وقطب حاجبه، وأظهر الأنفة من دخول رسلي عليه، وأمر بقتلهم خلافاً منه لسنّة رسول الله ﷺ وما جرت بهالعادات في جميع أهل الملل من ترك العرض بالمكروه للرسل. ثم استظهرتُ الحجة عليه، فأعدت رسلاً إليه طمعاً في إجابته ورجوعه إلى ما هو أسلم له وأعود عليه، فاعتقل الرسل في المطابق وثقلهم بالحديد، وحبس ابن رسول الله ﷺ في أضيق المحابس ووكل به الحرس ومنع من إدخال الطعام إليه، فبقي بأبي هو وأمي في المحبس أياماً مواصلاً للصيام لعدم الطعام ثم استشعر فعل نفسه في حبسه إياه في ذلك المحبس فنقله إلى أضيق منه وتواعده

بالقتل طلباً منه لذحل رسول الله ﷺ، فبعثت إليه رسلاً أعده بالإمساك عن الحرب والانصراف عنه من غير أن أشرب ماء من مدينته، فكلما ازددت عليه إلحاحاً في طلبه زاد إلحاحاً في الامتناع مما حاولته منه عتواً على الله وإصراراً على الكبائر واستكباراً وجهلاً وخساراً، فخسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين. فلما رأيت ما عزم عليه الخائن من محاربة الله عز وجل في ولد رسول الله ﷺ وأمل فيه أملاً كاذباً، ولله فيه وعد صادق، وظن فيه ظناً خائباً، ولله فيه قضاء نافذ، وأبى إلاّ التكسع في جهالته، والتتايع في ضلالته، وآثر إطلاق الحرب من عقالها، وإثارة غبارها، فهززت أنصار الحق على مناجزته، فوجدت نياتهم بالله مستحكمة وبصائرهم نافذة في محاربته، فدلفت بهم إليه مستنجزاً ما وعد الله أولياءه في أعدائه، وجالت الخيل جولة وعاودت كرة بعد كرة عليهم طعناً بالرماح وضرباً بالسيوف ورشقاً بالسهام، فلما مس الفسقة ألم القتل والجراح، وأدارت الحرب عليهم رحاها، وكلمتهم أنيابها، وعلموا أن ليس لهم من الله عاصم، ولا من أوليائه موئل، ولّوا منهزمين على أعقابهم، فأخرج الفاسق الخائن راغماً ما كنت طلبت منه راغباً، وحجز الظلام بيننا وبينهم؛ ثم عاودهم أنصار الحق من غد فأخرجوهم، وتحكم الأولياء في مدينتهم، فأضرموا نار الحرب فيها، وجاسُوا ديارها، واتخذ الخائن الليل سجفاً فهرب تحت ظلامه على وجهه إلى بلد السودان لا يلوي على أهل ولا ولد، فمنعت حرمته وصنتها، وأسدلت ستر العاف عليها، احتساباً لثواب الله جل ذكره. ثم قفوت آثر الخائن بنفسي في طلبه عشرة أيام حتى أمكن الله منه

بلا عقد ولا عهد، فأتيت به في وثاق إلى ولي الله ليكون عظة لأهل الشقاق والنفاق وعبرة للعالمين، والحمد لله المعز لدينه، والمكرم لأهل حقه، الذي وصل أسباب السعادة بطاعته، وجعل عاجل الفلج والظفر وآجل الثواب والفوز لأوليائه، فإن جادلوا كانت الحجة لهم، وإن حاربوا كان النصر معهم، حمداً قاضياً لحقه، موجباً لمزيده، وأمير المؤمنين ولي الله وابن رسوله على أفضل ما جرت به عادة الله الجميلة عنده في نفسه وولده وأنصار دولته، وهو قادم على بركة الله وسعادته ونصره وتأييده، والسلام.

فلما وصل كتابه هذا إلى أبي زاكي وقرأه أمر به فقرئ على المنبر، وسر الأولياء سروراً عظيم، وأبطل الله شناعات المشنعين وأكذب أقوال المرجفين، وسارت به الأخبار في البلدان وبشرت بظهور المهدي عليه السلام، فسر بذلك الولي وكُبت له العدو واستشرف له عامة الناس وانتظروا قدومه وتطلعت أعينهم إليه.



ذكر قدوم المهدي عليه الصلاة والسلام من سجلماسة ووصوله إلى إفريقية

وقدم المهدي عليه السلام والقائم عليه السلام معه، والمهدي يومئذٍ حين كمل شبابه لم تبدُ به طالعة من الشيب، والقائم حين طرّ شاربه، وقفل أبو عبد الله معه بجميع العساكر، قد سلم الأمر له، وأوقف الدعاة على أنه الإمام الذي عاد إليه، وعرف جميع المؤمنين به وقال: هذا مولاي ومولاكم وولي أمركم وإمام دهركم ومهديكم المنتظر الذي كنت به أبشر، قد أظهر الله عز وجل أمره كما وعده، وأيدّ حزبه وجنده، وكان من أول ما عاينه الأولياء من براهينه ودلائله ما شاهدوه مما أراده الله عز وجل من إتمام أمره أن الله تبارك وتعالى حماه من عدوه، وقذف الرعب له في قلبه، وهو في موضع حكمه، والسيوف شاحذة عليه، وحزبه وأنصاره يقتلون فيه، فما استطاع أن يناله بمكروه ولا أن يمدّ يده إليه بسوء ولقد أشار عليه بعض من كان معه بقتله وقال له: هؤلاء إنما أتوا إليه فإذا يئسوا منه تفرقوا، وقتلُك إياه يكذّب عندهم قول صاحبهم فيه أنه سيملك ويظهر أمره فاقتله فإن ذلك يكذّب عندهم قول صاحبه ويفرق كلمتهم وجمعهم، فخذله الله عز وجل من أن يقبل هذا الرأي من قائله والمشير به عليه، وقتل الله صاحب هذا الرأي على يدي وليه، وأمكنه من ذمة عدوه.

وأقبل المهدي عليه السلام فلما حاذى بلد كتامة مال إليه ووصل إلى إيكجان وأمر بإحضار الأموال التي كانت على أيدي الدعاة والمشايخ، وكانوا قد دفنوها هناك، فأحضروها إليه وأمر بقبضها منهم وشدها أحمالاً وقدم بها، فكان ذلك من أول ما أحال القلوب الفاسدة وتوهموا أنهم يكونون كما عودهم أبو عبد الله: يأمرون وينهون ويقبضون ويبسطون.

ولما وصل المهدي عليه السلام إلى إيكجان أمر أبا عبد الله أن يكتب كتاباً إلى أبي زاكي بوصوله فكتبه وأنفذ به فرانقاً فقرئ على المنبر، وكانت نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم؛ أما بعد، فالحمد لله ناصر دينه، ومعزّ وليّه، الذي أظهر دينه على سائر الأديان، ووليَّه على من ناصبه من أهل الظلم والعدوان؛ وكتابي هذا إليك من إيكجان دار الهجرة ومستقر الإيمان، وقد وصل الإمام مولانا وسيدنا المهدي بالله عليه السلام وولده، بلغ الله به أفضل آماله إليه في جميع أولياء الدين، وكافة من معه من المؤمنين، أحسنَ وصول وأهنأه وأسرَّه وأرضاه، فأضاء بقدومه دار هجرة أوليائه، وسر المؤمنين والمؤمنات الذين خلفهم العذر عن الجهاد ومن كنا أقمنا لضبط المكان به، وأقبلوا من كل حدب ينسلون إليه، ومن كل أفق يسعون نحوه، يتبركون بالنظر إليه ويستشفون برؤيته، ويحمدون الله على أن بلغهم إنجاز وعده، وظهور أمره؛ وبادروا إليه بأمانات الله التي في أيديهم، وخرجوا من حقوق الله عليهم له، ووضعت بحمد الله الحرب وأوزارها، وأطفأ الله نارها، وأهلك من أثارها، وبدد من سعى نحو دين الله بها، وفرق أنصارها. وأمير المؤمنين على النهوض إلى

إفريقية، ويقدر بتوفيق الله وتقديره وعونه وتيسيره أن يكون وصوله يوم الخميس لعشرين من شهر ربيع الآخر من سنة سبع وتسعين ومائتين إن شاء الله، فاعلم ذلك وكن على أهبة منه ومن قلك، واحمدوا الله على ما أولاكم من ذلك وأن فُسح في آجالكم إلى أن بَلغتموه، وارغبوا إليه في تمام ذلك لكم بالنظر إلى مولاكم ورضاه عنكم والسلام.

فلما وصل الكتاب بذلك وقرئ وانتشر الخبر به تضاعف سرور الأولياء، وانقطعت الشناعات وذهب الإرجاف، واستعد الناس وتأهبوا للقائه، وتطلعت أعينهم نحوه، واستشرفت أنفسهم إليه وإلى قدومه، ووصل عليه السلام في يوم الخميس الذي ذكر في كتابه أنه يصل فيه، ولقيه الناس على قدر إمكانهم، وتلقاه أهل القيروان باحتفالهم، وكان فيهم يومئذٍ شيوخ ووجوه وفقهاء لهم مناظر وعقول ورجاحة وألسنة، وكذلك كان من قَبْلهم من قبل ذلك الزمان، فانقطع ذلك منهم بظهور أولياء الله فيهم ومن كل من خالف أمرهم من أمثالهم، وكسف الله نورهم وأمات بهاءهم وأذهب بهجتهم لئلا يكون إلاَّ في أولياء الله ومن اتبعهم، ولا يكون الفخر والسناء والجمال والكمال والبهاء إلاَّ لهم، كما تُذهب الشمسُ إذا طلعت ضوء الكواكب وأشخاصها وتغلب على نور المصابيح وتكسف شعاعها، ولئلا يكون مع الحق شبهة ولا لأهله إشكال تقع من أجله الريبة. وأقبل المهدي عليه السلام في أنصار دولته واحتفال عساكر أوليائه، كبدر التمام وسراج الظلام، وأبو عبد الله في جماعة الدعاة، والشيوخ والأولياء يسعون بين يديه، والقائم عليه السلام خلف ظهره، والمواكب والعساكر قد أخذت طول فحص القيروان

وعرضه، فسلم عليه شيوخ أهل القيروان بالخلافة والإمامة، وهنّأوه بالفتح والسلامة، فرد عليهم رداً جميلاً وقال لهم خيراً، وأمرهم بالانصراف فانصرفوا، وقال لأبي عبد الله وما كان بين يديه: كأنّا رأينا قوماً يشبهون أهل مدائن المشرق، فأما من رأيناه من أهل المغرب فما هم إلاَّ كالبوادي. ونزل بقصر برقادة ونزل الأولياء دورهم، وافترقوا إلى مواضعهم، وسار كل قوم من أهل إفريقية إلى مكانهم، وتوجهوا عن أمره وإذنه إلى بلدانهم.

ولما أصبح صباح يوم الجمعة من غد يوم وصوله، أخرج توقيعاً أمر أن يدعى به على المنابر وأنفذه إلى خطيبَيْ رقادة والقيروان بالدعاء له بعد الصلاة على محمد ﷺ وعلى علي عليه السلام وفاطمة والحسنوالحسين وعلى الأئمة من ولده الذي كان أَمَرَ أبو عبد الله به، وكان ذلك التوقيع بالدعاء: اللهم فصلْ على عبدك وخليفتك القائم بأمر عبادك في بلادك، عبد الله أبي محمد الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه خلفائك الراشدين المهديين، الذين كانوا يقضون بالحق وبه يعدلون، اللهم وكما اصطفيته لولايتك، واخترته لخلافتك، وجعلته لدينك عصمة عماداً، ولبريّتك موئلاً وملاذ، فانصره على أعدائك المارقين، واشف به صدور المؤمنين، وافتح له مشارق الأرض ومغاربها، كما وعدته، وأيّده على العصاة الظالمين، إله الخلق رب العالمين.

وأمر بكتاب آخر فكتب وقرئ على المنبر بالقيروان ووجه به نسخاً إلى البلدان وقرئ على المنابر، وجاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين؛ من عبد الله أبي محمد الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين إلى أشياعه من المؤمنين وجميع المسلمين: سلام عليكم، فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذي لا إله إلاَّ هو ويسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله ﷺ. أما بعد، فالحمد لله الذي رفع علم الحق وأعزَّ أهله، ونكَّس ألوية الباطل وأذل حزبه، القادر فلا يعارض في قدرته، العزيز فلا يغالب في أمره، الناصر لدينه الذي رضيه لنفسه، وشرفه بأكرم أنبيائه عليه وأعلاهم درجة عنده، وأشرفهم منزلة وأقربهم وسيلة لديه، محمد ﷺ، حامل حكمته، ومستودع غيبه، وما يكون بعده من كيد الكائدين، وخيانة الخائنين، وظلم الظالمين لأهل بيته، إلى ما سبق من وعده له فيهم بالنصر والتأييد، والعز والتمكين، كما قال في محكم كتابه وتنزيله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ٥-٦]. وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ۝١٠٦﴾ [الأنبياء: ١٠٥-١٠٦]. فأنجز جل ثناؤه وتقدست أسماؤه وعده لرسوله ﷺ وعلى آله برد إرث النبوة ومقاليد الإمامة إلى عترة نبيه، وأعَزَّ الدين والمؤمنين وأنقذهم من الهلكة في كل سكون وحركة بعبد الله أبي محمد الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين، وأظهر بهجة الإسلام وجماله بقيامه وأخذ تراث جده النبي وأبيه الوصي صلوات الله عليهما، وجعل أولياءه وأنصار حقه أولي

البصائر النافذة من سادات العرب وأنجاد كتامة، فألقت الإمامة عصاها في دارها، وقرت عينها، وأنسَتْ وحشتها، واستقر قرارها، وصار أمير المؤمنين طوداً منيعاً وجبلاً راسياً على الأرض وظلاً ظليلاً لأهلها، فثبت به وطأة الهدى، ولكن إليه نَفور التقوى، وتقوّم به ما كان متأوداً ن عودها، وتوطد ما كان بها متخلخلاً من قواعدها، وانبرم ما كان منحلاً من حبلها، واجتمع ما كان مفترقاً من شملها، وتلاءم ما كان متشعثاً منها، ببركة أمير المؤمنين وبمن نقيبته، وسعد نجمه، وهبوب ريحه، فداوى الإسلام من الداء العضال، ورتق من فتوقه ما كان منخرقاً، وجبر من كسره ما كان لا يجبر، ولاءم من صدعه ما كان لا يلاءم، فهو مفتاح الرحمة ودليل الخير، ذباً عن الحق وحياطة للدين وعناية بأمر المسلمين وبعدنظر فيما يقطع به أماني المبطلين، والحمد لله رب العالمين. فلم يحاول أمير المؤمنين بحمد الله كبيراً عسيراً إلاَّ يسره الله، ولا صعباً إلاَّ ذلله، ولا وعراً إلاَّ سهَّله، فأصبحت الكلمة به مجتمعة، والألفة متصلة، والدهماء ساكنة، وقواصي الأرض وأدانيها منه آمنة، ووليه عزيزاً، وعدوه ذليلاً مقموعاً؛ فكل من قدح بزنده، واحتطب في حبله، محكوم له بالنصر، ومقضي له بالظفر؛ وكل من نكث عليه، وخان أمانته، ونقض عهده، وخفر ذمته، فقد باء بغضب من الله في الخلاف عليه وإطلاق الفتنة من عقالها؛ وكل من أوقد عليه الحرب أحرقته بنارها، وكلمته بأظفارها؛ وكل من تمسك بطاعته قد تمسك بالعروة الوثقى، وفاز في الآخرة والأولى؛ وكل من التمس وليجة غيرها فقد خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين، فاحمدوا الله الذي

بلّغكم زمان أمير المؤمنين واختصكم ببركة أيامه وسعادة دولته، فلتنبسط آمالكم ويكثر بالثقة بعدله استبشاركم، ولينفسح للمعرفة بحسن نظره رجاؤكم، ويشتد تمسككم بحبل طاعته وأسباب ولايته، فإنه لا يتصل بين الله وبين عباده سبب إلاّ بمحبتهم لآل محمد رسول الله ﷺ؛ قال الله جل ذكره: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] وقال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ أهل بيتي فيكم كَمَثَلِ سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق» وجددوا الشكر لله على ما منحكم من رأفة أمير المؤمنين ورحمته، وتعاهده لأموركم، وتغمده لكم؛ فإن الشكر أحرس حفيظة لمُلابس نعمه، وأحفظ مؤتمن لفواضل مننه، وأبعث مستمد لمؤتنف صنعه ومواد مزيده. وأمير المؤمنين يسأل الله ولي الإحسان والنعم، والإفضال والمنن، أن يصلي على محمد مفتاح رحمته، والمبلغ لرسالته، الذي حباه بجميع فواضله، ومزيد كرامته، وأن يشعره خشيته ومراقبته، وأن ينفذ بالتوفيق عزائمه، وأن يلهمه فيما استرعاه وناط به من أمر عباده، أفضل ما ألهم راشداً من خلفائه، وأن يعينه على صالح نيته، وأن يبتليه أحسن بلائه، ويوفقه للعمل بطاعته، والقيام بحقه، حتى يقمع الكفر والإلحاد، ويدوّخ أطراف البلاد، وأن يجعله خير إمام أحسن إلى رعيته، ورعيته خير رعية أدت حق إمامها، فإن التوفيق به والمزيد من عنده، والسـلام.

فدعي له بالخلافة يوم الجمعة لتسع ليالٍ بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين برقادة والقيروان وبالقصر القديم، وقرئ هذا الكتاب على منبر القيروان وأنفذ إلى الأمصار مع الدعاة، فدعي له في

مستقبل ذلك، وقرئ على المنابر بعد الوصول إليها، فابتهج الناس وسروا بذلك وأكثروا الدعاء له، وجاءت وفود البلدان من كل جهة ومكان على قدر قرب منازلهم، وواصل الجلوس للناس، ووصل أبو جعفر الخزري بالحرم من مدينة طرابلس أحسن وصول.

وكان إذا جلس عليه السلام في مجلسه أذن لخاصة أوليائه فدخلوا إليه، فإذا قضى حوائجهم أذن لمن هو دونهم، وربما أذن للعامة فيدخلون إليه ويسلمون عليه. وقال الشعراء فيه ومدحوه وكان أول من مدحه منهم وأنشده من شعراء إفريقية سعدون الورجيني، وكان شاعراً يمدح بني الأغلب ويلي أعمالهم، وكان قد أسر ببلد الروم وفدي، واستؤذن له في الدخول عليه وإنشاده ما قال فيه، وكان ذلك بعقب وصول الحرم وقد جلس وهنأه الأولياء بسلامتهم، فدخل إليه وأنشده الشعر الذي يقول فيه:

قف بالمطيِّ على مرابع دور لبست معالمهنّ ثوب دثور
لعبت بها حتى محت آثارها ريحان: ريح صبا وريح دبور

فلما انتهى إلى قوله:

وسفيهةٍ هبت تصدُّ عن النوى ويدُ النوى ملكتْ عنانَ مسيري
خافت عليَّ من الخطوبِ لأنَّني من قبلُ غبتُ فأبْتُ بعدَ دُهور
ثم اجتمعنا بعد ذاك فيا لها مأسورةٌ جمعت على مأسور

فلما قال هذا استعبر المهدي عليه السلام وتلقى دموعه بكمه، فسكت سعدون، وأومأ إليه أن قل، فمر فيها حتى انتهى إلى قوله:

أعَنِ ابن فاطمة تصدين امرءاً بنت النبي وعترة التطهير
كفيّ عن التشبيط إني زائرٌ من أهل بيت الوحي خير مزور

فقال له أبو عبد الله: - وكان قائماً بين يدي المهدي -: صدقت هو أفضل العالمين، فقبل سعدون الأرض بين يدي المهدي عليه السلام ومر فيها حتى انتهى إلى قوله:

هذا أمير المؤمنين تضعضعتْ لقدومه أركان كل أمير
هذا الإمام الفاطميّ ومن به أمنت مغاربها من المحذور
والشرق ليس لشامه وعراقه من مهرب من جيشه المنصور
حتى يفوز من الخلافة بالمنى ويفاز منه بعدله المنشور

فقال أمير المؤمنين: ما شاء الله، ومر فيها إلى أن ذكر أبا عبد الله فقال:

يا من تخيّر من خيار دعاته أرجاهمُ للعسر والميسور
حتى استمال إليه كل قبيلة ورمى إليه قياد كل غَشور
أشبهت موسى وهو حَيّتُكَ التي تُلقى فتلقف كلّ إفك سحور

فنظر المهدي إلى أبي عبد الله وتبسم، فقبّل أبو عبد الله الأرض قال للورجيني: أنا دون ذلك بُعْدَ ما بين السماء والأرض، فأمر له أمير المؤمنين بصلة جزيلة وبأن يُجْرَى عليه لكل عام، ووصله أبو عبد الله أيضاً.

ومدح المهدي من الشعراء ما يخرج ذكرهم وما مدحوه به عن هذا

الكتاب، واستقر به ﷺ قرار الملك وسكنت به الدهماء وأمنت السبل واعتدلت الأمور واطمأنت واستقامت. ولما عرض عليه أولئك الجواري اصطفى بعضهن وأعطى القائم ﷺ منهن. وفرق أكثرهن على وجوه كتامة، وقسم عليهم أعمال إفريقية وجعل لكل عسكر من كتامة ناحية منها ومن غيرها من البلدان حيث انتهت طاعته وبلغ أمره، واستعمل وجوههم على مدائنها، وأمرهم بالتزين والتجمل، فلبسوا خير الثياب وحلوا سروجهم ولجمهم وأظهروا زياً حسناً، فخرجوا من الحلية التي كانوا عليها واتسعت أموالهم وكثرت نعمهم لما أصابوا من الأعمال وملكوا من البلدان. وأجرى عليهم مع ذلك الصلات وأسبغ عليهم العطاء ودوّن الدواوين وأمر باقتضاء واجب الأموال. وكان ديوان الخراج قد أحرق لما هرب زيادة الله، فأمر به فأحيي، ونصب ديواناً للكشف وديواناً للضياع وديواناً لأموال الهاربين مع زيادة الله، واستصفى أموالهم وترك ما كان لنسائهم لهن وأمر بسترهن وحفظهن، واتخذ العبيد من السودان والروم، ونصب ديواناً للعطاء، وأمر بإثبات الموالي وأبناء العبيد فيه ومن سارع إلى الرزق، واكتتب به، فاجتمع من ذلك عرائف كثيرة. وأمر بطلب نهب رقادة، فاستُرجع كثير منه من أيدي الناس وطلبوا فيه، واجتمعت منه أموال كثيرة، وجعل بيتاً للمال وأقام له ديواناً، فقيل إن صاحب بيت المال رفع إليه بتحصيل ما أخرجه من الصلات في شهر رمضان فبلغ ذلك مائة ألف دينار، وكأن صاحب بيت المال استكثر ذلك فقال المهدي ﷺ: لو بلّغني الله عز وجل إلى حقي ونلت أملي ما رضيت مثل هذا العطاء بأسره لرجل واحد من أوليائي.

وكان عليه السلام جواداً بالمال، وذلك فيما يؤثر قديماً من صفة المهدي عليه السلام ، وكان مع ذلك لا يضيع أقل شيء من المال ولا يستهين به أن يذهب ولا يترك منه واجباً أن يصرف في غير حق، وتلك شيم الأئمة عليهم السلام ، فقد روي أن رجلاً أتى الحسن بن علي عليه السلام يستجديه، ولم يكن عرفه إلاّ أنه دُل عليه، فرآه يطلب شيئاً طفيفاً كان له من حقه فأحجم عن سؤاله وداخله اليأس منه ثم تجاسر عليه فسأله فأعطاه عليه السلام فوق أمله أضعافاً فقال له: والله ما أدري ممَّ أعجب أمن إعطائك هذا أم من طلبك ما رأيتك آنفاً طلبته؛ وأخبره بما اعترض عليه من اليأس منه فقال له: يا هذا إن الذي رأيتنا طلبناه في الحقير الذي رأيت أراد أن يغبننا عقولنا فأبينا، وأنت سألتنا كرمنا فأعطيناك.

وكان من بقي من بني الأغلب ومواليهم ورجالهم وأتباعهم قد خافوا جانبه مع ما أعطاهم أبو عبد الله من الأمان وأكد لهم ذلك المهدي عليه السلام ، وكان وجوههم وأكابرهم يدخلون فيمن يدخل إليه إذا جلس فيقربهم ويدنيهم ويؤنسهم ويحسن إليهم. واستعمل جماعة منهم وأخرج في البعوث والعساكر من كان يصلح لذلك من جميعهم وأحلّهم محل الأولياء، فأمنوا لذلك واطمأنوا وسكنت روعاتهم، فنظر الناس من ضبطه وحزمه وحسن سياسته وفضله وكرمه إلى ما لم يظنوا أنهم يرونه منه. ونشر العدل وأقامه وأمر به فيما بعد وقرب ودنا ونأى منه؛ وأنصف من المظالم وكان يباشر سماعها بنفسه ويأخذ رقاع أهلها إذا ركب وإذا جلس ويسمع منهم شكواهم وينصفهم من ظلاماتهم بوجه الحق وسبيل العدل، فمالت إليه قلوب الخاصة والعامة وعظم في

عيونهم ولوبهم، ونُسي أبو عبد الله وانكسف ما كان ظهر من نوره لنور المهدي عليه السلام، ومال الناس عنه إليه، وهو في كل ذلك يظهر من التواضع والتذلل والخشوع والخضوع والقول بفضله والتأكيد لأمره والدعاء له أضعاف ما كان يقول فيه قبل ذلك ويفعله مما يدل على صدق النية وصفاء الطوية واعتقاد الواجب، إلى أن كان من أمره ما سنذكره في الباب الذي بعد هذا الباب إن شاء الله تعالى.



ذكر أخبار المنافقين على المهدي عليه السلام وما آلت أمورهم إليه

ولما هيّأ الله عز وجل لوليه ما ذكرناه وأيدّه من توفيقه وعونه بما وصفناه، تداخل من ذلك أبا العباس أخا أبي عبد الله فساد، وذلك أنه تطعّم بحضرة أبي عبد الله لما قدم من طرابلس عليه رياسةً لتقديمه إياه وتعظيمه له وما كان يظهر من إجلاله مما قدمنا ذكره لما كان عليه أبو عبد الله من صالح الأدب وحسن النية إذ كان أكبر سناً منه وأقدم سابقة، فرعى له ذلك وحفظه وأوجب له من أجله ما يوجبه. ثم سار إلى سجلماسة فكانت أمور الناس إليه وأعينهم نحوه والأمر في ذلك أمره والنهي نهيه، فلما عدم ذلك فسدت نيته وتداخله الحسد واستفزه الشيطان فأغواه، وزين له فاستهواه، فجعل ينكر ذلك ويزري على المهدي عليه السلام عند أبي عبد الله أخيه، ويقع فيه، وأبو عبد الله يتعاظم ذلك وينكره عليه إنكار من يجله ولا يأتي مكروهاً إليه، وأبو العباس يزيد في ذلك ويستطيل ويؤكد أسباب النفاق ويرمز ويقول، ثم واجه أبا عبد الله بالبيان، وفاوضه في الإعلان، وقال له: ملكت أمراً وانطاع لك فجئت بمن أزالك عنه وأخرجك منه وتنقصك واضطهدك، وكان أقل الواجب لك أن يدعك وما كنت عليه فتكون الآمر والناهي ويشتغل إن

شاء بشغل نفسه دون أن يهتضمك أو يقيمك من الذل في مثل هذا المقام؛ فلم يزل يبكته بمثل هذا الكلام ويقرعه ويكرره إلى أن أثر فيه وحمله على أن شافَهَ المهدي ببعضه وجعله على طريق النصيحة له فقال: يا مولانا إن كتامة قوم قد قومتُهم بتقويم، وأجريتهم على ترتيب وتعليم، وتم لي منهم بذلك ما أردت، وبلغت بذلك منهم ما قصدت، وهذا الذي فعلته أنت بهم من إعطائهم الأموال، وتوليتهم الأعمال، وما أمرتهم به من اللباس والحلي فساد لهم، للخروج من عادتهم، فلو تركتهم كما كانوا إلى أن أباشرهم دونك، آمرهم ونهاهم وأقيمهم على ما عوّدتهم وأجريهم على آدابي لهم وألي حروبك بهم وأحكم الأمور دونك فيهم وفي غيرهم، فتكون وادعاً في قصرك لا يصل أحد منهم ولا من غيرهم إليك، ليكون ذلك أهيب لك وأشد لأمرك وأرجى لما ترجوه من تمامه وكماله وانتظامه. فلما سمع ذلك منه المهدي عليه السلام أيقن بما تداخله وعلم من حيث أتي، فرد عليه في ذلك رداً لطيفاً ولم يُرِهِ أنه علم بحاله، وأوقفه على اليأس مما منّته نفسه.

فلما علم ذلك أبو العباس زاد في إفساده وأصغى هو إليه وعمل سحره فيه، ثم داخل الدعاة والمشايخ - وكانوا يعظمونه لما رأوه من تعظيم أبي عبد الله له وما سمعوه منه من بلاغته وعلمه وتفننه - فأخلد كثير منهم إليه وجعل يرمز لهم بالرمز بعد الرمز إلى أن صرح لمن رأى أن كلامه وقع فيه موقعاً، فطعن لهم في الإمامة وأدخل فيها الشبهة، وجاءهم من موضع محبوبهم ودخل إليهم من جهة مرادهم بأن الذي كان يجب لهم ويستحقونه وينبغي أن يصنع إليهم أضعاف ما صنع بهم،

وذكّرهم انتزاع الأموال من أيديهم وإدخال من أدجل في جملة الرجال معهم من العبيد ومن أهل إفريقي وغيرهم، وجاءهم من ذلك بضروب يطول ذكرها ومعانٍ يقصر الكتاب عن نهايتها، وكل ذلك يتصل بالمهدي عليه السلام وهو معرض عنه، وأبو عبد الله مع ذلك متماثل لم يبلغ مبلغ الجحود ولا صار إلى حد النفاق إلى أن فشا أن أمير المؤمنين قد انتهى ذلك إليه، فقصد أبو العباس إلى أبي عبد الله وإلى من استفسده من أصحابه من طريق التحذير والتخويف على أنفسهم وأنهم إن لم يبادروا الأمر بودر إليهم، فاستحكم ذلك من قلوبهم وزاد في سوء اعتقادهم، وكل ذلك يؤكد مراده ويشد أمره بضروب من الحيل ووجوه من الكيد، إلى أن حمل من استفزه من الدعاة على المباينة بالنفاق والإعلان بالشقاق، فاستخف هارون بن يونس الذي كان يقال له شيخ المشايخ الأربابي إلى أن واجه المهدي بالقول الذي زيّنه له واستفسده من أجله فقال للمهدي مواجهة: إنا قد شككنا في أمرك فأتنا بآية إن كنت المهدي كما قلت؛ فتعاظمه عليه السلام ما أتاه من ذلك، فأوقفه على فساد قوله من كتاب الله جل ذكره وما أتى فيه من ذم الأمم عند سؤالهم أنبياءهم الآيات، وقال له في ذلك من القول ما يطول ذكره، وقد كان للشقي ولمن حمله على ذلك من البرهان في المهدي ما لو تدبروه لاكتفوا به لأن الله عز وجل يقول في كتاب لمثل من سأل نبيه ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣] وقال جل ثناؤه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] فجعل تنزيله جل ثناؤه معجزة نبيه عليه السلام وتأويله معجزة

الأئمة من ولده، فأخبر عن ذلك في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ بما يخرج عن حد هذا الكتاب معانيه وليس إياه قصدنا فنستقصيه.

وقال المهدي لهارون في قوله: «شككنا في أمرك»: ويحك إنكم كنتم أيقنتم واليقين لا يزيله الشك، وهذا الذي ذكره عليه السلام أصل من أصول الدين، فغفل الشقي هارون عنه، وقصر دونه، وجعل يصر على الكفر والنفاق إلى أن استحق القتل، وحَقَّتْ عليه كلمة العذاب، بلزوم الحجة، والإصرار على الكفر والمعصية، فصار إلى غضب الله ولعنته. فلما أيقن أبو العباس والقوم الذين استزلهم بموته، جعل ذلك سبباً للمباينة، وجاءهم من أجله الخوف فأغراهم بترك المداهنة، وقوّى أمر ذلك على أبي عبد الله فقوي واستحكم سوء ظنه بالمهدي، وخلوا للعقد والإبرام واجتمعوا لذلك في دار أبي زاكي تمام بن معارك، فعقدوا العقود وأجمعوا الآراء واحتالوا على أن يفتكوا بالمهدي وينزعوا حق الله من يده ويطفئوا النور الذي جعله الله عز وجل فيه، جرأة على الله عز وجل، وانسلاخاً من الإيمان، وخروجاً من جملة المؤمنين، والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون.

واجتمعت كتامة إلاَّ القليل منهم على ما زيّن اللعين لهم، وكان ممن خالفهم واعتصم بحبل المهدي عليه السلام وكان يأتي بأخبارهم إليه غزوية بن يوسف، فقدمه المهدي عليه السلام على من استعد من العبيد وجمع إليه من سلم من النفاق من المؤمنين واستعدوا للمنافقين على كثرتهم وقل عدد المؤمنين فيهم، فكان أبو حليفة أيضاً في ذلك ممن تثبت في جماعة من المشايخ وباين القوم الباقون بالنفاق وجمعوا الجموع وأحاطوا بقصر

المهدي ليقعوا به، وهو في ذلك منتصب جالس جلد غير مكترث ثقة منه بوعد الله عز وجل، فأيده جل ثناؤه ونصره وفرق جمع من تمالأ عليه وقذف الرعب في قلوبهم فتفرقوا، وكانت في ذلك أخبار يطول بها الكتاب - وقد بنيناه، على الاختصار ورتبناه على الإيجاز - كانت فيها للمهدي براهين ومعجزات ودلائل وآيات بما أظهر الله من نصره وتأييده وألقى من الرعب في قلوب أعدائه ومن تمالأ على الوثوب عليه على كثرة عددهم وقلة من معه، كما نصر عز وجل بالرعب محمداً جده وأيده بنصره وأمده بملائكته.

وكان الذين عقدوا ذلك النفاق، من رجال كتامة مع أبي العباس وأبرموه وتعاونوا عليه يتصل أخبارهم بالمهدي، وهم على ذلك يدخلون عليه ويعتقدون في كل دخلة الفتك به والقبض عليه، فإذا صاروا بين يديه ملئت قلوبهم خوفاً وهيبة وغل الله أيديهم عنه، وهو مع ذلك غير مستعد لهم ولا ملوي بما يتصل به عنهم، ثقة منه بوعد الله عز وجل له وتوكلاً منه عليه وتفويضاً في أمره إليه، فإذا انصرفوا عنه ندموا على تركهم إياه وتواعدوا لما عقدوه في الذي يستقبلونه، فإذا صاروا إليه آل أمرهم إلى ما كان عليه، فإذا كان الليل اجتمعوا عند أبي زاكي، وأبو عبد الله كذلك يدخل معهم وأبو العباس. فنظر المهدي إلى أبي عبد الله يوماً من تلك الأيام وقد لبس ثوبه مقلوباً ثم دخل عليه به كذلك ثلاثة أيام فقال له في الثالثة: يا أبا عبد الله ما هذا الأمر الذي ذهلك وشغلك مثل هذا الشغل في أمر نفسك؟ قال: وما هو يا مولاي؟ قال: أرى قميصك مقلوباً عليك منذ ثلاث ما اهتديت إليه ولا أحسبك نزعته عن نفسك، فنظر فقال: والله يا مولاي ما علمت به. قال: إن هذا لشغل عظيم، فأنت بت

منذ كذا وكذا من الليالي؟ فسكت، قال: أليس في دار أبي زاكي؟ قال: نعم يا مولاي، قال: وما أخرجك من دارك التي أنزلناك بها إلى دار أبي زاكي؟ قال: يا مولاي خفت على نفسي، قال: ممن؟ فسكت، قال: مني؟ قالت: خوّفتَ يا مولاي فخفت، قال: فهل يخاف المرء إلاّ من عدوه؟ قال: أعوذ بالله، قال المهدي عليه السلام: إن المؤمن لا يخاف وليه، فسكت أبو عبد الله وأيقن أنه قد بدت عورته لولي الله ووجبت حجته عليه وبرئ منه وحل قتله لمحاربته إياه، وانصرف. وعلم القوم ما قاله أمير المؤمنين، فأمسكوا عن الدخول إليه وخافوا على أنفسهم منه.

وكان ابن القديم قد داخلهم ووسوس إليهم وأفسدهم واستمالهم بأموال كانت في يديه من أموال زيادة الله وخاف من أمير المؤمنين مطالبته إياه بها، وكان قد ولاّه ديوان البريد وأحسن إليه فكافأه بالخلاف والعقد عليه، وكان ذلك قد اتصل به عنه، فذكر يوماً وهو بين يديه تخلف القوم عنه فقال له: إن شئت يا مولاي أتيتك بهم، قال: وتقدر على ذلك؟ قال: نعم، الساعة، وولى فجاء بهم، فعلم المهدي عليه السلام صحيح كونه معهم ودخوله في جملتهم، فأظهروا البراءة مما قيل فيهم واعتذروا مما تأدّى إليه عنهم فرد في ذلك عليهم رداً جميلاً وأخرج من وجوههم إلى نواحي من البلدان ليفرق جمعهم، فأخرج فيمن أخرج أبا زاكي إلى طرابلس، وكان عمه أبو يوسف عاملاً عليها، فلما وصل إليه كتب إليه بقتله فقتله أبو يوسف عمّه صبراً وبعث برأسه إلى المهدي، وقتل جماعة منهم كذلك بالبلدان وبرقادة بصنوف من القتل؛ وهرب ابن القديم واستخفى وطلبه فظهر عليه وقتل.

وخرج أبو عبد الله وأبو العباس يوماً يريدان قصر المهدي على عادتهما، فحمل غزوية بن يوسف على أبي عبد الله وحبر بن تماشت على أبي العباس برمح في يد كل واحد منهما فقتل عزويةُ أبا عبد الله وحَبر أبا العباس فيما بين القصور، وكان قتلهما يوم الإثنين ضاحية النهار يوم النصف من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين ومائتين، واتفق أن كان قتل أبي زاكي في ذلك اليوم، وأمر المهدي عليه السلام بدفنهما فدفنا في الجبان، وترحم على أبي عبد الله وذكره بخير ولعن أبا العباس وقال فيه سوءاً، فدمّر الله المنافقين وقطع آثارهم بعد الإعذار إليهم ووجوب الحجة عليهم من الله ووليه.

ولقد قيل إنه بعد مشافهتهم بالإعذار وما رأى منهم من التمادي والإصرار دس إلى كل واحد من ينصحه ممن كان يثق به ويميل إليه، فأما أبو عبد الله فكان يترجح ويقدم ويؤخر ويطوي ويظهر، وأما أبو العباس فقال لبعض من عاتبه في ذلك: والله لا تركنا بناء بنيناه بأيدينا وأتعبنا فيه أبداننا وذهبت فيه أعمارنا يسكنه غيرنا ونحن من وراء أبوابه حتى نحلّ في أعاليه أو نلحقه بأسافله. وقال آخر لأبي زاكي مثل ذلك فقال: لا والله لا أكون في قطع أيام تقدمني فيها وارتفع علي ابن راعي البقر - يعني غزوية بن يوسف -. وقال آخر لبعضهم في ذلك فقال: والله لا تركناه - يعني المهدي عليه السلام - حتى يقاسمنا هذه القصور التي نزلنا والأجنة التي حولها بالأشبار ويكون الأمر أمرنا والحكم حكمنا كما كان، ولا رضينا أن نأخذ من تحت يديه كما يأخذ العبيد، بل يكون ما أخذناه بأسيافنا عندنا وتحت أيدينا كما كان، ولنا الفضل فيما نعطيه

منه، في كلام كثير من الرقاعة والحمق والكفر والنفاق كما روي عنهم، إلى أن حقت كلمة العذاب عليهم حتى دمرهم الله أجمعين وصيّرهم حصيداً، خامدين، وحَمَى الله عز وجل وليه من بأسهم وأظفره بهم كما حمى جدَّه محمداً ﷺ من بأس مشركي قريش لما تمالأوا عليه وأعملوا فيه الآراء ليقتلوه على كثرتهم وقلة أعداده وقوتهم وضعف أنصاره، وكان ذلك كذلك في المهدي حذو النعل بالنعل، وعصم الله من عصم من المؤمنين مع وليه وثبتوا على ما كانوا عليه من ولايته بعد أن ندبوا إلى ما أجاب إليه غيرهم من النفاق، وقيل لهم في ذلك وشُبِّه عليهم وخُيِّل إليهم فكانوا يقولون لأبي العباس بحضرة أبي عبد الله إذا قال لهم في ذلك: قد عرفنا هذا الذي دعانا بأنه إمامنا ومولانا ونص عليه بحضرته ودعوت أنت إليه مدة وقلت كما قال، فنحن على ما أخذناه وعرفناه فما الذي يزيلنا عنه؟ فإذا سمع ذلك أبو عبد الله صوّب رأسه وسكت؛ وأما أبو العباس فيناظر بالباطل ويموّه ويكابر، فاستحق لذلك لعنة الله ولعنة أوليائه، ونالت أبا عبد الله عقوبة ما داخله من أجله، عجّلها له الولي في الدنيا واستغفر له في الآخرة لما تقدم من صالح عمله وصحيح نيته، وهذا من قول الله عز وجل: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] وقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠] وما تداخله الغش من الذهب فلا بد له من الذوبان ليحرق النار ما فيه من الغش ويصفو، وأيسر العقوبة ما عجل في الدنيا وأشده عقوبة الآخرة، نعوذ بالله من عقابه وعذابه ونسأله السلام في العاجل والآجل والعصمة وهو الوهاب الكريم.

ذكر من نكث في ذلك الوقت من أهل إفريقية ممن أعطي الأمان وعقوبتهم على النكث والعدوان

وقد ذكرنا ما تقدم من أبي عبد الله أولاً في حين دخوله من الأمان لأهل القيروان ولسائر أهل البلدان ولمن بقي بعد المخذول من بني الأغلب ومن كان في خدمة المخذول ومواليه وأتباعه وما أعطاهم المهدي عليه السلام بعد ذلك ما لزموا الطاعة وأقاموا على الوفاء بالعهد وإحسان المهدي إليهم وإفضاله عليهم.

وكان أول ما بدأ من خلافهم ذلك أن جماعة من بني الأغلب كانوا عند أبي الحسن ابن أبي حجر، وكان من وجوههم ومقدميهم وأسخيائهم، وقد حضر طعامه وهم يأكلون معه إلى أن دخل عليه بعض خاصته فقال: قتل الساعة أبو عبد الله وأبو العباس، فرفع يده من الطعام وضرب المائدة برجله وقال لمن كان معه من أهل بيته: قتلتم والله كلكم، قالوا: وما ذنبنا نحن؟ قال: هذا الذي آمنكم قد قُتل، وهو صاحب هذا الأمر وسبب هذا الملك فكيف بكم وأنتم تعدون في الأعداء، ومن قتل وليّه كان إلى قتل عدوه أسرع؛ فخامر النفاق قلوبهم وسعى بعضهم إلى بعض به وتداخلهم الخوف من أجله. وكان عامتهم بالقصر القديم، فوقع يوماً بين بعض السوقة فيه وبين بعض الكتاميين

شر، فقاموا على الكتاميين فأخرجوهم من القصر وأغلقوا أبوابه، وأصابوا جماعة من الأولياء وأظهروا الخلاف، وذلك بعقب فتنة النفاق التي ذكرنا جملة خبرها. وتصايح من كان حول القصر القديم من كتامة فزحفوا إليه وأحاطوا به فأوقدوا النار على الصومعة ليمدهم أهل القيروان، فجاءهم جماعة منهم، فمن قَبْل أن يصلوا إليهم أخرج بنو الأغلب ما كان عندهم من السلاح والعدة وفرقوا ذلك على أهل النكاية فيهم وركبوا خيلهم وعبوا الخيل والرجالة في داخل القصر بموضع يقال له الميدان به رحبة واسعة وفتحوا باب السعادة وهو بهذا الميدان وخرجوا على من كان عليه من كتامة بدفعة واحدة فقتلوا منهم جماعة ثم واقفوهم ساعة فرفعوهم. وخرج يومئذٍ أبو حليفة، واتصل الخبر بالمهدي عليه السلام فأرسل من رد كتامة عنهم وأظهر الإنكار عليهم وانصرفوا، فأخرج بنو الأغلب فازاتهم وأخبيتهم فضربوها خارجاً من القصر القديم مما يلي رقادة بموضع يقال له الهدف وبرزوا فيها مجاهرين بالمعصية والحرب لولي الله، فأعرض عنهم، وأقاموا كذلك أياماً ثم تحللوا وانصرفوا إلى دورهم واستحقوا القتل بنكثهم ومباينتهم فتركهم المهدي عليه السلام مدة ثم أمر بالقبض على جماعة من وجوههم، فقبض عليهم فقتلوا صبراً على باب رقادة وجعلت رؤوسهم عليه؛ وظن الباقون أن أولئك الذين قتلوا هم كانوا البغية؛ ثم قبض بعد ذلك بمدة على طبقة ثانية منهم فقتلوا، ثم أمر بطلبهم حيث كانوا من البلدان فقتلوا بكل مكان، وتتبع من شذ منهم فحبس، فلم يزالوا محبّسين إلى أن أطلقهم المنصور عليه السلام بعد الفتح منّاً عليهم وَوَصَلَهم وسَيَّرَهم إلى مصر

وذلك حين أطلق أهل السجون. ثم شجر أيضاً بين بعض أهل القيروان وبعض الكتاميين شر بها، فقاموا على من كان بداخلها فقتلوا منهم في ساعة واحدة زهاء سبعمائة رجل، فاتصل الخبر في ذلك الوقت بالمهدي فقال: ألهم عقد أو رئيس في هذا الأمر؟ قيل: لا، وإنما فعل ذلك الغوغاء ومن لا يعرف ولا يوجد لو طلب ولا يؤبه له، فتمثل عليه السلام بقول الشاعر:

احثوا على ديسم من جعد الثرى أبى قضاء الله إلا ما أرى

وأتاه شيوخ القيروان مع المروزي القاضي فاعتذروا من ذلك، فأعرض عنهم ولم يعجل بالعقوبة عليهم مدة، ثم عاقبهم بعد ذلك في أموالهم عقوبة مثلهم إذ لم يعلم الفعلة منهم - وقتل من قتل منهم في مصرهم وبين جماعتهم، ولم يكن ذلك مما عاقبهم صراحاً أنه عقوبة فعلهم ذلك، ولكنه قيل ذلك فيما قيل، والله أعلم به. وقيل إن قوماً عرفوا ممن قتل ذلك اليوم وأثخن في الأولياء، وكانوا يعرفون بذلك، فلم يعرض لهم إذ لم يقم في ذلك بيّنة عليهم ولم يجب في الحكم بالظاهر قتلهم، فخرجوا بأسرهم فيمن خرج مع اللعين الدجال مخلد بن كيداد في فتنته إلى المهدية لينصروه فقدّمهم في جماعة أهل القيروان في يوم يعرف بيوم اللبانة قد كان زحف فيه مما يليها فهزمهم الله فقتلوا كلهم عن آخرهم لم يبقَ أحد منهم إلا في ذلك اليوم وصيَّرهم الله إلى عذابه وعجل منهم انتقامه وأحلَّ بهم بأسه.



ذكر جمل من أخبار المهدي عليه الصلاة والسلام

ولما فرق الله عز وجل جمع الظالمين وقطع شأفة المنافقين وأيد الله أمر وليّه وأعزّه وأظهره، عَهِدَ إلى ابنه محمد أبي القاسم القائم صلوات الله عليه وأجرى أمر كتبه باسمه وسمَّاه ولي عهد المسلمين وكان يظهر السرور به إذا رآه ويتمثل كثيراً إذا طلع عليه فيقول:

مبارك الطلعة ميمونها يصلح للدنيا وللدينِ

وتغيب بقية المنافقين فصاروا إلى بلد كتامة فأقاموا غلاماً حدثاً من أخس أهل بيت فيهم يقال له بنو ماظنت من أورسية فزعموا أنه المهدي ثم نحلوه النبوة وزعموا أن الوحي يأتيه وأن الكتب من الله تنزل عليه، ونصبوا له دعاة كدعاة أبي عبد الله يتكلمون بمثل ألسنتهم وعلى ترتيبهم وقالوا: أبو عبد الله حي لم يمت؛ وأباحوا الزنا والمحارم وجاؤوا بتخليط عظيم. وأطبق عامة من بلد كتامة على ذلك وزحفوا إلى ميلة فأخذوها وذلك كله بمدة قريبة فأخرج إليهم المهدي القائم صلى الله عليهما في عساكر فقاتلوه فهزمهم حتى انتهى بهم إلى البحر وقتل منهم خلقاً عظيماً، وأناب إليه عامتهم فأمنهم وأخذ الغلام الذي نصبوه فأتى به إلى المهدي عليه السلام قتله.

ثم خالف أهل مدينة طرابلس فأخرج إليها القائم فحاصرها مدة ثم افتتحها عنوة، فعفا عن عامتها من أهلها وقتل الذين عقدوا الخلاف بها من أكابرها واستصفى أموالهم. وبعث بعثاً إلى برقة فافتتحها ثم خالفوا عليه فأرسل إليها بعثاً فافتتحها وأمر بأكابر أهلها الذين عقدوا الخلاف فقتلهم، وفعل مثل ذلك بأهل صقلية بعد أن خالفوا أيضاً وعقدوا لابن قرهب وأتي به إليه فقتله.

وغزا مصر القائم عليه السلام غزوتين وملك الفيوم والصعيد ولم يحل بينه وبين مصر إلاّ النيل وما خبأه الله عز وجل لمن جعل ذلك له من ولده.

وافتتح مدائن كثيرة من مدائن الروم، وخالف أهل تاهرت عليه فغزاهم وافتتحها وقتلمن أكابرها من أثار الخلاف بها.

وابتنى المهدية المأثور ذكرها في الكتب المعروفة بالبيضاء التي قيل إن الدجال لا يصل إليها ولا يدخلها، فكانت كما جاءت الروايات فيها وكانت من أعجب الآثار؛ بناها بالحجارة وبوّبها بأبواب الحديد المحض وانتقل إليها في شوال سنة ثمان وثلاثمائة وسكنها. ورأى الناس معجزات مما هيأ الله عز وجل في بنائها ويسّر له من الصعب منها، وزاد إليها في البحر، واحتفر في داخلها عيناً خرقها بها وجعل لها مخرجاً إلى البحر وقفلاً عليه. وكان إذا نظر إلى حصنها وأبوابها وإعجاب الناس بذلك يقول: هذا كله عدة لساعة واحدة من نهار، فكان ذلك كما قال لما انتهى إليها مخلد اللعين ووقف عليها ساعة وكان آخر عهده بها إلى أن رفع مصلوباً على سورها، فعزَ أمر المهدي بها وافتتح كثيراً من البلدان منها وأقام الدعوة بها.

والثالث أمر المغرب فأخرج إليه القائم فأصلحه ودمّر من نجم فيه وانصرف بعد بلوغ ما أراده.

ورفع إليه أن قوماً ممن أجاب إلى دعوته مرقوا عن الدين واستحلوا المحارم ورفضوا الظاهر، فعاقبهم على قدر ذنوبهم، فقتل قوماً منهم وسجن آخرين وخلدهم في المحابس مصفدين إلى أن فنوا عن آخرهم، وامتحن المؤمنين وأغلق باب رحمته مدة من السنين، ثم عطف رحمته على الطالبين وبلغ المطيعين منازل الصالحين، ولم يزل الله عز وجل يوليه من التوفيق والتسديد ويمنحه من النصر والتأييد ما هو أهله لديه ومستحقه عنده وبحسب ما سبق له به وعهده إلى أن قبضه الله إليه لما أعدّ له من الكرامة لديه صلوات الله عليه أفضل صلاة صلاها وأطهرها وأزكاها وأعلاها، فنعي صبيحة يوم الثلاثاء لعشر ليالٍ خلون من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وكانت مدة ظهور إمامته عليه السلام من يوم وصل إلى راقادة إلى اليوم الذي نعي فيه أربعاً وعشرين سنة وشهراً واحداً وعشرين يوماً.



ذكر جمل من القول بعد المهدي عليه الصلاة والسلام إلى حين الوقت الذي ألف هذا الكتاب فيه

وقام القائم بأمر الله صلوات الله عليه بعد المهدي مقامه واقتفى سيرته وآثاره وأحكامه وأذن في البكاء عليه وواصل الحزن لفقده وأدامه من بعده أيام حياته، لم يرقد سريراً ولا ركب دابة ولا توطأ مهاداً ولا خرج من باب قصره أسفاً عليه وترددأ لذكره. وكان من صنع الله له كمثل ما كان للمهدي أبيه عليه السلام أنه افتتح مدائن الروم وغزاهم بناحية الأندلس وأتى بفيئهم وسبيهم ومغنمهم.

وثار عليه غير ثائر فأمكنه الله عز وجل منه، وكان فيمن ثار عليه فاسق يعرف بابن طالوت وينتمي إلى قريش وكان من بعض كتّاب العراق فصار إلى ناحية طرابلس فزعم للبربر أنه ابن المهدي، فقاموا معه واتبعوه فزحف إلى مدينة طرابلس ليأخذها في عدد عظيم، فقاتلوه وهزموه وقتلوا جماعة من أصحابه، ثم تبيّن للبربر أمره فقتلوه وأتوا برأسه إلى القائم عليه السلام.

ثم ثار عليه الدجال الذي كان ينتظره وجاءت فيه الروايات وأتى فيه الخبر، مخلد بن كيداد، فخرج من جبل أوراس فيمن تبعه فـار يطوي

للبلاد ويزيد إليه أهل الفساد والعدوان حتى أخذ منه مدينة القيروان، وقتل خليل بن إسحاق وكان بها في عسكر، ثم قتل ميسور الصقلبي فيما بين المهدية والقيروان وقد سار إليه بعسكر، ثم حل على المهدية وانتهى إلى بابها، ووقف ساعة وقد أغلق الباب دونه؛ ثم انهزم أصحابه، وكانوا يقاتلون كتامة من وراء جمة فانصرف لما انتهى إليه ذلك، وهذه الساعة هي الساعة التي كان المهدي يذكرها ويذكر أنه إنما ابتنى المهدية من أجلها. ونزل اللعين بعساكره بالقرب من سوق الأحد محاصراً للمهدية ومن حولها. وكان الأولياء من كتامة ومن غيرهم يقاتلونه بَدَداً بلا نظام ولا رئيس عليهم، وكان القائم يخبر بأيامه ومدته ووقته، فانهزم من المكان الذي كان فيه فانتهى إلى القيروان ثم عاد إلى سوسة فحاصرها؛ حتى إذا رأى القائم أن وقت هلاكه قد أزف عهد إلى الإمام المنصور عليه السلام وأمره بمحاربته، فنهض إليه في قلة من العدد والأنصار فانهزم عن سوسة واتبعه إلى القيروان فتردد أياماً ثم انهزم منها واتبعه المنصور عليه السلام وقد ولّى هارباً بين يديه، فكلما لحق به أوقع بأصحابه وأفلت حتى انتهى إلى كتاية - قلعة بناحية الزاب - فاحتصر بها وحاصره المنصور بها حتى أمكنه الله منه أسيراً وقد أثبتَ جِرَاحَةً، ثم مات في الأسر وعجل الله به إلى النار، وكانت مدته منذ وصل إلى القيروان إلى أن خرج منها عشرين شهراً وقد ذكرت أخباره واستقصيت ذكرها في كتاب ضخم معت ذلك فيه.

وقبض القائم عليه السلام إلى ما أعد الله من جزيل فضله في شوال سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وأطفأ الله بالمنصور الفتنة واستنقذ به الأمة،

وسار بالعفو والصفح عمن قدر عليه ممن نصب الحرب له وسعى في الفتنة إليه، وغزا بلاد الروم ففتح أكثر أرض قَلَوْرِيَة وأتى بفيئها وسبيها، ولم يكن أظهر وفاة القائم حتى أمكنه الله عز وجل من اللعين الدجال، فنعاه حينئذٍ إلى الناس وأظهر الصبر لمصابه والتجلد على الرزية، رجاء ثواب الله على حمل فادح ذلك وألم مضضه. ثم قبض عليه السلام في آخر شوال من سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة من بعد أن نصب للإمامة وأبان للخلافة ابنه المعز لدين الله عليه السلام، فقام بالإمامة من بعده يقفو أثره وآثار من مضى من آبائه، وأظهر مثل ما أظهره المنصور من الصبر على مصابه والتسليم لفقده، ولزم ذلك من بعده، وقام بما حمل من أعباء الخلافة، والناس بعقب فتنة، وأطراف المملكة على سبيل المعصية، والسبل خائفة، ولما تنجل طخياء الظلمة، ولا خمد لهب نار الفتنة، ورؤساء القبائل الذين كانوا هاجوا الحرب وأوقدوا نارها ممتنعون في معاقلهم من الجبال والأطراف، فنهض إليه المعز لدين الله عليه السلام بعقب ما أفضى الله بالخلافة إليه، فأنزلهم الله جل ثناؤه من صياصيهم، وقذف الرعب في قلوبهم، وأتوه محكمين له في أنفسهموملقين إليه، فسار سيرة أبيه بالعفو عنهم وأتى بهم إلى قرار ملكه عن آخرهم. ووضعت الحرب أوزارها وخمد دخانها وطفئت نارها وأمنت السبيل وهدأت الروعات وسكن الناس واطمأنوا، وألف الله به قلوب العباد، وقطع به أسباب الفساد، ودانت له الأطراف والقبائل بكل دانٍ وشاسع وقريب وناء، وأتاه محمد بن خزر أمير البربر مستسلماً إليه ملقياً بيده طالباً للصفح والعفو فمنحه ذلك تفضلاً منه وأقام ببابه رغبة منه في المقام به ونقل إليه

عياله وأهل بيته، وهو قديماً وآباؤه رؤوساء البربر أمراؤهم، إلى أن ألقى بيده وخرج إلى المعز مما كان فيه، ولم يلق بيده قبل ذلك لأحد ولا من مضى من آبائه ولا انقطعت رياستهم عنهم ولا خرجت طاعة البربر من أيديهم إلى أن أفاء الله به وبصّره طريق رشده وهديه إلى صلاح نفسه.

وغزا المعز عليه السلام بني أمية بالأندلس فأحرق أساطيلهم ودار صناعة مراكبهم، واحتوى على المرية وما فيها بعدد قليل من مراكب أخرجها لأمر تعدوا فيه وجواز جازوا في البحر إلى المشرق من غير أمره. وغزا بلد الروم فسبى قلورية وهدم كنائسها وأخرب مدائنها من بعد أن تلقى أسطوله أسطول الطاغية دونها فقاتله فهزمه وحل ببلد الروم، ثم بذل صاحب أسطول الطاغية وقائد عسكره له الجزية عن أهل ملّته وأتاه راغماً إلى بابه، نصراً من الله عز وجل ونعمة أنعمها عليها كما أنعمها على من قبله من آبائه عليهم السلام، فافتتح دولته بالسعد والإقبال، وذلل له الصعاب، وأمده بالنصر والتأييد، ووصل له النعمة والتوفيق والتسديد، وقام بأمر دعوته بنفسه راجياً على ذلك ثواب الله ربه غير مستكبر ولا مستنكف عن مباشرة قوي من طلب ذلك ولا ضيعه ولا شريفه ولا مشروفه، وأيده الله بالحكمة والبيان والحجة والبرهان، وأقام صلاة الأعياد وكثيراً من الجمع والخطبة في ذلك بنفسه بأبلغ بلاغة وأعظم خشية، وظهر منه من ذلك ما دل على تأييد الله عز وجل فيه إذ كان ذلك على قرب عهده وقلة ممارسته ودراسته، وإذ لم يعلم الناس أن معلماً أفاده ولا ملقناً لقنه غير ولي الله الذي أفضى بما عنده من علم الله إليه وزاده الله عز وجل من ذلك ما أبان به فضله ودلّ به عليه مادة منه له

وإلهاماً من قبله وتأييداً منه وفائدة من صنعه حباه بها وآثره بمكارمها وأبانه بمعجزاتها ودل بذلك على توريثه إمامة آبائه وأن ذلك كذلك ينتقل في الخلف الصالح من أبنائه، فضيلة جعلها الله لهم، وكرامة أبقاها في أعقابهم، من لدن محمد خاتم النبيين إلى انقضاء الدنيا والحمد لله رب العالمين.

وقد أثبتّ سيرة المعز وما خصه الله به من فضله وحباه من كرامته مذ أفضى إليه بخلافته إلى وقت بسطي هذا الكتاب وقتاً فوقتاً ويوماً فيوماً، وأنا على ذلك أجمع فيه وأزيد إليه ما يهب الله له ويخصه به إلى انقضاء عمري وبلوغ أجلي ودوام مدته وطول بقائه وفي طاعته وبلوغ رضائه إن شاء الله تعالى. وقد جمعنا من ذلك كتباً كثيرة أشبعت معانيها وبالغت في ذلك ما أردت ذكره فيها فلم ينبغِ لي أن أخلي هذا الكتاب من النكت التي ذكرتها فيه وذلك على حسب ما شرطت من الاختصار في أوله وبنيته من ذلك عليه.

وكان بسطي إياه في المحرم سنة ست وأربعين وثلاثمائة والحمد لله رب العالمين حمداً يرضيه المبالغة فيه ويزلفنا لديه، وصلى الله على نبيه وعلى العترة الزكية من آله وسلم عليهم أجمعين.



الفهرس